

دار الفکر
بيروت

المشروع السياسي

للإمام المهدي
عجل الله فرجه

قراءة في الأبعاد العقائدية والمفاهيمية والسياسية
والاجتماعية والأخلاقية لدعاء التوبة

ويليه

مشروع النجاة والمسؤوليات

تقريراً لأبحاث المرجع الديني

الشيخ محمد السندي (دام ظله)

بقلم

الشيخ ناجي الخاقاني

دار المحجة البيضاء

دار الفکر
بيروت

المشروع السياسي للإمام المهدي عليه السلام

ويليه

مشروع النجاة والمسؤوليات

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩ هـ / ٢٠١٨ م

ISBN 978-614-426-959-6

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال - ص.ب: ١٤/٥٤٧٩

هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧

almahajja@terra.net.lb info@daralmahaja.com

www.daralmahaja.com



دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع

ع ٥٥٠
ص ١٥٠

المشروع السياسي للإمام المهدي

قراءة في الأبعاد العقائدية والفقهية والسياسية
والاجتماعية والأخلاقية لدعاء النبوة

ويليه

مشروع النجاة والمسؤوليات

تقرير لأبحاث

المرجع الديني الشيخ محمد السند **ذَامَ ظَلَمٌ**

تأليف

الشيخ ناجي الخاقاني

دار المحجة البيضاء

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

عبد الرحمن
صالح

المشروع السياسي للإمام المهدي

قراءة في الأبعاد العقائدية والفقهية والسياسية
والاجتماعية والأخلاقية لدعاء الندبة

تقرير لأبحاث

المرجع الديني الشيخ محمد السند دام ظلته

الجزء الأول

الإهداء....

إلى كل المستضعفين والمظلومين . . .

وإلى كل من لا يجد له ناصراً غير الله .

إلى كل الحالمين بفجر جديد . . . ليس فيه ظلم أو خوف أو جوع .

وإلى مروح والدي . . .

وقبل إلى ذلك إلى سيدهم ومتقدمهم «الحجة بن الحسن المهدي» أمرواحنا

لتراب مقدمه الفداء . .

﴿يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ مَسْنَاً وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُّزْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ
وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾

[يوسف: ٨٨]

دعاء الندبة

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ
 وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا، أَللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا جَرَى بِهِ قَضَاؤُكَ
 فِي أَوْلِيَائِكَ الَّذِينَ اسْتَخَلَصْتَهُمْ لِنَفْسِكَ وَدِينِكَ إِذِ اخْتَرْتَ لَهُمْ
 جَزِيلَ مَا عِنْدَكَ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ الَّذِي لَا زَوَالَ لَهُ وَلَا اضْمِحْلَالَ
 بَعْدَ أَنْ شَرَطْتَ عَلَيْهِمُ الزُّهْدَ فِي دَرَجَاتِ هَذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ
 وَزُخْرُفِهَا وَزِبْرَجِهَا، فَشَرَطُوا لَكَ ذَلِكَ وَعَلِمْتَ مِنْهُمْ الْوَفَاءَ بِهِ
 فَقَبِلْتَهُمْ وَقَرَّبْتَهُمْ وَقَدَّمْتَ لَهُمُ الذِّكْرَ الْعَلِيِّ وَالشَّانَ الْجَلِيَّ،
 وَأَهْبَطْتَ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَتَكَ وَكَرَّمْتَهُمْ بِوَحْيِكَ وَرَفَدْتَهُمْ بِعِلْمِكَ
 وَجَعَلْتَهُمُ الذَّرِيعَةَ إِلَيْكَ وَالْوَسِيلَةَ إِلَى رِضْوَانِكَ، فَبَعْضُ أَسْكَنْتَهُ
 جَنَّتِكَ إِلَى أَنْ أَخْرَجْتَهُ مِنْهَا، وَبَعْضُ حَمَلْتَهُ فِي فُلْكَ وَنَجَّيْتَهُ
 وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ مِنَ الْهَلَكَةِ بِرَحْمَتِكَ، وَبَعْضُ اتَّخَذْتَهُ لِنَفْسِكَ
 خَلِيلًا، وَسَأَلْتَ لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ فَأَجَبْتَهُ وَجَعَلْتَ ذَلِكَ
 عَلِيًّا، وَبَعْضُ كَلَّمْتَهُ مِنْ شَجَرَةِ تَكْلِيمًا، وَجَعَلْتَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ رِذَاءً
 وَوَزِيرًا، وَبَعْضُ أَوْلَدْتَهُ مِنْ غَيْرِ أَبِي، وَآتَيْتَهُ الْبَيْتَاتِ وَأَيَّدْتَهُ بِرُوحِ

الْقُدْسِ، وَكُلُّ شَرَعَتْ لَهُ شَرِيعَةٌ وَنَهَجَتْ لَهُ مِنْهَا جَاءٌ، وَتَخَيَّرَتْ لَهُ
أَوْصِيَاءَ، مُسْتَحْفِظًا بَعْدَ مُسْتَحْفِظٍ مِنْ مُدَّةٍ، إِلَى مُدَّةٍ إِقَامَةً لِدِينِكَ
وَحُجَّةً عَلَى عِبَادِكَ، وَلئِذَا يَزُولَ الْحَقُّ عَنْ مَقَرِّهِ وَيَغْلِبَ الْبَاطِلُ
عَلَى أَهْلِهِ، وَلَا يَقُولَ أَحَدٌ لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا مُنْذِرًا وَأَقَمْتَ
لَنَا عِلْمًا هَادِيًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَى، إِلَى أَنْ
انْتَهَيْتَ بِالْأَمْرِ إِلَى حَبِيبِكَ وَنَجِيبِكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ،
فَكَانَ كَمَا انْتَجَبْتَهُ سَيِّدًا مَنْ خَلَقْتَهُ وَصَفْوَةً مِنْ اضْطَفَيْتُهُ وَأَفْضَلَ
مَنْ اجْتَبَيْتُهُ وَأَكْرَمَ مَنْ اعْتَمَدْتَهُ، قَدَّمْتَهُ عَلَى أَنْبِيَائِكَ وَبَعَثْتَهُ إِلَى
الثَّقَلَيْنِ مِنْ عِبَادِكَ، وَأَوْطَأْتَهُ مَشَارِقَكَ وَمَغَارِبَكَ، وَسَخَّرْتَ لَهُ
الْبُرَاقَ، وَعَرَجْتَ بِرُوحِهِ إِلَى سَمَائِكَ، وَأَوْدَعْتَهُ عِلْمَ مَا كَانَ وَمَا
يَكُونُ إِلَى انْقِضَاءِ خَلْقِكَ، ثُمَّ نَصَرْتَهُ بِالرُّعْبِ وَخَفَفْتَهُ بِجِبْرَائِيلَ
وَمِيكَائِيلَ وَالْمُسَوِّمِينَ مِنْ مَلَائِكَتِكَ، وَوَعَدْتَهُ أَنْ تُظَهَرَ دِينُهُ عَلَى
الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ بَوَّأْتَهُ مَبُوءًا صِدْقٍ
مِنْ أَهْلِهِ، وَجَعَلْتَ لَهُ وَلَهُمْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَيْكَةً
مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ
كَانَ آمِنًا، وَقُلْتَ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا، ثُمَّ جَعَلْتَ أَجْرَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
مَوَدَّتَهُمْ فِي كِتَابِكَ فَقُلْتَ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي
الْقُرْبَى، وَقُلْتَ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ، وَقُلْتَ مَا أَسْأَلُكُمْ

عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا، فَكَانُوا هُمْ
السَّبِيلَ إِلَيْكَ وَالْمَسْلَكَ إِلَىٰ رِضْوَانِكَ، فَلَمَّا انْقَضَتْ أَيَّامُهُ أَقَامَ
وَلِيِّهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِمَا وَآلِهِمَا هَادِيًا إِذْ كَانَ هُوَ
الْمُنْدِرَ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ، فَقَالَ وَالْمَلَأُ أَمَامَهُ مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ
مَوْلَاهُ، أَللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ
وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ، وَقَالَ مَنْ كُنْتُ أَنَا نَبِيَّهُ فَعَلِيٌّ أَمِيرُهُ، وَقَالَ أَنَا
وَعَلِيٌّ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ وَسَائِرُ النَّاسِ مِنْ شَجَرٍ شَتَّى، وَأَحَلَّهُ
مَحَلَّ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، فَقَالَ لَهُ أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ
مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَزَوْجُهُ ابْنَتُهُ سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ،
وَأَحَلَّ لَهُ مِنْ مَسْجِدِهِ مَا حَلَّ لَهُ، وَسَدَّ الْأَبْوَابَ إِلَّا بَابَهُ، ثُمَّ أَوْدَعَهُ
عِلْمَهُ وَحِكْمَتَهُ فَقَالَ أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بِأَبْهَا فَمَنْ أَرَادَ الْمَدِينَةَ
وَالْحِكْمَةَ فَلْيَأْتِهَا مِنْ بَابِهَا، ثُمَّ قَالَ أَنْتَ أَخِي وَوَصِيِّي وَوَارِثِي،
لَحْمِكَ مِنْ لَحْمِي وَدَمُّكَ مِنْ دَمِي وَسِلْمُكَ سِلْمِي وَحَرْبُكَ
حَرْبِي، وَالْإِيمَانُ مُخَالِطُ لَحْمِكَ وَدَمِّكَ كَمَا خَالَطَ لَحْمِي وَدَمِي،
وَأَنْتَ غَدًا عَلَى الْحَوْضِ خَلِيفَتِي، وَأَنْتَ تَقْضِي دِينِي وَتُنْجِزُ
عِدَاتِي، وَشِيعَتُكَ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ مُبَيَّضَةٍ وَجُوهُهُمْ حَوْلِي فِي
الْجَنَّةِ، وَهُمْ جِيرَانِي، وَلَوْ لَا أَنْتَ يَا عَلِيُّ لَمْ يُعْرِفِ الْمُؤْمِنُونَ
بِعِدِّي، وَكَانَ بَعْدَهُ هُدَى مِنَ الضَّلَالِ وَنُورًا مِنَ الْعَمَى وَحَبْلَ اللَّهِ
الْمَتِينِ وَصِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمِ، لَا يُسْبِقُ بِقَرَابَةٍ فِي رَحِمٍ وَلَا بِسَابِقَةٍ فِي

دِينَ، وَلَا يُلْحَقُ فِي مَنْقَبَةٍ مِنْ مَنْقَبِهِ، يَحْذُو حَذْوَ الرَّسُولِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَالْإِهْمَا، وَيُقَاتِلُ عَلَى التَّأْوِيلِ، وَلَا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ
 لَائِمٌ، قَدْ وَتَرَ فِيهِ صَنَائِدَ الْعَرَبِ، وَقَتْلَ أَبْطَالِهِمْ وَنَاوَشَ ذُؤَابَانَهُمْ،
 فَأَوْدَعَ قُلُوبَهُمْ أَحْقَادًا بَدْرِيَّةً وَخَيْبَرِيَّةً وَحُنَيْنِيَّةً وَغَيْرُهُنَّ، فَأَضَبَتْ
 عَلَى عِدَاوَتِهِ وَأَكْبَتْ عَلَى مُنَابَذَتِهِ، حَتَّى قَتَلَ النَّاكِثِينَ وَالْقَاسِطِينَ
 وَالْمَارِقِينَ وَلَمَّا قَضَى نَحْبَهُ وَقَتَلَهُ أَشَقَى الْأَخْرِيْنَ يَتَّبِعُ أَشَقَى
 الْأَوَّلِينَ، لَمْ يُمَثَّلْ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي الْهَادِينَ
 بَعْدَ الْهَادِينَ، وَالْأُمَّةُ مُصِرَّةٌ عَلَى مَقْتِهِ مُجْتَمِعَةٌ عَلَى قَطِيعَةِ رَحِمِهِ
 وَإِقْصَاءِ وُلْدِهِ إِلَّا الْقَلِيلَ مِمَّنْ وَفَى لِرِعَايَةِ الْحَقِّ فِيهِمْ، فَقُتِلَ مَنْ
 قُتِلَ وَسُبِّي مَنْ سُبِّي وَأُقْصِيَ مَنْ أُقْصِيَ وَجَرَى الْقَضَاءُ لَهُمْ بِمَا
 يُرْجَى لَهُ حُسْنُ الْمَثُوبَةِ إِذْ كَانَتْ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ
 عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَسُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا،
 وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، فَعَلَى الْأَطْيَابِ مِنْ
 أَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ وَعَلِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَالْإِهْمَا فَلْيَبْكِ الْبَاكُونَ،
 وَإِيَّاهُمْ فَلْيَنْدُبِ النَّادِبُونَ، وَلِمِثْلِهِمْ فَلْيَتَذَرِفِ الدُّمُوعُ وَلْيَصْرُخِ
 الصَّارِحُونَ وَيَبْضَجِ الضَّاجِحُونَ وَيَعِجَّ الْعَاجِحُونَ، أَيَّنَ الْحَسَنُ أَيَّنَ
 الْحُسَيْنُ أَيَّنَ أَبْنَاءَ الْحُسَيْنِ، صَالِحٌ بَعْدَ صَالِحٍ وَصَادِقٌ بَعْدَ
 صَادِقٍ، أَيَّنَ السَّبِيلُ بَعْدَ السَّبِيلِ، أَيَّنَ الْخَيْرَةُ بَعْدَ الْخَيْرَةِ، أَيَّنَ
 الشُّمُوسُ الطَّالِعَةُ أَيَّنَ الْأَقْمَارُ الْمُنِيرَةُ أَيَّنَ الْأَنْجُمُ الزَّاهِرَةُ أَيَّنَ

أَعْلَامُ الدِّينِ وَقَوَاعِدُ الْعِلْمِ، أَيْنَ بَقِيَّةُ اللَّهِ الَّتِي لَا تَخْلُو مِنَ الْعِتْرَةِ
الْهَادِيَةِ، أَيْنَ الْمُعَدَّةُ لِقَطْعِ دَابِرِ الظُّلْمَةِ، أَيْنَ الْمُتَنْظَرُ لِإِقَامَةِ الْأَمْتِ
وَالْعُوجِ، أَيْنَ الْمُرْتَجَى لِإِزَالَةِ الْجَوْرِ وَالْعُدْوَانِ، أَيْنَ الْمُدَّخِرُ
لِتَجْدِيدِ الْفَرَائِضِ وَالسُّنَنِ، أَيْنَ الْمُتَخَيَّرُ لِإِعَادَةِ الْمِلَّةِ وَالشَّرِيعَةِ،
أَيْنَ الْمُؤَمَّلُ لِإِحْيَاءِ الْكِتَابِ وَحُدُودِهِ، أَيْنَ مُحْيِي مَعَالِمِ الدِّينِ
وَأَهْلِهِ، أَيْنَ قَاصِمُ شَوْكَةِ الْمُعْتَدِينَ، أَيْنَ هَادِمُ أَبْنِيَةِ الشَّرِكِ
وَالنَّفَاقِ، أَيْنَ مُبِيدُ أَهْلِ الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ وَالطُّغْيَانِ، أَيْنَ حَاصِدُ
فُرُوعِ الْغِيِّ وَالشَّقَاقِ، أَيْنَ طَامِسُ آثَارِ الزَّبْعِ وَالْأَهْوَاءِ، أَيْنَ قَاطِعُ
حَبَائِلِ الْكُذْبِ وَالْإِفْتِرَاءِ، أَيْنَ مُبِيدُ الْعُتَاةِ وَالْمَرَدَةِ، أَيْنَ مُسْتَأْصِلُ
أَهْلِ الْعِنَادِ وَالتَّضْلِيلِ وَالْإِلْحَادِ، أَيْنَ مُعَزُّ الْأَوْلِيَاءِ وَمُذِلُّ الْأَعْدَاءِ،
أَيْنَ جَامِعُ الْكَلِمَةِ عَلَى التَّقْوَى، أَيْنَ بَابُ اللَّهِ الَّذِي مِنْهُ يُوتَى، أَيْنَ
وَجْهُ اللَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ يَتَوَجَّهُ الْأَوْلِيَاءُ، أَيْنَ السَّبَبُ الْمُتَّصِلُ بَيْنَ
الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، أَيْنَ صَاحِبُ يَوْمِ الْفَتْحِ وَنَاشِرُ رَايَةِ الْهُدَى، أَيْنَ
مُؤَلَّفُ شَمْلِ الصَّلَاحِ وَالرِّضَا، أَيْنَ الطَّالِبُ بِذُحُولِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَبْنَاءِ
الْأَنْبِيَاءِ، أَيْنَ الطَّالِبُ بِدَمِ الْمُقْتُولِ بِكَرْبَلَاءَ، أَيْنَ الْمَنْصُورُ عَلَى مَنْ
اعْتَدَى عَلَيْهِ وَافْتَرَى، أَيْنَ الْمُضْطَرُّ الَّذِي يُجَابُ إِذَا دَعَا، أَيْنَ
صَدْرُ الْخَلَائِقِ ذُو الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، أَيْنَ ابْنُ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى وَابْنُ
عَلِيِّ الْمُرْتَضَى وَابْنُ حَدِيدَةِ الْغُرَّاءِ وَابْنُ فَاطِمَةَ الْكُبْرَى، بِأَبِي
أَنْتَ وَأُمِّي وَنَفْسِي لَكَ الْوِقَاءُ وَالْحِمَى، يَا بَنِي السَّادَةِ الْمُقَرَّبِينَ،

يَابْنَ النَّجْبَاءِ الْأَكْرَمِينَ، يَابْنَ الْهُدَاةِ الْمَهْدِيِّينَ، يَابْنَ الْخَيْرَةَ
الْمَهْدِيِّينَ، يَابْنَ الْغَطَارِفَةَ الْأَنْجَبِينَ، يَابْنَ الْأَطَايِبِ الْمُطَهَّرِينَ، يَابْنَ
الْخَضَارِمَةَ الْمُنتَجِبِينَ، يَابْنَ الْقِمَاقِمَةَ الْأَكْرَمِينَ، يَابْنَ الْبُدُورِ
الْمُنِيرَةَ، يَابْنَ السُّرُجِ الْمُضِيئَةَ، يَابْنَ الشُّهُبِ الثَّاقِبَةَ، يَابْنَ الْأَنْجُمِ
الزَّاهِرَةَ، يَابْنَ السَّبُلِ الْوَاضِحَةَ، يَابْنَ الْأَعْلَامِ اللَّائِحَةَ، يَابْنَ الْعُلُومِ
الْكَامِلَةَ، يَابْنَ السُّنَنِ الْمَشْهُورَةَ، يَابْنَ الْمَعَالِمِ الْمَأْثُورَةَ، يَابْنَ
الْمُعْجَزَاتِ الْمَوْجُودَةَ، يَابْنَ الدَّلَائِلِ الْمَشْهُودَةَ، يَابْنَ الصَّرَاطِ
الْمُسْتَقِيمِ، يَابْنَ النَّبَاِ الْعَظِيمِ، يَابْنَ مَنْ هُوَ فِي أُمَّ الْكِتَابِ لَدَى اللَّهِ
عَلِيٌّ حَكِيمٌ، يَابْنَ الْآيَاتِ وَالْبَيِّنَاتِ، يَابْنَ الدَّلَائِلِ الظَّاهِرَاتِ، يَابْنَ
الْبَرَاهِينِ الْوَاضِحَاتِ الْبَاهِرَاتِ، يَابْنَ الْحُجُجِ الْبَالِغَاتِ، يَابْنَ النَّعَمِ
السَّابِغَاتِ، يَابْنَ طَهٍ وَالْمُحَكَّمَاتِ، يَابْنَ يَسٍ وَالذَّارِيَاتِ، يَابْنَ
الطُّورِ وَالْعَادِيَاتِ، يَابْنَ مَنْ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى
دُنُوًّا وَاقْتِرَابًا مِنَ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى، لَيْتَ شِعْرِي أَيْنَ اسْتَقَرَّتْ بِكَ
النَّوَى، بَلْ أَيُّ أَرْضٍ تُثْقَلُكَ أَوْ تُرَى، أِبْرَضُوى أَوْ غَيْرَهَا أَمْ ذِي
طُوى، عَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ أَرَى الْخَلْقَ وَلَا تُرَى، وَلَا أَسْمَعُ لَكَ حَسِيسًا
وَلَا نَجْوَى، عَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ تُحِيطَ بِكَ دُونِي الْبَلْوَى وَلَا يَنَالِكَ مِنِّي
ضَجِيجٌ وَلَا شَكْوَى، بِنَفْسِي أَنْتَ مِنْ مُغِيبٍ لَمْ يَخْلُ مِنَّا، بِنَفْسِي
أَنْتَ مِنْ نَارِحٍ مَا نَزَحَ عَنَّا، بِنَفْسِي أَنْتَ أُمْنِيَّةٌ شَائِقٌ يَتَمَنَّى، مِنْ
مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ ذَكَرْنَا فَحَنَّا، بِنَفْسِي أَنْتَ مِنْ عَقِيدٍ عَزَّ لَا يُسَامَى،

بِنَفْسِي أَنْتَ مِنْ أَثِيلِ مَجْدٍ لَا يُجَارَى، بِنَفْسِي أَنْتَ مِنْ تِلَادٍ نِعَمٍ لَا
تُضَاهَى، بِنَفْسِي أَنْتَ مِنْ نَصِيفِ شَرَفٍ لَا يُسَاوَى، إِلَى مَتَى أَحَارُ
فِيكَ يَا مَوْلَايَ وَإِلَى مَتَى، وَأَيَّ خِطَابٍ أَصِفُ فِيكَ وَأَيَّ نَجْوَى،
عَزِيزُ عَلَيَّ أَنْ أُجَابَ دُونَكَ وَأُنَاغَى، عَزِيزُ عَلَيَّ أَنْ أَبْكِيكَ
وَيَحْذَلِكَ الْوَرَى، عَزِيزُ عَلَيَّ أَنْ يَجْرِي عَلَيْنِكَ دُونَهُمْ مَا جَرَى،
هَلْ مِنْ مُعِينٍ فَأُطِيلَ مَعَهُ الْعَوِيلَ وَالْبُكَاءَ، هَلْ مِنْ جَزُوعٍ فَأُسَاعِدَ
جَزَعَهُ إِذَا خَلَا، هَلْ قَدِيتُ عَيْنٌ فَسَاعَدْتَهَا عَيْنِي عَلَى الْقَدَى، هَلْ
إِلَيْكَ يَا بَنَ أَحْمَدَ سَبِيلٌ فَتَلْقَى، هَلْ يَتَّصِلُ يَوْمَنَا مِنْكَ بَعْدَةَ
فَنَحْطَى، مَتَى نَرِدُ مَنَاهَلِكَ الرَّوِيَّةَ فَنَرَوَى، مَتَى نَنْتَفِعُ مِنْ عَذْبِ
مَائِكَ فَقَدْ طَالَ الصَّدَى، مَتَى نُغَادِيكَ وَنُرَاوِحُكَ فَفَقِرَ عَيْنًا، مَتَى
تَرَانَا وَنَرَاكَ وَقَدْ نَشَرْتَ لِوَاءِ النَّصْرِ تُرَى، أَتَرَانَا نَحْفُ بِكَ وَأَنْتَ
تَوْمُ الْمَلَأَ وَقَدْ مَلَأْتَ الْأَرْضَ عَدْلًا وَأَذَقْتَ أَعْدَاءَكَ هَوَانًا وَعِقَابًا
وَأَبْرَتَ الْعُنَاةَ وَجَحَاةَ الْحَقِّ وَقَطَعْتَ دَابِرَ الْمُتَكَبِّرِينَ وَاجْتَشَّتْ
أُصُولَ الظَّالِمِينَ وَنَحْنُ نَقُولُ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، اَللَّهُمَّ أَنْتَ
كَشَّافُ الْكَرْبِ وَالْبَلْوَى، وَإِلَيْكَ أَسْتَعْدِي فَعِنْدَكَ الْعُدْوَى، وَأَنْتَ
رَبُّ الْآخِرَةِ وَالْدُنْيَا، فَأَغِثْ يَا غِيَاثَ الْمُسْتَغِيثِينَ عِبِيدَكَ الْمُبْتَلَى،
وَأَرِهِ سَيِّدُهُ يَا شَدِيدَ الْقُوَى، وَأَزِلْ عَنْهُ بِهِ الْأَسَى وَالْجَوَى، وَبَرِّدْ
غَلِيلَهُ يَا مَنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى، وَمَنْ إِلَيْهِ الرَّجْعَى وَالْمُنْتَهَى،
اَللَّهُمَّ وَنَحْنُ عِبِيدُكَ التَّائِقُونَ إِلَيْكَ وَإِلَيْكَ الْمُدَكَّرُ بِكَ وَبِنَبِيِّكَ،

خَلَقْتَهُ لَنَا عِصْمَةً وَمَلَاذًا، وَأَقَمْتَهُ لَنَا قِوَامًا وَمَعَاذًا، وَجَعَلْتَهُ
لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَّا إِمَامًا، فَبَلِّغْهُ مِنَّا تَحِيَّةً وَسَلَامًا، وَزِدْنَا بِذَلِكَ يَا رَبِّ
إِكْرَامًا، وَاجْعَلْ مُسْتَقَرَّهُ لَنَا مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا، وَأَتِمِّمْ نِعْمَتَكَ
بِتَقْدِيمِكَ إِلَيْهِ أَمَانًا، حَتَّى تُورِدَنَا جَنَّاتِكَ وَمُرَافِقَةَ الشُّهَدَاءِ مِنْ
خُلَصَائِكَ، اَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
جَدِّهِ وَرَسُولِكَ السَّيِّدِ الْأَكْبَرِ، وَعَلَى أَبِيهِ السَّيِّدِ الْأَصْغَرِ، وَجَدَّتِهِ
الصَّدِيقَةِ الْكُبْرَى فَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ عليها السلام، وَعَلَى مَنْ اصْطَفَيْتَ
مِنْ آبَائِهِ الْبَرَّةِ، وَعَلَيْهِ أَفْضَلُ وَأَكْمَلُ وَأَتَمُّ وَأَدْوَمُ وَأَكْثَرُ وَأَوْفَرُ مَا
صَلَّيْتَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَصْفِيَائِكَ وَخَيْرَتِكَ مِنْ خَلْقِكَ، وَصَلِّ عَلَيْهِ
صَلَاةً لَا غَايَةَ لِعَدَدِهَا وَلَا نِهَايَةَ لِمَدَدِهَا وَلَا نَفَادَ لِأَمْدِهَا، اَللَّهُمَّ
وَأَقِمْ بِهِ الْحَقَّ وَادْحَضْ بِهِ الْبَاطِلَ وَأَدِلْ بِهِ أَوْلِيَاءَكَ وَأَذِلِّ بِهِ
أَعْدَاءَكَ، وَصَلِّ اَللَّهُمَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ وَصَلَّةً تُؤَدِّي إِلَيَّ مُرَافِقَةَ سَلَفِهِ،
وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَأْخُذُ بِحُجْرَتِهِمْ، وَيَمْكُثُ فِي ظِلِّهِمْ، وَأَعِنَّا عَلَى
تَأْدِيَةِ حُقُوقِهِ إِلَيْهِ، وَالْإِجْتِهَادِ فِي طَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ، وَامْنُنْ
عَلَيْنَا بِرِضَاهُ، وَهَبْ لَنَا رَأْفَتَهُ وَرَحْمَتَهُ وَدُعَاءَهُ وَخَيْرَهُ، مَا نَنَالُ بِهِ
سَعَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَفَوْزًا عِنْدَكَ، وَاجْعَلْ صَلَاتَنَا بِهِ مَقْبُولَةً،
وَذُنُوبَنَا بِهِ مَغْفُورَةً، وَدُعَاءَنَا بِهِ مُسْتَجَابًا، وَاجْعَلْ أَرْزَاقَنَا بِهِ
مَبْسُوطَةً، وَهُمُومَنَا بِهِ مَكْفِيَةً، وَحَوَائِجَنَا بِهِ مَقْضِيَةً، وَأَقْبِلْ إِلَيْنَا
بِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ، وَأَقْبِلْ تَقَرُّبَنَا إِلَيْكَ، وَانظُرْ إِلَيْنَا نَظْرَةَ رَحِيمَةٍ

نَسْتَكْمِلُ بِهَا الْكِرَامَةَ عِنْدَكَ، ثُمَّ لَا تَصْرِفُهَا عَنَّا بِجُودِكَ، وَاسْقِنَا
مِنْ حَوْضِ جَدِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِكَأْسِهِ وَبِيَدِهِ رِيًّا رَوِيًّا هَنِيئًا
سَائِعًا لَا ظَمًا بَعْدَهُ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

تمهيد

الحمد لله حمداً كثيراً دائماً، والصلاة والسلام على سيد الخلق أبي القاسم محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين مظهري أدلة التوحيد، والمصطفين ملوكاً لحفظ النظام، والمبعوثين لقيام القسط في ابتداء الوجود إلى يوم الدين.

مشروع المهدوية:

المنتظر الموعود يكاد يكون القاسم المشترك بين الشعوب والحضارات المختلفة، ولا تكاد تخلو أمة من الأمم من هذه الفكرة، فكل الشعوب تنتظر المنقذ الذي يُخلّصها من الظلم والاضطهاد، ويحقق لها الحياة الحرّة الكريمة حيث العدل والمساواة.

وبسبب الشغف بهذا المشروع استغلّ الكثير من أصحاب النفوس المريضة عبر التاريخ هذه المسألة، كما حاولوا استغلالها من اجل الوصول إلى السلطة، ومتى ما تمكنوا منها عادوا ليمارسوا أنواع الظلم والبطش والاضطهاد لتلك الشعوب، وصار حكمهم ملكاً عضواً يتوارثه الابناء عن الإباء.

هذا المشروع هو ضرورة إنسانية، فكل الأمم لازالت تؤمن بوجود

مصلح عالمي سيظهر لكي يوحد البشرية تحت لوائه فيزيل كل الحواجز نحو الأخوة البشرية، ويزيل كل أنواع الظلم والإضطهاد.

وإن كان هذا الأمر لا تختص به أمة دون أخرى لكن يبقى المنتظر الإسلامي (الإمام المهدي عليه السلام) هو المصداق الحقيقي والوحيد لمفهوم المصلح العالمي، فهو بشارة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهو المنتظر لإقامة الأمت والعوج وإصلاح ما أفسده الطغاة، وهو الذي سيملاًها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، فهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «أبشركم بالمهدي، يبعث في أمتي على اختلاف من الناس وزلزال فيملاًها قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»^(١).

وعليه فمن نافلة القول إن المؤمن بهذا المشروع الإلهي والمنتظر له عليه أن يتعرف على هذا المشروع، ويسعى لإزالة العقبات عن طريقه في سبيل تعجيل الظهور المقدس، والتمهيد لإقامة الحكومة الإلهية العادلة، وهذا يتم فيما لو دققنا النظر في المشروع المهدي من خلال رؤيا «الثقلين»، القرآن الكريم وأهل البيت عليهم السلام والنصوص الواردة عنهما، سواء تلميحاً أو تصريحاً، وقراءة بنود هذا المشروع قراءة واعية، لا قراءة سطحية ساذجة بعيدة عن الواقع تحولنا إلى منتظرين متفرجين ساكنين.

فمما لا شك فيه أن هناك نوعين من الانتظار:

أحدهما هو الانتظار السلبي، وهو يعني القعود وترك العمل للظروف وحوادث الأيام.

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٥١، ص ٨١.

والثاني هو الانتظار الإيجابي الذي يقترن بالعمل والجهد وإعداد العدة والاستعداد لظهور الإمام المهدي عليه السلام، وهؤلاء المنتظرون هم الذي يعتقدون أن الإمام غاب خفاءً نتيجة عدم توفر الظروف الموضوعية للمشروع المهدي، وهذا يعني العمل من أجل «استرجاع» الغائب المستور من غيبته وتمهيد الأرض لقيام دولته المباركة، وإنه لشرف عظيم أن يكون المرء فاعلاً في تحقيق هذا المشروع الإلهي المقدس.

من المؤكد أنه لا يمكن للأمر أن تستقيم عفواً لصاحب العصر والزمان عليه السلام، بشهادة صادق آل محمد عليه الصلاة والسلام في رده على من قال بذلك، قال: «كلا والذي نفسي بيده لو استقامت عفواً لاستقامت لرسول الله صلى الله عليه وآله حين أدميت رباعيته، وشج في وجهه، كلا والذي نفسي بيده حتى نمسح نحن وأتم العرق والعلق، ثم مسح جبهته»^(١).

وهذه الرواية تكفي لتلخيص المطلوب، وأن المشروع الإلهي لا يتحقق إلا بالعمل الدؤوب والمشارك.

هذا الدور يحتاج إلى وعي في قراءة المشروع المهدي، والذي وردت علاماته وشروطه وآلياته عن طريق «الثقلين»، سواء في النصوص القرآنية أو الأحاديث الواردة عن النبي وآله عليهم الصلاة والسلام، وكذلك الأدعية والزيارات الخاصة بالإمام المهدي عليه السلام، وهذه القراءة الواعية تكون من خلال التعاطي المنظومي المجموعي مع البنود المهدوية، لا فقرة دون أخرى.

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ١٧٧.

هذا الكتاب:

هذا الكتاب هو مجموعة من المحاضرات التي ألقاها سماحة آية الله العظمى الشيخ «محمد السند عليه السلام» في مسجد «عمران بن شاهين» في «العتبة العلوية المقدسة»، تحدث فيها عن المشروع المهدي من خلال بنود دعاء الندبة وبقية الأدعية والزيارات الخاصة بصاحب العصر والزمان عليه السلام، وهي قراءة منظومية لمجموعة لبنود المشروع المهدي بلغة عصرية، وضح فيها سماحته آليات القراءة الصحيحة والواعية والبصيرة لهذا المشروع الإلهي المقدس، لتتحول عندها من الانتظار السلبي إلى الإيجابي، ونكون فاعلين في هذا المشروع، ممهدين لظهوره المبارك، ومشاركين في إقامة دولة العدل الإلهي.

ولأهمية تلك المحاضرات قمنا بتقريرها وصياغتها في هذا الكتاب لتعم فائدتها المؤمنين المنتظرين لسطوع أمل البشرية ومنقذها عليه السلام.
نسأل الله سبحانه أن نكون قد وفقنا في هذا العمل، وأن يتقبل منا بمنه، ويعفو عنا وعن والدينا بكرمه.

«ربنا اليك أنبنا فتقبل منا إنك أنت السميع العليم».

والحمد لله رب العالمين.

الشيخ

ناجي الخاقاني

النجف الأشرف - ١٤٣٩ هـ

الفصل الأول

سند الدعاء وحقيقته

- سند دعاء الندبة
- تنبيهات مهمة
- معنى الندبة
- الأركان الرئيسية في الدعاء
- خلاصة التراث

سند دعاء الندبة

هناك من يثير بعض التساؤلات عن سند دعاء الندبة وقد يصل إلى إثارة اللغط والتشكيك بهذا الدعاء الشريف.

والإجابة على هذا التساؤل أو رد التشكيك بسند الدعاء الشريف من خلال عدة وجوه، وإن كان العمدة في الحجية ليس السند فقط، وهذا ما دأب عليه مشهور الفقهاء كالشيخ المفيد والسيد المرتضى وابن زهرة وأكثر القدماء أيضاً، كما نقل الشيخ الانصاري في الرسائل أن الركن الأهم في حجية الخبر هو متن الخبر ونفس الحديث الشريف، والمحقق الحلبي كذلك في كتاب معارج الأصول، بل إن الشيخ المفيد وبعض القدماء عدّوا من يجعل الطريق هو الركن الأهم من الحشوية، وهذا لا يعني أن الطريق والسند ليس له دور، بل له دور ولكنه شرط جزء في موضوع الحجية، أما الركن الأهم في الحجية فهو المتن.

ويجب الالتفات إلى أن الخبر لا تستتم حجيته إلا بعدة جهات: منها حجية الطريق، وحجية جهة الصدور، وحجية الدلالة، مضافاً إلى أن صحة الكتاب تغاير صحة الطريق.

أما سند الدعاء فيمكن معرفة صحته من عدة وجوه:

الوجه الأول:

سيرة العلماء والمؤمنين على اعتمادها، حيث دأب العلماء الأوائل منذ القرن الرابع تقريباً على تربية الأمة وفي أوقات مهمة وحساسة في الأعياد وأيام الجمع تربية عقائدية وإيمانية وتحويلها إلى شعيرة، وهي الاستمرار في دعاء الندبة، والدعاء به لصاحب العصر والزمان عليه السلام منذ بداية عصر الغيبة الكبرى، وأصبح ظاهرة عبادية منتشرة ومن طقوس ومعالن الإيمان، وسيرة علماء الإمامية فيه تربية المؤمنين على تعهده والاستمرار في التمسك به.

بل إن الشيخ الانصاري رحمه الله محقق وأستاذ الفقهاء، يستدل على بحث حساس ومُعقّد في الخيارات في بحث الشروط - وهو بحث مفصلي في كل العقود والإيقاعات في معنى الشرط، وهل أنه يشمل الشرط الابتدائي أو غيره - بمقطع من متن دعاء الندبة: «وشرطت عليهم الزهد في درجات هذه الدنيا الدنية..» ويرسله هكذا إرسال المسلمات.

وهكذا المرحوم الاصفهاني وكذلك السيد الخوئي رحمة الله عليهما، فسيرة علماء الإمامية في الاستدلال بدعاء الندبة شيء مركز لديهم، وليس فقط سيرة عملية بل فتوائية أيضاً كما في جعل مقطعاً منه مستنداً لقاعدة الشروط، والتي هي قاعدة خطيرة تجري في كل العقود، وهذا الأمر مفروغ منه منذ القرن الرابع، وهو ظاهرة موجودة وشائعة.

الوجه الثاني:

أنه متواتر لفظاً، وهذه حقيقة متحققة وإن يستغرب البعض منها، وهذا الأمر قامت بالدلالة عليه إحدى المؤسسات العلمية الحوزوية،

حيث وجدت بعد التحقيق أن دعاء الندبة موجود بألفاظه وبنوده في جمل والفاظ وحيانية متواترة لفظاً، أي أن كل جملة فيه أو جملتين معاً يوجد لها نص وحياني، بل إن البعض منها لها وجود وحياني قرآني.

فهم لم يكتفوا بالاستفاضة المعنوية، أو التواتر المعنوي، أو اللفظية المعنوية، بل اثبتوا التواتر اللفظي في كل بنوده وجمله، وهذه الطريقة هي من خلال الاتيان بألفاظ الدعاء جملة جملة، أو جملتين بمعنى واحد ثم يبحثون في طوائف الروايات الواردة في موارد عديدة فيجدون نفس اللفظ ونفس التركيب والسياق، لكن هذا التواتر يسمى تواتر توليفي وهو تواتر حقيقي، يعني هو مؤلف من مجموعة طوائف من الروايات كل منها تشكل وروداً لهذه اللفظة المعينة، ومن المجموع يصبح عندنا تواتر لفظي حسب هذه الضابطة.

والتواتر له أقسام عديدة منها: التواتر اللفظي، والتواتر المعنوي، والأجمالي، والنظري، والبديهي، وأيضاً تواتر وسيع الدائرة ومتوسطه، وتواتر نخبوي، واحكامها تختلف عن بعضها البعض، ويجب الالتفات إلى ذلك.

مثلاً: إذا نظرنا إلى اللغة العربية فانها بتمام موادها وخصوصياتها وقواعدها متواترة، ولكن هذا التواتر ليس عند كل من يتكلم اللغة العربية، بل هناك من يتكلم اللغة العربية أباً عن جد لكنه لا يحيط بدقائقها، فهو متواتر فقط عند مجموعة من النخب، وهذا ما يسمونه تواتر ضمن دائرة محدودة، وهو قسم من أقسام التواتر، والبعض غفلةً ينفي التواتر في حال عدم وجوده عند دائرة وسيعه، وهذا بسبب عدم الاطلاع على أقسامه، فلو فرضنا أن أحد أصحاب الإمام الصادق أو الكاظم أو الرضا عليهم السلام لم يكن

مطلعاً على كل الأئمة، فهذا لا ينفي التواتر، لأنه عبارة عن دوائر، وقد لا يكون هذا الشخص مشمولاً بدائرة التواتر.

هذه الشبهات والمغالطات تثار لعدم الانتباه إلى أقسام التواتر، ومن هذا الباب قال كبار العلماء بالتواتر النظري، وهو ما يختص بالاطلاع عليه رؤاد العلماء وكبارهم لأنهم يملكون تتبع علمي صناعي ثاقب، يعلمون من خلاله أن هذا الأمر متواتر في روايات أهل البيت عليهم السلام وهذا ما يُسمى بالتواتر النظري، وإن كان عموم العوام أو حتى بعض العلماء لا يعلمون به فلا يصح الاستعجال بأنكار التواتر بمجرد عدم وجود الوسيط منه بعد وجود النخبوي منه.

وهذا الأمر يشبه جغرافيا الكرة الأرضية التي فيها تواتر لدى عموم البشر، بخلاف جغرافية بلد معين فإنها ليست مواترة لكل البشر، بل هي متواترة عند أبناء ذلك البلد أو المجاورين له، وعدم توفر التواتر لعموم البشر، لا ينفي التواتر لدى دائرة أضيق، لما تقدم أنه على أقسام متعددة. وعليه لا يجب التشكيك في المسائل الحساسة، بحجة عدم التواتر لمن لا يملك القابلية والتخصّص في علم الرجال والدراية والحديث وعلوم أخرى تقع في هذا السياق.

وبما أن تراث الدين مهم جداً فيجب الحذر من الحكم عليه بهذه الطريقة، فهو منسوب إلى السماء سواء بنسبة احتمالية أو جزمية، والنسبة الاحتمالية لها أهمية، نعم ليس هناك تسامح أو إنفلات من هذا الطرف أو ذاك.

وعلى ضوء هذا المنهج فإن دعاء الندبة بنداً بنداً وردت ألفاظه في

روايات عديدة من مجموعها يصبح لدينا تواتراً لفظياً بتلفيق طوائف الروايات، أما أن يكون تواتراً من أول الدعاء إلى آخره فالأمر بهذه الطريقة ليس ضرورياً.

ولكن يجب الالتفات إلى أن الأدعية مصادر معرفية مهمة لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، فهي من الأهمية بمكان وهي ليست أمراً هيئياً، لذا يجب التدقيق فيها طبق موازين علمية دقيقة.

كما أن المؤسسة العلمية التي قامت بتخريج بنود وجمل الدعاء أثبتت أن جملة من البنود الواردة في هذا الدعاء الشريف فيها هي في الأصل بنود قرآنية وهذه نكتة لطيفة، لكي لا يتوهم أحد بأن هذه القوالب (الأدعية) من وضع عالم من العلماء كما للأسف يتلفظ به البعض من دون دراية، فكل إنسان يحدّد موقفاً علمياً من دون مستند، نفيّاً وإثباتاً يُحاسب عليه، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(١).

ولو أشكل وقيل: سلّمنا أن بنود الدعاء متواترة وأنها ألفاظ وحيانية، أما النظم والربط بين تلك البنود فهو بشري؟

فجوابه: أن الربط البشري لا يُخل بحجية البنود الوحيانية حتى ولو كان هناك تقديم وتأخير في المطالب، فكل كتب الأحاديث الموجودة عندنا تبويبها نظم بشري، ولكن حجية تلك الأحاديث ثابتة، وحتى القرآن الكريم فنحن نعلم أن العهد المكي أسبق من المدني، لكنك تجد في تسلسل السور القرآنية الموجودة بين الدفتين عدم مراعاة لذلك الأمر،

(١) سورة الإسراء، الآية ٣٦.

وترى سور مدنية قبل المكية، وهذا لا يخل بحجية القرآن الكريم، وهذا الأمر ينطبق أيضاً على دعاء الندبة الشريف.

الوجه الثالث:

أحد المباني والمدارس في علم الرجال، تعتقد أن نفس كتب الحديث هي مصدر من مصادر علم الرجال، من خلال علم الطبقات وعلم تجريد الإسناد، يعني الأسانيد الموجودة في كتب الحديث وطبقاتها تعتبر أعظم مصدر متواتر ومتصل لعلم الرجال، وقد مارسه الكثير من العلماء منهم شيخ الشريعة وكذلك الوحيد البهباني والشيخ علي النمازي وغيرهم، ومن خلال علم الأسانيد يعرف الراوي التلميذ وأستاذه ومشربه العلمي وكفائه.

ومن خلال هذا المبني الرجالي نستطيع معرفة وثيقة سند دعاء الندبة، فأقدم مصدر لهذا الدعاء هو كتاب «المزار» للشيخ أبي عبد الله محمد بن جعفر بن المشهدي^(١) وهو يرويه عن محمد بن علي بن أبي قرة^(٢)، والذي بدوره نقله عن كتاب محمد بن الحسن بن سفيان البزوفري^(٣).

(١) الشيخ أبو عبد الله محمد بن جعفر بن المشهدي «كان فاضلاً محدثاً صدوقاً» وكذلك وثقه الشيخ الطوسي والشيخ حسن بن نما بذات العبارة التي عبر بها الشهيد إذ قال عنه: «الشيخ الإمام السعيد عبد الله محمد بن جعفر المشهدي رحمه الله» (الحرّ العاملي، محمد بن الحسن: أمل الأمل في علماء جبل عامل، ج ٢، ص ٢٥٣، وص ٢٥٢).

(٢) محمد بن علي بن يعقوب بن اسحاق بن أبي قرة، أبو الفرج، القناني، الكاتب، ثقة. وكذلك قال العلامة في الخلاصة. (رجال النجاشي، ص ٣٩٨).

(٣) روى عنه الشيخ المفيد والحسين بن عبيد الله وأحمد بن عبدون. ووالده من الثقات، إذ قال فيه الشيخ النجاشي: «الحسين بن علي بن سفيان بن خالد بن سفيان أو عبد الله البزوفري، شيخ ثقة، جليل، من أصحابنا، له كتب» والشيخ المفيد مكثّر من الرواية =

والبزوفري الذي يروي الدعاء هو أحد وجوه الحجية فيه، فهو يروي عن الشيخ حسين بن روح النوبختي السفير الثالث للإمام المهدي عليه السلام مباشرة وأحياناً بالواسطة، يعني بطبيعة الحال هو يروي التوقيعات الشريفة الصادرة من الناحية المقدسة، كما يروي السفراء المحمودين بالواسطة، وكل علماء الإمامية يتعاملون مع ما يصدر من السفراء المحمودين معاملة توقيع صادر من الناحية المقدسة، وهذا التعامل هو نفسه مع دعاء الندبة الذي يرويه البزوفري، أي يتعاملون معه معاملة التوقيع الصادر من الناحية المقدسة وهذا هو ديدن علماء الإمامية.

بقي أمر، وهو أن المجلسي رحمته الله ^(١) يسند دعاء الندبة إلى الإمام الصادق عليه السلام مع أن أغلب الفقهاء يسندونه إلى الناحية المقدسة، ومنشأ هذا الاسناد هو رواية عن سدير الصيرفي.

وأيضاً رواه السيد ابن طاووس في مصباح الزائر، وكذلك رواه في الأقبال، وهذا المصدر مهم جداً، والسيد الخوئي تبعاً لمعاصره «آغا بزرك الطهراني» أكد أن السيد ابن طاووس ألمَّ بكمّ كبير من تراث الحديث

عنه وهو شيخه وأستاذه. (النجاشي، أبو العباس أحمد بن علي: أسماء مصنفى الشيعة (رجال النجاشي)، ص ٦٩، قم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤١٦هـ، ط ٥).

(١) هكذا ورد في كتاب (زاد المعاد) للعلامة المجلسي قدس سره: «وأما دعاء الندبة المشتمل على العقائد الحقّة والتأسّف على غيبة القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف، فقد نقل بسند معتبر عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ويستحبّ أن يقرأ دعاء الندبة هذا في الأعياد الأربعة، أي: الجمعة، وعيد الفطر، وعيد الأضحى، وعيد الغدير» (العلامة المجلسي، محمد باقر: زاد المعاد، ص ٤٨٨، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ٢٠٠٢م، ط ١).

وتراث الرجال وكتب الإمامية إماماً كبيراً يفوق معاصريه فضلاً عمَّن جاء من بعده.

الوجه الرابع:

لا شك أن القرآن الكريم كل ما فيه مقدس وعظيم وهو دستور خالد، وكما بين أهل البيت عليهم السلام أن نظم المعلومات والمعادلات العلمية المودعة فيه ليست على درجة واحدة من الأهمية، كما صرح بذلك القرآن الكريم في سورة آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(١)، وكذلك في سورة المائدة: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾^(٢).

فعظمة المحكم لا من حيث الدلالة، وإنما من المعلومة والمعادلة العلمية الموجودة في الآية، فهي معلومة ومعادلة مهيمنة، وهذا النظام موجود في كل العلوم أيضاً، فهناك بعض المعادلات الفوقية المهيمنة والتي تنفرع منها بقية أبواب العلم، وهيمنة القرآن الكريم على بقية الكتب هو من هذا الباب، فعلموه تحيط بما موجود في التوراة والإنجيل وبقية الكتب السماوية من حيث العلوّ والسعة والإحاطة.

(١) سورة آل عمران، الآية ٧.

(٢) سورة المائدة، الآية ٤٨.

وهذا الأمر بعينه يجري في تراث أهل البيت عليهم السلام حيث فيه المحكم والمهيمن والأهم والمهم، ومن هذا التراث المهيمن هو دعاء الندبة وتبيان ذلك يتم بعدة تنبيهات:

تنبيهات

أولاً: دعاء الندبة كمضمون متسق مع منظومة الدين بشكل بنيوي متناسق، حاله في ذلك حال بقية الأدعية والزيارات المشهورة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام.

على ذلك تسالم أعلام الإمامية، ولذلك تسمية الدعاء أو الزيارة بأسم معين لا يوجب أو يوحي إلى الذهن بأن هذا الدعاء أو تلك الزيارة مخصوصة فقط بهذا العنوان، بل إن كل دعاء أو زيارة فيها من الوهج النوري والعناوين الشيء الكثير.

على سبيل المثال دعاء الندبة هو في حقيقته كما ذكر السيد بن طاووس وغيره من أعلام الإمامية أنه زيارة لصاحب العصر والزمان عليه السلام، بالإضافة إلى ذلك فيه ماهيات أخرى مثل الشوق والتودد لأهل البيت عليهم السلام والتواصل معهم، وأيضاً فيه التعلم والمعرفة، بالإضافة إلى أمور أخرى موجودة، وهذا أمر يجب الالتفات إليه، بل إنه من الخطأ اعتبار الدعاء أو الزيارة ماهية واحدة، بل هي زيارة ودعاء وتشهد وتجديد للعهد وإلى ما شاء الله من العبادات الأخرى المنطوية تحت عنوان عبادي واحد.

ثانياً: أن العبادات في الشارع المقدس غير محصورة بأبواب معهودة كباب الصلاة أو الصوم أو الحج وغيرها، مع ان كل العبادات هي توقيفية

توقيتية لأن العبادات في حقيقة الأمر متعددة، ففي الصلاة على سبيل المثال التشهد بنفسه عبادة، والخضوع بنفسه عبادة أيضاً، والركوع والسجود والدعاء كل مفردة في نفسها عبادة، فالصلاة في حقيقتها مجموعة من العبادات جمعت في هذا العنوان.

وحتى الحالات النفسية للإنسان هي عبادة كالرضا بقضاء الله وقدره، والتوكل عليه وهكذا، فعناوين العبادة أكبر وأكثر من أن تحصى.

ثالثاً: هناك عبادات قلبية وأخرى بدنية، يُعبّر عن الأولى بفقهِ القلوب أو الفقه الأوسط، وعن الثانية بفقهِ الأبدان أو الفقه الأصغر (فقه الفروع)، أمّا العقائد فيُعبّر عنها بالفقه الأكبر.

وهذا التقسيم يجب الالتفات إليه ووضع في الحسبان، فكما للصوم تروك وواجبات في الاكل والشرب وما شابهه، هناك أيضاً تروك وواجبات قلبية كما ورد عن أهل بيت العصمة والطهارة، وإلى هذا أشار الإمام الصادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله: «الصوم جنة، فإذا صمت فانو بصومك كف النفس عن الشهوات، وقطع الهمة عن خطرات الشياطين، وانزل نفسك منزلة المرضى، ولا تشتهي طعاماً ولا شراباً، وتوقع في كل لحظة شفاءك من مرض الذنوب، وطهر باطنك من كل كدر وغفلة وظلمة يقطعك عن معنى الإخلاص لوجه الله»^(١).

والأمر كذلك في الطواف فالأبدان تطوف حول الكعبة، أما كعبة القلوب فشيء آخر: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ

(١) مصباح الشريعة للإمام جعفر بن محمد الصادق، ب ٦٣، ص ١٣٥، مؤسسة الأعلمي،

الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿١﴾، والأفعدة لا تهوى الحجر!، بل تهوى ذرية إبراهيم المصطفاة «محمد وآله الطاهرين عليهم الصلاة والسلام»، فقد جاء عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنما أمر الناس أن يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها ثم يأتونا فيخبرونا بولايتهم ويعرضوا علينا نصرهم» (٢).

كذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ وَعَبِيَّتِي وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ (٣)، قبة القلوب هي ولاية النبي عليه السلام، وولاية أهل بيته عليهم السلام من بعده. هذا هو الأهم وإن كانت عبادة الأبدان هي المقدمة، وفيما بعد تاتي العبادة القلبية، ولكن يبقى التكامل الإنساني هو في العبادة القلبية، وقد ورد عن الإمام الجواد عليه السلام: «القصدي إلى الله بالقلوب أبلغ من إتباع الجوارح بالأعمال» (٤)

ويبقى البون شاسعاً بين فقه الأبدان وفقه القلوب، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ما من شيء إلا وله حدّ ينتهي إليه، إلا الذكر فليس له حدّ ينتهي إليه، فرض الله عزّ وجلّ الفرائض، فمن أذاهنّ فهو حدّهنّ، إلا الذكر فإنّ الله عزّ وجلّ لم يرض منه بالقليل، ولم يجعل له حدّاً ينتهي إليه» (٥)، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (٦).

(١) سورة إبراهيم، الآية ٣٧.

(٢) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٣٣٤، ح ١٥٥٣.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٤٣.

(٤) المجلسي، بحار الانوار، ج ٧٥، ص ٣٦٤.

(٥) الحويزي، تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٢٨٥، الحديث ١٤٧.

(٦) سورة الأحزاب، الآية ٤١.

وهنا يجب الالتفات إلى وظيفة القلب في دعاء الندبة وضرورة التوجه به إلى صاحب العصر والزمان عليه السلام بكل أبعاده، فهو أبلغ من الحركة إليه بالبدن، فالدعاء يثير فينا فريضة الشوق والحنين للإمام المهدي عليه السلام.

معنى الندبة

الندبة لغةً تأتي بثلاث معاني: مرة بمعنى النداء، وأخرى بمعنى الرثاء، وثالثة بمعنى الاستغاثة، وكل المعاني الثلاثة في الحقيقة من سنن المعصومين تجاه الإمام الثاني عشر عليه السلام، بل في الروايات إن الاستغاثة بصاحب العصر والزمان عليه السلام جرت في الأنبياء السابقين عليهم السلام.

تماماً كما الحزن والرثاء الذي جرى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على سيد الشهداء قبل ولادته، كذلك الاستغاثة بالإمام المهدي عليه السلام، وهذا ما تذكره روايات أهل البيت عليهم السلام.

الأركان الرئيسية في الدعاء

الإعجاز في دعاء الندبة والذي سنتطرق إليه في النصف الثاني من الدعاء، والنصف الأول سنشير إليه إشارات خفيفة.

النصف الثاني تقريباً يبدأ من: «أين بقية الله التي لا تخلو من العترة الهادية»، وهنا الدعاء يتكون من ثلاثة أركان، وهذه الخريطة في الدعاء مهمة جداً، لأنه ﷺ يكررها مرتين أو ثلاث مرات، كل ركن فيه مجموعة من الفقرات، وهكذا يعاود مرة أخرى بنفس الطريقة.

هذا الدعاء بنظم عظيم جداً، وهو عصارة علوم ومعارف منظومية جامعة ومذهلة لا يقوى عليها إلا المعصوم.

الركن الأول:

قائمة مجدولة لأهداف وغايات يجب إنجازها في المشروع المهدي بصيغة اوصاف للإمام المهدي ﷺ، لكن هي في الحقيقة تبين للمؤمنين في حال إنخراطهم بمشروع إمام زمانهم ﷺ قائمة مجدولة بالمشاريع

والأهداف التي يجب على الإمام ﷺ وعلى أنصاره القيام بها وتحققها من قبيل «يملأها قسطاً وعدلاً»، وهنا نذكرها ببيان إجمالي،

والأهي في تفاصيل الدعاء منظومة كاملة لكل أعمدة المشروع المهدي المذكورة في القرآن الكريم، وفي بيانات النبي صلى الله عليه وآله، وكذلك بيانات أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، وهذا من الفلسفة العظيمة لدعاء الندبة التي ربما لا يعيها جملة من الغافلين، هو شدّ المؤمن للمسؤولية اللازمة في عصر صاحب العصر والزمان، الآن وليس بعد فوات الأوان.

الركن الثاني:

بيان إرتباط هوية المشروع المهدي بهوية الدور النبوي والعلوي وبقية الأدوار التي سبقت من آباءه الطاهرين، لذلك يتردد هذا الخطاب في الدُّعاء: «يابن البدور الزاهرة، يابن العلوم الكاملة....».

لانه لا يمكن الوعي والتفقه بالمشروع المهدي بدون الوقوف والتأمل في الربط الماهوي بين مشروعه ومشروع آباءه الطاهرين عليهم الصلاة والسلام.

هذا الركن الثاني لم يُذكر هكذا ترفاً، وإنما هو قائمة مجدولة موجودة في دعاء الندبة، وهو بهذا التصميم فضيحة لمن يريد أن يدّعي المهديّة أو السفارة من هؤلاء المدّعين الذين جندتهم الدوائر الاستعمارية، بل هو ردّ حتى للغافلين الذين يدّعون أنه صلى الله عليه وآله يأتي بدين جديد! أي كأنه خالي من الهوية النبوية، والعياذ بالله.

الركن الثالث:

هو عبارة عن الوظائف وآلياتها بالنسبة للمؤمن مع ما تقدم من المشروع المهدي، «بنفسي أنت من مغيب لم يخلو منا...»، «هل من

جزوع فأساعد جزعه إذا خلا....»، «هل إليك يابن أحمد سبيل فتلقى.....»
يعني كيف يستطيع الإنسان تربية نفسه؟

بأن يدخل نفسه دورة تدريبية على المشروع المهدوي إذا أراد أن يكون موالياً صادقاً، هذه الدورة لها بنود، إذا حققها الإنسان في نفسه فانه سيدخل تلقائياً، بمعنى أن ما يمارسه يوماً يصبّ في إنجاز الظهور والمشروع المهدوي.

هذه هي الأركان الثلاثة للمنطق الوحياني في دعاء الندبة، وسنبيّن لاحقاً الربط بين النصف الأول والنصف الثاني الذي هو ربط منظومي وإعجازي مذهل، وزيادة على هذا الإعجاز أن سجع العبارات وقافيتها التي هي في الحقيقة من قبل صاحب العصر والزمان عليه السلام جملة منها صدرت من القرآن الكريم، وبعضها من النبي الأعظم عليه السلام، وبعضها من الأئمة المعصومين عليهم الصلاة والسلام.

أسرار، ومعارف، ومعاني متسلسلة ومتناسقة بصورة هرمية في الدعاء، في البدء والوسط ودرجات الوسط ونهايته بنسق معنوي ومراتب معنوية متضمنة للأسرار، هذا بالتأكيد يدل على عظمة النظم الذي هو دليل على قدرة المعصوم.

إن متن الدعاء هو برهان على أنه كلام المعصوم، وإلا فهو لم يأتي من الحدس أو الرجم بالغيب، بل هو أرقام ومعادلات لو نظرت إلى كلام النوابع من علماء الإمامية فإنهم لم يصلوا إلى هذه الدرجة في النظم من البدء حتى الخاتمة.

خلاصة التراث

نكتة ندعيها ونلمسها ببراھين واضحة، وهي أن دعاء الندبة خلاصة
خطب النبي صلى الله عليه وآله، والأئمة من بعده عليهم السلام.

فما هو سر هذه الخلاصة؟ ولماذا جعل دعاء الندبة غير زيارة آل
ياسين والزيارات الأخرى لصاحب الزمان عليه السلام؟

السر في ذلك أن هوية الإمام المهدي عليه السلام قد عُجنت فيه هويات
المعصومين عليهم الصلاة والسلام، بل عُجنت فيه هوية جميع الأنبياء
والرسل، وهذا أمر خطير ومهم، وهو في نفس الوقت عاصم من الانحراف،
وهو ميزان للأنتماء المهدوي الصحيح، وليس المزيف.

هذا هو أحد معاني «بقية الله في القرآن الكريم»، يعني الخلاصة
ومجمع لكل الهويات، ووارث آبائه الطاهرين وجميع الأنبياء والمرسلين،
وهذا يتصور باعتبار أن ما ظهر من سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله، ومن أصحاب
الكساء عليهم السلام ليس هو ما في كنه الحقائق من الخير والهداية، بسبب وجود
الظالمين الذين وقفوا في طريق هداية البشرية، ولذلك عندنا في الروايات
كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه في «الرجعة» سيبعث سيد الأنبياء
للبشارة والندارة الكبرى، يعني ما مر من بشارة وندارة هي صغرى، مرحلة
تمهيدية والمرحلة العظمى ستاتي في الرجعة.

وهذا يلخص ما قام به أئمة الضلال، وحرمانهم البشرية من وصول تلك الفيوضات والأمور التربوية الألهية العظيمة التي كانت ستظهر على يد «أصحاب الكساء» صلوات الله عليهم أجمعين، ستظهر هذه كلها على يد صاحب العصر والزمان عليه السلام، بهذا المعنى هو الخلاصة وهو لب اللباب.

يعني ما كان مقرراً أن يظهر على يدي أجداده سيظهره الله على يديه، لذلك هو عليه السلام ملحمة عظيمة.

فمن يدّعي أو يريد الارتباط بمشروع الإمام المهدي عليه السلام عليه الاستقامة وعدم الانحراف، لأن هوية ومشروع الإمام المهدي تتكسد فيه كل نظم وهويات المعصومين عليهم السلام.

وهذا هو سر المحور الثاني أو الركن الثاني في الدعاء «يا بن البُدُورِ المُنِيرَةِ، يا بن السُّرُجِ المُضِيئَةِ، يا بن الشُّهْبِ الثَّاقِبَةِ، يا بن الأنْجُمِ الزَّاهِرَةِ».

هذه العناوين ليست مدائح فقط، هذه معناها يا أيها المؤمنون.. يا أيها المجاهدون تريدون التعرف على المشروع المهدي؟ هذه هي هويات المعصومين في هذا المشروع الإلهي، إذا وعيتموها سيكون التوفيق من نصيبكم، وإلا فالفشل والإخفاق.

والدليل على ذلك من خارج الدعاء الشريف ومن داخله، فما هو من الخارج مر بنا أن من وجوه صحة سند دعاء الندبة، هو التحقيق في مصادر جمل وبنود الدعاء، والذي قامت به إحدى المؤسسات الحوزوية، ووجدت أن كل بند من جمل دعاء الندبة مروى بروايات كثيرة ومستفيضة مجموعها متواتر أما قرآنية أو روائية، وكل كلمة فيه ليست من تأسيس

دعاء الندبة، وانما هي من تأسيس بيانات وحيانية سابقة، نُسقت في هذه المنظومة الواحدة.

أما الدليل الثاني، والذي هو من داخل دعاء الندبة وهو التركيز على هويات المعصومين عليهم السلام، كبيان سِمَت المشروع النبوي بالدقة، وكذلك سمت المشروع العلوي والفاطمي والحسني والحسيني والأئمة من بعدهم عليهم السلام، لذلك في جدول القائمة الثانية أو الركن الثاني بنود تفصيلية لهويات مشاريع الأئمة عليهم السلام، منهج كل إمام معصوم مبيّن في دعاء الندبة، والشئ الأعظم أنه يبين التنسيق والأرتباط والموافقة بين سنن المعصومين ونهجهم، وأنه بين نهج الحسن والحسين عليهما السلام على سبيل المثال ليس هناك اختلاف على مستوى المنظومة، بل هناك ترابط واضح.

الفصل الثاني

المدرسة الأخلاقية الوحيانية

- النظم الأخلاقية وتعدد المدارس
- المدرسة الأخلاقية الوحيانية
- أدب التعامل مع الله
- الفوارق بين المدارس الأخلاقية
- الأخلاق النفسية لها جنر عقائدي
- الأخلاق طبقات ومراتب
- التعقيد والإبهام في المفاهيم الأخلاقية عند التطبيق

النظم الأخلاقية وتعدد المدارس

النظام الأخلاقي في المجتمعات له مدارس متعددة بين الفلسفة المادية والفلسفة الإلحادية وكذلك الدينية، مشارب كثيرة ومختلفة في هذا الجانب، والاختلاف بينها بنيوي، فبعض المدارس لا تؤمن بالفضيلة والرذيلة الأخلاقية، يعني ليس هناك قبح أو حسن أخلاقي، بل يعتبرون الفضيلة في القوة حتى لو كانت قوة الغدر والمكر، فهم يؤمنون أن كل قوة تساوي الفضيلة وكل ضعف يساوي الرذيلة.

صحيح أن القوة فضيلة والضعف رذيلة، ولكن الاختلاف هو في تفسير نوع القوة والضعف.

وأخرى تعتبر أن نذر الفضيلة والتحذير من مساوئ الرذيلة هو عبارة عن خداع وتضليل لاستغلال الآخرين، وهذا لأنهم لا يؤمنوا في الأصل بالفضائل الأخلاقية.

فرق النظام الأخلاقي في الإسلام - عن المدارس الأخرى كما بينه الثقلين - أنه لا يقتصر فقط على الحياة الدنيا، منهج الفكر والمعرفة وميزانه يختلف بين المنطق الوحياني والمنطق اليوناني وبقية المدارس البشرية المختلفة.

المدرسة الأخلاقية الوحيانية

الوحي يربط التقوى بالفكر وضرورة الأيمان بالغيب، فهو منظومة متكاملة وهنا يختلف عن المدارس المنطقية البشرية، يعني هو معالجة لمجموع قوى الإنسان، وهكذا نظامه الأخلاقي المرتبط أساساً بالعتيدة، ولذلك نرى الكثير من الروايات الواردة عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام ذكرت في كتب «الإيمان والكفر» في «الكافي» على سبيل المثال لهذه النكتة بالذات، وهو ارتباط المنظومة الأخلاقية بالعتيدة والرؤية الكونية الشاملة للمعتقد.

فقد ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «إِنَّمَا الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ، وَمَا خَلَاهُنَّ فَهُوَ فَضْلٌ».

وحسب تفسير العلماء أن العتيدة هي الآية المحكمة، والسنة القائمة إشارة إلى الجانب الأخلاقي، وهذه المرحلة تبدأ مباشرة بعد البناء العقائدي للإنسان، وهذا البيان في الحقيقة هو بيان إعجازي بما أن الحسن والقبح ذاتيين، فحسب الرسم الوحياني إذا كانت العتيدة صحيحة فان المنظومة الأخلاقية ستكون صحيحة أيضاً، وبفساد العتيدة ستفسد المنظومة الأخلاقية للمجتمع.

فإذا كانت الرؤية الكونية صحيحة فما يبنى عليها من رسم أخلاقي هو حسن وجميل، وإلا سيكون ما يبنى هو قبح ورذيلة.

هذا الميزان بين الفضائل والرذائل الأخلاقية بيّنه الوحي، وما توصلت إليه العلوم الإنسانية والاجتماعية في الوقت الراهن هو أن النظام الأخلاقي يتبع الرؤية الكونية الشاملة للإنسان، وبالتالي فإن النمط الأخلاقي هو من تداعيات العقيدة، فالعقيدة هي الأساس للنظام الأخلاقي، والنظم الأخلاقية هي الأساس لقوانين المعيشة.

هذا الترابط كما سبق بيّنه الوحي، وأيضاً توصلت إليه النتائج البشرية:

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا السُّوْءَىٰ ۚ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾^(١)، يعني العمل السيء يقود إلى عقيدة باطلة، والعكس صحيح.

(١) سورة الروم، الآية ١٠.

أدب التعامل مع الله

العقائد الحقة هي من شؤون العقل والفكر ومراتب القلب العالية، وأعظم درجات الأخلاق هي في كيفية التعامل الروحي والقلبي والفكري مع الله سبحانه وتعالى.

المنظومة الأخلاقية تبدأ في كيفية التعامل مع الله سبحانه، وأدب الحوار، ونمط الخواطر معه جلّت قدرته، حسب بيانات أهل البيت عليهم السلام في آلية التعامل بين العبد وربّه.

في دعاء النصف من شعبان هذه العبارة: «يا من لا تخفى عليه خواطر الأوهام وتصرف الخطرات..» تشير إلى الدقة الكبيرة في هذه المدرسة الأخلاقية في أدب التعامل مع الله وشدّة المراقبة في التواصل، حتى الخاطرة في وهم الإنسان لها أثر في هذه المنظومة الأخلاقية العظيمة، فكيف بمن شرح بالكفر صدرًا!.

الضرورة تفرض أن الخطوة الأولى يجب أن تبدأ من الإنسان، مهما كانت تلك الحركة ضئيلة، حتى لو كانت بمقدار الخاطرة، سواء كانت خاطرة سوء أو خاطرة نور، فإن لها أثراً واضحاً فيما بعد: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ۗ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي

ضَلَلِ مُبِينٍ ﴿١﴾ ، ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٢﴾ .

هذه الآيات توضح لنا خارطة للقلوب، بين من شرح الله صدره للإسلام، ومن جعل صدره ضيقاً حرجاً، وكل هذه الأصناف هي في الحقيقة تبدء من الإنسان نفسه، وهي إرادة اختيارية منه، أما بخاطر نور أو خاطر سوء، وليس هناك جبر في هذه المدرسة الأخلاقية العظيمة: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَانْتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾ ﴿٣﴾ .

إقبال القلب وإدباره بيد الإنسان ولو بلحاظ المقدمات، فهو مختار بين الحب والكره، ولذلك من أعظم أبواب الاخلاق هو خلق التعامل مع الله سبحانه وتعالى، وهذا ما غفلت عنه جميع المدارس خلا مدرسة الوحي، والتي أرسى بشكل عجيب نظام التعامل مع الله جل جلاله، وكان الرائد في هذا المضمار هو النبي الأكرم ﷺ وآل بيته الكرام ﷺ، فهم سبقوا جميع الأنبياء والصالحين في أدب التعامل مع الله سبحانه، وقد أسسوا في ذلك مئات القواعد الأخلاقية، وأكثر هذه القواعد أفتى بها علماء الشيعة في باب «جهاد النفس» كفرائض.

هذا الأدب مع الله سبحانه هو الذي جعلهم عليهم الصلاة والسلام الأقرب إلى الله، والأعلى شأناً من أولي العزم وبقية الأنبياء والصالحين.

(١) سورة الزمر، الآية ٢٢.

(٢) سورة الانعام، الآية ١٢٥.

(٣) سورة هود، الآية ٢٨.

الفوارق بين المدارس الأخلاقية.

الأول: الأخلاق النفسانية لها جذر عقائدي:

الحنين واشتعال القلب بالحب والشوق هو أحد فرائض الأيمان، وفعل من أفعال القلب، وركن من أركان النظام الأخلاقي في مدرسة الوحي.

وقد مر أن الأساس في النظام الأخلاقي الإسلامي أولاً وبالذات في تعامل العبد مع الله سبحانه وتعالى، والاختلاف هنا عن بقية المدارس الأخلاقية أن أساس كل خلق نفساني مهما نزل له أساس وجذر عقائدي بحسبه.

ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «شَابُّ سَخِيٍّ مُرَهَّقٌ فِي الدُّنُوبِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ شَيْخِ عَابِدٍ بَخِيلٍ»^(١)، ولأن السخاء ينطوي على توحيد وإيمان بعموم رزق الله سبحانه وقدرته، بينما البخل ينطوي على عبادة صورية بدنية، لكنه في قلبه وفكره ينطوي على الكفر بعطايا الله وقدرته، فمن كان يعصي الله ببدنه فهي مبعوضة عند الله، لكن المعاصي القلبية أشد بغضاً عنده جلت قدرته. وهذا لا يعني استخفافاً بمعاصي البدن، ولكن كما ورد عن الإمام الجواد عليه السلام: «القصْدُ إِلَى اللَّهِ

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣٠٧، ح ٣٤.

بالقلوب أبلغ من اتعاب الجوارح بالأعمال»^(١)، فحركات القلوب أبلغ من حركات الأعمال إن كانت حسنة أو سيئة.

وهذا يعني أن العناية بالقلوب في مدرسة الوحي الأخلاقية أولى بالرعاية من عالم الأبدان، مع انه لا يعني التفريط بالعبادة البدنية.

الثاني: الأخلاق طبقات ومراتب؛

وهناك فرق آخر بين مدرسة الوحي والمدارس الأخلاقية الأخرى، وهي أن الأخلاق طبقات ومراتب، ومدار حسن الطبقات الظاهرية في اخلاق الإنسان ليست في ذاتها، بل قيمتها بما يبطن ورائها، يعني قيمتها وحسنها هو في قيمة الطبقات الباطنية.

فلا يكفي أن يكون ظاهر الإنسان مسالماً وأنيقاً، وهو في داخله يريد أن يشيّد نظاماً للظلم والجور والتعسف، فيكون جمال هذه الأخلاق الظاهرية كمن يلبس جلد شاة، وهو يحمل في صدره قلب ذئب مفترس.

شبيهه ما نراه من الغرب الآن باسم حقوق الإنسان وكرامته ورعاية اللاجئين، ولكن الحقيقة أنه يهدف من ورائها إلى تهديم دول والاستيلاء على ثرواتها.

وهنا تكمن عظمة أخلاق الإسلام في هذا الجانب، فقد ورد عن سيد الأنبياء ﷺ قوله: «إنما الأعمال بالنيات»، بل إنه نفس النية ورائها نية أخرى أخفى، وهكذا: ﴿وَإِنْ نَجَّهْتَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾^(٢)، فقيمة

(١) المجلسي، بحار الانوار، ج ٧٥، ص ٣٦٤.

(٢) سورة طه، الآية ٧.

كل طبقة خلقية سواء من المحاسن أو القبائح ليست النهاية، بل العمدة بما ورائها.

الثالث: الإبهام في المفاهيم الأخلاقية عند التطبيق:

محور آخر في النظام الأخلاقي يستفاد من بيانات الوحي، وهو أن المفاهيم الأخلاقية أعقد وأشدّ إبهاماً من المفاهيم في فروع الأعمال - أعمال البدن - .

بمعنى ان ماهية ومعاني الأفعال القلبية أكثر إبهاماً من أفعال البدن، لأنها باطنية خفية، بينما أفعال البدن ظاهرة وجلية.

لذا في دعاء «النصف من شعبان» كما ذكرنا سابقاً «يا من لا تخفى عليه خواطر الأوهام وتصرف الخطرات..» لأنها تتصرف من دون أن يلتفت إليها أحد، ولذا هي من أكبر العقبات الكؤودة في النظام الأخلاقي لخبائثها وإبهامها ولتشابه المعاني تنظيرياً فيها، وهذا الأمتحان الإلهي المستمر يسقط فيه الكثير يوماً بعد يوم!

ويمكن للإنسان أن يختبر نفسه في ممارسة يومية، وهو التوجه من أول الصلاة إلى آخرها!، وهذا أمر لا يقدر عليه إلا من سيطر وهيمن على أفعال القلب وخطراته، وهم قلة.

والضعف البشري في هذا الجانب أحد أسبابه هو إبهام المعاني تنظيرياً، فترى الخلط عند أكثر الناس تطبيقاً بين سوء الظن والحذر، على سبيل المثال، بين التواضع والذل، بين الشجاعة والتهور، بين الجبن والتروي، وهكذا، وهذه مشكلة كبيرة يعاني منها الأكثر في النظام التطبيقي

للأخلاق، وأسبابها عدم البصيرة في المفاهيم لولا تسديد الوحي الألهي، بالإضافة إلى أن هذه المشكلة تمنع تكامل الإنسان بالصورة المثلى، ولذا من يلتزم بالوصية ينجو، لقوله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي..»^(١).

النظام الأخلاقي في الإسلام مترامي الأطراف، ويختلف هيكلياً عن المدارس الأخرى، ففيه الحب والحنين فعل من أفعال القلوب فريضة للارتباط بالله سبحانه وتعالى وبالنبي وآله عليهم الصلاة والسلام، وهو حلقة مهمة في هذه المنظومة الكبيرة.

هذا الانشداد والحنين لأهل البيت عليهم السلام، والأين لما جرى لهم وعليهم هو فريضة مرتبطة بفقہ القلوب، والذي هو ركن مهم في النظام الأخلاقي، وهناك الكثير من محاور النظام الأخلاقي يمكن أن تُقتبس من بيانات الوحي.

في دعاء النذبة سُنن يأمر بها الإمام سلام الله عليه: «فَعَلَى الْأَطَائِبِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ وَعَلَيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَآلِهِمَا فَلْيَبْكِ الْبَاكُونَ، وَإِيَاهُمْ فَلْيَنْدُبِ النَّادِبُونَ، وَلْيَمْلِئِهِمُ فُلْتَدْرِفِ الدَّمُوعُ، وَلْيَصْرُخِ الصَّارِحُونَ، وَيَضْجِ الضَّاجُونَ، وَيَعِجَّ الْعَاجُونَ»^(٢).

نفس هذه المراتب في تلبية الإحرام موجودة، وهي مستحبة في نفسها، وقد ورد أن جبرائيل عليه السلام أخبر النبي صلى الله عليه وآله في الحج: «مُر قومك بالضحج والعج» وهذا بالطبع له تأثير روحي كبير في أن يتحول الدعاء عند

(١) الألباني، صحيح الجامع، رقم الحديث ٢٧٤٨.

(٢) مقطع من دعاء النذبة.

الجميع إلى هذه الدرجة من الضجيج، وإلاّ لم يخبر به جبرائيل عليه السلام، ولم يأمرنا الإمام عليه السلام بذلك إلاّ لكي تُقرع به القلوب القاسية، هذه سنة إلهية عظيمة، وقد ورد عن الأئمة عليهم السلام أنهم عاشوا تلك اللحظات في ندبتهم للإمام المهدي عليه السلام.

الفصل الثالث

خطوط الدعاء العامة وأثرها المعرفي

- الاصطفاء وموقعية الأنبياء
- إكمال الحجة وسد الذرائع
- الأعجاز في الخاتمة
- الندبة من سنن المعصومين

الاصطفاء وموقعية الأنبياء

هناك نقطة مشتركة في النصف الأول من الدعاء يُبيّن فيها فلسفة بعثة الرسل والأنبياء ﷺ، ثم يُبيّن حقيقة الاصطفاء والذي خاض فيه العلماء من المتكلمين من الفريقين وكذلك الفلاسفة، ولكن بقيت فيه من العقد الشيعي الكثير، هل الاصطفاء جبر أو تفويض كسبي؟ أم هو منحة مجانية (هبة) خصّ الله بها بعض عباده؟

وفاتهم أنهم لو تدبروا المقدمة من هذا الدعاء لعلموا بعضاً من حقيقته: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا جَرَى بِهِ قَضَاؤُكَ فِي أَوْلِيَائِكَ الَّذِينَ اسْتَخْلَصْتَهُمْ لِنَفْسِكَ وَدِينِكَ، إِذْ اخْتَرْتَ لَهُمْ جَزِيلَ مَا عِنْدَكَ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ الَّذِي لَا زَوَالَ لَهُ وَلَا اضْمِحْلَالَ، بَعْدَ أَنْ شَرَطْتَ عَلَيْهِمُ الزُّهْدَ فِي دَرَجَاتِ هَذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ وَزُخْرُفِهَا وَزِبْرِجِهَا، فَشَرَطُوا لَكَ ذَلِكَ وَعَلِمْتَ مِنْهُمْ الْوَفَاءَ بِهِ فَقَبِلْتَهُمْ وَقَرَّبْتَهُمْ، وَقَدَّمْتَ لَهُمُ الذِّكْرَ الْعَلِيِّ وَالشَّاءَ الْجَلِيَّ...»^(١).

فالاصطفاء ليس جبراً، وإنما هو جدارة في مواطن عديدة، والصفة الاصطفائية هي أعلى مراتب الاختيار والقدرة والقوة، بينما الصفة الاكتسابية هي متوسطة في الاختيار.

(١) مقطع من دعاء الندبة.

أيضاً هناك نقطة مشتركة في الدعاء، وهي إشارة وشرح لموقعية الأنبياء من أولي العزم، وبعدها يركّز على موقعية رسول الله صلى الله عليه وآله وهيمنة مقامه على الآخرين، ثم ينتقل إلى أمير المؤمنين عليه السلام ونهجه، ومن ثم بقية الحجج صلوات الله عليهم أجمعين، هذا النصف الأول هو سر وفلسفة النصف الثاني الذي هو على ثلاثة محاور وأحد تلك المحاور هو دمج لهوية المعصومين عليهم السلام بهوية الإمام المهدي عليه السلام، إذن لا بد من استعراض لهويات الأنبياء في النصف الأول لكي يلتفت الإنسان إلى صعوبة فهم الهوية المهدوية، فلا تكفيك المعرفة حتى تعرف هوية جميع الأنبياء والأوصياء، لأنه جمع الجمع عليهم السلام.

فالمشروع المهدوي مشروع جامع لكل مشاريع أئمة أهل البيت عليهم السلام.

إكمال الحجة وسدّ الذرائع

«النصف الأول» من دعاء الندبة يشرح فلسفة الاصطفاء، وأن هناك جهة مشتركة في كل طبقات الاصطفاء، من النبوة والإمامة وغيرها من المراتب هي إكمال الحجة وسدّ طريق على من تذرّع بعدم الأنداز: «وَكُلُّ شَرَعْتَ لَهُ شَرِيعَةً، وَنَهَجْتَ لَهُ مِنْهَا جَاءً، وَتَخَيَّرْتَ لَهُ أَوْصِيَاءَ، مُسْتَحْفِظًا بَعْدَ مُسْتَحْفِظٍ مِنْ مُدَّةٍ إِلَى مُدَّةٍ، إِقَامَةً لِدِينِكَ، وَحُجَّةً عَلَى عِبَادِكَ، وَلئَلَّا يَزُولَ الْحَقُّ عَنْ مَقَرِّهِ وَيَغْلِبَ الْبَاطِلُ عَلَى أَهْلِهِ، وَلَا يَقُولَ أَحَدٌ لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا مُنْذِرًا وَأَقَمْتَ لَنَا عِلْمًا هَادِيًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَحْزَى»^(١)، هذه هي الفلسفة العامة، فالأمم تتبع سبيل الله وصراطه كي تفد إلى لقاء الله بطريق نيرٍ واضح.

أما «النصف الثاني» من الدعاء فإنه يبين مقامات سيد الأنبياء ﷺ، ومقامات أمير المؤمنين وفاطمة الزهراء والأئمة المعصومين عليهم السلام أجمعين.

وهذا النصف فيه أركان ثلاثة: الأول فيهن يُبين غايات مشروع الإمام المهدي عليه السلام، ويجب أن لا يتوهم أحد أنها خاصة بزمن الظهور، بل هي

(١) مقطع من دعاء الندبة.

مسؤوليات الإمام المهدي عليه السلام منذ بدء الغيبة الصغرى حتى ظهوره المقدّس وما بعده تقع على عاتقه (عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ) وعليه التدرج في إنجازها، ويجب أن لا يظن المؤمن أن هذه الغايات والمشاريع هي ما بعد الظهور فقط، وإلا سيكون هذا الأمر ترف فكري، وهذه جدلية خطيرة في الفكر الشيعي، مَنْ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنِ انْجَاهُمْ بِمُوسَى عليه السلام: ﴿وَإِذْ أُنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (١) مثال ضربه الله سبحانه وتعالى للمهدي عليه السلام حسب روايات أهل البيت عليهم السلام، ما جرى على بني إسرائيل في إنتظار منقذهم يجري على هذه الأمة المنتظرة لمنقذ البشرية صاحب العصر والزمان عليه السلام ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢) والعبارة في قصص الماضين من الأنبياء قاعدة أصيلة في القرآن الكريم لا تتوقف عند شخص النبي موسى أو شخص النبي يوسف عليهما السلام، بل الغرض الأصلي هو «محمد وآل محمد عليهم الصلاة والسلام»، ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (٣).

أنه نور ساطع، وبحضور القلب يتضح المطلوب، وأن المقصود فيما ذكر لا يعني أن نتوقف عند هؤلاء الأنبياء عليهم السلام، نعم نؤمن بهم ونصدّق

(١) سورة الأعراف، الآية ١٤١.

(٢) سورة يوسف، الآية ١١١.

(٣) سورة النساء، الآية ٥٤.

برسل الله وكتبه، ولكن المقصود شيء أعظم، فالمراد الجدي دائماً أعظم من المراد الاستعمالي.

الإعجاز في الخاتمة

يجب التذكير بنكتة مهمة، وهي أن الأئمة المتأخرين صلوات الله عليهم في رواية أدعيتهم والزيارات والمعارف المنقولة عنهم لها خاصية تختلف عن خاصية آبائهم، فهي تكون دائماً خلاصة وزيادة لما يروى عن المعصومين الأوائل من أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، و متن دعاء الندبة أحد براهين الإعجاز في هذا الباب.

والسبب الرئيس في اختلاف الخواص هو دور كل إمام، وما يتطلبه التدرج في التربية والتعليم شبيه التعليم المدرسي، فما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله يختلف عما روي عن أصحاب الكساء لاختلاف الدور والمرحلة، ودائماً البدايات هي صاحبة الهيمنة كون التأسيس فيها، ولا تحتاج إلى تفاصيل كثيرة كالتي يتطلبها عصر الإمام الصادق عليه السلام مثلاً والذي ضخ الكثير من التفاصيل المتعلقة بفروع الأحكام، حتى سُمِّي الإمامية الاثني عشرية بالمشهد الجعفري.

الندبة من سنن المعصومين

الندبة للإمام المهدي عليه السلام سنة من سنن المعصومين عليهم السلام، وقد روي في ذلك الكثير.

منها ما رواه الاصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «أتيت أمير المؤمنين فوجدته متفكرا ينكت في الأرض، فقلت: يا أمير المؤمنين ما لي أراك متفكرا تنكت في الأرض، أرغبة منك فيها؟ قال: لا والله ما رغبت فيها ولا في الدنيا يوما قط، ولكني فكّرت في مولود يكون من ظهر الحادي عشر من ولدي، هو المهدي الذي يملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً، يكون له حيرة وغيبة يضلّ فيها أقوام ويهتدي فيها آخرون، فقلت: إن هذا لكائن؟، قال: نعم كما أنه مخلوق، فإني لك بهذا الأمر يا أصبغ، أولئك خيار هذه الأمة مع خيار أبرار هذه العترة، قلت: وما يكون بعد ذلك؟ قال: الله يفعل ما يشاء، فإن لله إرادات وبداءات وغايات ونهايات»^(١).

وكذلك ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام، عن سدير الصيرفي، قال: دخلت أنا والمفضل بن عمر، وأبو بصير، وأبان بن تغلب على

(١) الشيخ المفيد، الاختصاص، ص ٢٠٩.

مولانا أبي عبد الله الصادق عليه السلام فرأيناه جالسا على التراب وعليه مسح خيري مطوق بلا جيب، مقصّر الكمين، وهو يبكي بكاء الواله الشكلى، ذات الكبد الحرى، قد نال الحزن من وجنتيه، وشاع التغيير في عارضيه، وأبلى الدموع محجريه وهو يقول: «سيدي غيبتك نفت رقادى، وضيقّت عليّ مهادى، وابتزّت منى راحة فؤادى، سيدي غيبتك أوصلت مصابى بفجائع الأبد، وفقد الواحد بعد الواحد يفنى الجمع والعدد، فما أحسّ بدمعة ترقى من عيني وأنين يُفتر من صدري عن دوارج الرزايا وسوالف البلايا إلا مثل بعيني عن غوابر أعظمها وأفظعها، وبواقى أشدها وأنكرها ونوائب مخلوطة بغضبك، ونوازل معجونة بسخطك .

قال سدير: فاستطارت عقولنا ولها، وتصدعت قلوبنا جزعا من ذلك الخطب الهائل، والحادث الغائل، وظننا أنه سمت لمكروهة قارعة، أو حلت به من الدهر بائقة، فقلنا: لا أبكى الله يا ابن خير الورى عينيك، من أية حادثة تستنزف دمعتك وتستمطر عبرتك ؟ وأية حالة حتمت عليك هذا المأتم ؟.

قال: فزفر الصادق عليه السلام زفرة انتفخ منها جوفه، واشتد عنها خوفه، وقال: ويلكم نظرت في كتاب الجفر صبيحة هذا اليوم، وهو الكتاب المشتمل على علم المنيا والبلايا والرزايا وعلم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، الذي خصّ الله به محمدا والأئمة من بعده عليهم السلام، وتأمّلت منه مولد قائمنا وغيبته وإبطاءه وطول عمره، وبلوى المؤمنين في ذلك الزمان، وتولد الشكوك في قلوبهم من طول غيبته، وارتداد أكثرهم عن دينهم وخلعهم ربة الاسلام من أعناقهم التي قال الله تقّده ذكره: ﴿ وَكُلَّ

إِنْسَانَ أَلْزَمْتَهُ طَلَبَهُ فِي عُنُقِهِ ﴿١﴾ - يعني الولاية - فأخذتني الرقة، واستولت علي الأحزان....» (٢).

أيضاً ما رواه دعبل الخزاعي عن الإمام الرضا عليه السلام، قال: أنشدت مولاي الرضا علي بن موسى عليه السلام قصيدتي التي أولها:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات
فلما انتهيت إلى قولي:

خروج إمام لا محالة خارج يقوم على اسم الله والبركات
يميز فينا كل حق وباطل ويجزي على النعماء والنقمات

بكى الرضا عليه السلام بكاءً شديداً، ثم رفع رأسه إليّ فقال لي: «يا خزاعي، نطق روح القدس على لسانك بهذين البيتين...» (٣).

كذلك بكاء الإمام الجواد عليه السلام على الإمام المهدي عليه السلام، روى الصقر بن أبي دلف قال: سمعت أبا جعفر محمد بن علي الرضا عليه السلام، يقول: «إن الإمام بعدي ابني علي، أمره أمري، وقوله قولي، وطاعته طاعتي، والإمام بعده ابنه الحسن، أمره أمر أبيه، وقوله قول أبيه، وطاعته طاعة أبيه، ثم سكت، فقلت له: يا ابن رسول الله فمن الإمام بعد الحسن؟ فبكى بكاءً شديداً ثم قال: إن من بعد الحسن ابنه القائم بالحق المنتظر، فقلت له: يا ابن رسول الله لم سمّي القائم؟ قال: لأنه يقوم بعد موت ذكره، وارتداد أكثر القائلين بإمامته، فقلت له: ولم سمّي المنتظر؟ قال: لأن له

(١) سورة الإسراء، الآية ١٣.

(٢) الطوسي، الغيبة، ص ١٧٣.

(٣) الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج ١، ص ٢٩٧، ح ٣٥.

غيبة تكثر أيامها ويطول أمدها، فينتظر خروجه المخلصون وينكره المرتابون ويستهزئ بذكره الجاحدون ويكذب فيها الوقتون، ويهلك فيها المستعجلون وينجو فيها المسلمون»^(١).

أيضاً بكاء الإمام الحسن العسكري عليه السلام، قال أبو سهل في رواية طويلة: «... فَلَمَّا مَثَلَ الصَّبِيُّ - أي الإمام المهدي عليه السلام - بَيْنَ يَدَيْهِ سَلَّمَ وَإِذَا هُوَ دُرِّيُّ اللَّوْنِ، وَفِي شَعْرِ رَأْسِهِ قَطَطٌ، مُفَلَّجُ الْأَسْنَانِ، فَلَمَّا رَأَهُ الْحَسَنُ بَكَى...»^(٢).

عندما يقضي معصوم ليلة كاملة أو لياالي وهو يبكي على صاحب الزمان عليه السلام ويناديه بهذا القول: «سيدي غيبتك نفت رقادي»، فأى جفاء هذا الذي نعيشه نحن مع إمام زماننا أرواحنا لتراب مقدمه الفداء، في قبال هذا الذي يصدر من آباءه الطاهرين في التعامل معه!.

(١) الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج ٢، ص ٣٧٨.

(٢) الطوسي، الغيبة، ص ٢٧٢؛ والمجلسي، بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ١٦.

الفصل الرابع

الدعاء ومنهج التعامل

مع الإمام المهدي عليه السلام

- دوام الاستشعار بالمهدي عليه السلام
- المسؤولية مطلقة
- سيد الشهداء حافظ للمشروع المهدي
- مَنْ يَنْصُرُ مَنْ؟
- الأمل وأثره في الصبر والثبات
- وجود الإمام الدائم في الساحة

دوام الاستشعار بالمهدي عجل الله فرجه

الإمام الصادق عليه السلام - في الرواية - يخاطب الإمام المهدي عليه السلام بـ (سيدي) ويتحدث معه كأنه يقف الآن أمامه.

بهذه الطريقة، وهذا النهج يريد الأئمة سلام الله عليهم أن ترتبط بصاحب الزمان عليه السلام، أن نشعر به ونستشعر وجوده المقدس، فهو لا زال يستنصرنا ويجدد لنا باستمرار نداء جده الحسين عليه السلام: «هل من ناصر ينصرنا».

والمسؤولية الآن كلها ملقاة على المؤمنين، وبكاء أجداده عليه لثقل المسؤولية وكثرة الخاذل له مع قلة الناصر!

وإبليس يحاول باستمرار أن يمنع المؤمن عن مسؤوليته، ويحاول تجنيده بطرق مختلفة حتى لا يرتبط بمشروع الإمام المهدي الأساسي، ودور المؤمنين ركن مهم في المشروع المهدي (الركن الثالث) والذي أشار إليه دعاء الندبة.

وهو أيضاً ما يشير إليه الإمام الصادق عليه السلام في رواية سدير الصيرفي.

فعلى المؤمن استشعار دولة الإمام المهدي عليه السلام ووجوده المبارك بكل كيانه وجوارحه، وبما دأب عليه علمائنا الأبرار شكر الله سعيهم جيلاً

بعد جيل، من أجل تربية الأمة على الارتباط بالإمام عليه السلام من خلال دعاء الندبة وذكر الإمام عليه السلام على الدوام.

وهذه التربية هي بالأساس نهج الأئمة عليهم السلام مع هذه الأمة، واستمر عليها علماؤنا الأبرار قدس الله أرواحهم، وهذا الاستمرار هو لغرض ترويض النفس وتطويعها للمشروع المهدوي، والخلاص من برائن إبليس وكيده، بحيث يكون المؤمن قادراً باستمرار على الخلاص كلما وقع في شرك الغفلة.

ومن أعظم طرق الاستشعار التي ضربها الله سبحانه لنا مثلاً حسب بيانات أهل البيت عليهم السلام في سورة «يوسف» ونهج يعقوب النبي عليه السلام والذي ما فتئ يذكر ولده يوسف عليه السلام طوال مدة غيبته حتى خاف عليه أهله، لأنه ذكر مع استشعار الحزن والتأوه!، وهذا ما أبقى جذوة العشق والارتباط مستمرة، ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

ولأنه يعلم أن هناك مشروع سيأتي، ويعلم أيضاً أن الله سيمكّن يوسف عليه السلام في الارض بقي عليه السلام منتظراً للفرج مستعداً له على الدوام، بل إنه حاول باستمرار أن يعيد أولاده الغافلين إلى طريق الهداية والخلاص ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَحَسَبُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾^(٢)، وهذا أول طريق الهداية (تحسسوا) أي (استشعار) وهو بداية الأيمان العملي والفعلي.

(١) سورة يوسف، الآيتان ٨٥ - ٨٦.

(٢) سورة يوسف، الآية ٨٧.

المسؤولية مطلقة

ما ذكر في دعاء الندبة من مسؤوليات الإمام - ليس كما تصوره البعض أنها مسؤوليات مرحلة الظهور، بل الحقيقة أنها مطلقة.

وقد ورد عن الأئمة عليهم السلام بطرق متعددة انهم لو وجدوا أنصاراً مخلصين لنهضوا بالأمر^(١)، وهذا يعني أن الأئمة عليهم السلام وجدوا أن البيئة المعاصرة لهم ضعيفة، لذا شُرعت التقيّة لعدم توفر الظرف المناسب، فاحتاج الأمر إلى تجميد مؤقت لبعض المشاريع، لكن هذه البيئة ليست أولوية يجب الحفاظ عليها، بل المطلوب إزالة هذه الموانع، وتحويل الوضع من التقيّة إلى تغيير المجتمع وتوفير القوة اللازمة للقيام بالأمر، صحيح أن التقيّة حكم شرعي، وقد ورد عن الأئمة عليهم السلام: «التقيّة ديني ودين آبائي» ولكن اللازم هو تبديل موضوعها، بدليل تلك الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في تعليل أسباب عدم نهوضهم بالأمر، وهذا

(١) ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال بعد وفاة رسول الله - وحادثة السقيفة: «لو وجدت أربعين ذوي عزم منهم لناهضت القوم».

وكذلك ورد عن الإمام الحسن عليه السلام عن سبب الصلح أنه قال: «والله ما سلمت الأمر إليه إلا أنني لم أجد أنصاراً، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهاري حتى يحكم الله بيني وبينه».

يدل على أن الأولوية بعينها في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِءٍ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾^(١).

يجب على المؤمن أن يبني قوته في جميع المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، لأنه بها ينتصر.

ويجب التنبه إلى أمر مهم، وهو أن كل الفرائض لها توقيت معين الصلاة والصوم والحج والخمس والزكاة، إلا الولاية فهي في كل زمان ومكان، وغير مقيدة بأي شيء، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٢)، كل آيات الولاية لا تقيد بزمان أو مكان، حتى آية إعداد القوة غير مقيدة بسقف معين، وهذا ما أشير إليه في دعاء الندبة: «أَيْنَ الْمُعَدُّ لِقَطْعِ دَابِرِ الظُّلْمَةِ، أَيْنَ الْمُنتَظَرُ لِإِقَامَةِ الْأَمْتِ وَالْعِوَجِ، أَيْنَ الْمُرْتَجَى لِإِزَالَةِ الْجَوْرِ وَالْعُدْوَانِ..»^(٣).

هذه الواجبات أولية بالنسبة لصاحب العصر والزمان عليه السلام وكذلك الأئمة من قبله، ولكن لظروف التقيّة بسبب نقص القوة شرّعت التقيّة، وتبقى محاولات إزالة الظرف الخاص قائمة.

(١) سورة الانفال، الآية ٦٠.

(٢) سورة النساء، الآية ٥٩.

(٣) مقطع من دعاء الندبة.

سيد الشهداء حافظ للمشروع المهدي

طبعاً الإنسان متى يفقد الأمل سينكسر ويفقد القدرة على المقاومة، ولكن الحقيقة المسلّمة أن هناك حافظ لهذا المشروع الإلهي، وهو الدور الذي قام به سيد الشهداء عليه السلام، وهذا السبب الذي جعل كل الأنبياء والرسول في ذكر مستمر لسيد الشهداء، فالحسين عليه السلام قطع الطريق على المتربصين بدين النبي المصطفى صلى الله عليه وآله بهذه التضحية العظيمة، لأن ما قام به سيد الشهداء كان هو الضمان لحفظ الدين وقطع الطريق أمام الأمويين وأمثالهم من أعداء الإسلام.

وهنا أيضاً تتضح الفلسفة والغاية في شعائر سيد الشهداء في أنها استمرار لقطع الطريق أمام النواصب والقوى العظمية لضرب الدين ومحوه، أو حتى التلاعب به ومسخ صورته الحقيقية، بل هو مانع عن إنزلاق نفس المؤمنين من حيث يشعرون أو لا يشعرون، عن قصور أو تقصير.

الشعائر الحسينية هي حفاظ على هوية الدين، وحقيقة نبض الدين وفلسفته، وتذكير بالمبادئ بشكل دائم ومستمر، لأنها نبض حي للمبادئ والقيم.

مَنْ يَنْصُرُ مَنْ؟

الإمام الحسين عليه السلام والإمام المهدي عليه السلام، مَنْ يَنْصُرُ مَنْ؟.

الحقيقة أن الإمام الحسين عليه السلام ينصر ولده المهدي عليه السلام، لأن القضية الحسينية أصبحت معسكر أساسي لتجنيد الانصار للإمام المهدي عليه السلام، وحتى تكون جندياً في المشروع المهدي لا بد أن تمر بهذا المعسكر، فهو الذي يُؤَهِّلُك ويَجْعَلُكَ مدرباً لنصرة صاحب العصر والزمان عليه السلام، لذلك هذه الأجيال تلقائياً تجد نفسها مهيئة لأن تكون مهدوية، وهذا هو نصر الإمام الحسين لصاحب العصر والزمان عليه السلام، وهذا ليس شعراً، بل هي حقائق حضارية وعلمية، وفيها الكثير من الأدلة والبراهين.

أما نصر الإمام المهدي عليه السلام لجده الحسين عليه السلام فهي نصره الحقيقية، سواء كانت فعلية أم لاحقة.

الأمل وأثره في الصبر والثبات

ما جرى على لوط عليه السلام لما أتى قومه ليرادوا أضيافه: ﴿قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَيَّ رَكْنٍ شَدِيدٍ﴾^(١)، في روايات أهل البيت أن المقصود من هذا الكلام هو نوع استغاثة بصاحب العصر والزمان (عجل الله فرجه الشريف) من قبل النبي «هود»^(٢) عليه السلام.

والواقع أن فلسفة التسلية والسلوى والأمل شيء عظيم، لهول المصائب التي تجري على الأنبياء والرسل، بل وعلى أئمة أهل البيت عليهم السلام، «أين المنتظر لأقامة الأمت والعوج، أين المعد لقطع دابر الظلمة...».

وفي علم النفس أن الأمل هو مصدر قوة الصبر والتحمل والثبات والاستقامة، وانعدام الأمل عند الإنسان هو إنهيار لأرادته.

(١) سورة هود، الآية ٨٠.

(٢) عن أبي بصير: قال أبو عبد الله عليه السلام: «ما كان قول لوط عليه السلام لقومه: ﴿قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَيَّ رَكْنٍ شَدِيدٍ﴾، إلّا تمنياً لقوة القائم عليه السلام، ولا ذكر إلا شدة أصحابه، وإن الرجل منهم ليعطى قوة أربعين رجلاً، وإن قلبه لأشد من زبر الحديد، ولو مروا بجبال الحديد لقلعوها، ولا يكفون سيوفهم حتى يرضى الله عز وجل». (الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ص ٦٧٣) عنه (إثبات الهداة، الحر العاملي، ج ٣، ص ٤٩٤... وبحار الأنوار، المجلسي، ج ٥٢، ص ٣٢٧).

وجود الإمام مع وجود الأمل يوّلد النشاط والحيوية، وبالصبر تكون المقاومة.

فإن قيل: لماذا يستغيث النبي لوط عليه السلام بصاحب العصر والزمان عليه السلام مع علمه بالبعد الزمني بينهما؟

والجواب: أن لوط عليه السلام مساهم في ضمن سلسلة بمشروع كبير، وهو يعلم أن نتاج هذا الزرع لن يضيع

فهناك من يحافظ عليه، وهنا تنبتق الحيوية والنشاط والإرادة في المضي إلى النهاية في المساهمة في هذا الزرع الإلهي المبارك.

والاستغاثة بصاحب العصر والزمان (عجل الله فرجه) فلسفة إلهية سواء أتاك الغوث العاجل أم تأخر عنك، ففيها من الإيجابيات والنتائج العظيمة الشيء الكثير، منها بقاء الإصرار والإرادة عندك بحيث لا يذهب جهدك وعملك سدى، والاستغاثة بصاحب العصر والزمان لها دور في بعث النشاط والأمل.

وجود الإمام الدائم في الساحة

الاعتقاد أن غيبة الإمام الثاني عشر عليه السلام تبرّر الآن كل الأصطفافات السياسية والعسكرية والأمنية وهم كبير.

الولاية هي الفريضة الوحيدة في القرآن والتي لم تقيد بكل تشعباتها بقيد زماني أو مكاني، «وليّ لمن والاكم، وعدوّ لمن عاداكم».

فمن يوالي صاحب العصر والزمان عليه السلام يستطيع أن يشخص سياساته التدبيرية، أما من لا يشخص فهو من يعتقد بالمفهوم الخاطيء لغيبته عليه السلام وهو بهذا يقول بالجمود والإقصاء، والعياذ بالله.

الحق والاعتقاد الحق أن هناك محميات يحامي عنها عسكرياً صاحب العصر والزمان (عجل الله فرجه الشريف)، كدار الإيمان والمراقدة المقدسة لأبائه واجداده وغيرها، حتى الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، ولو بتدبير خفي.

يجب أن يكون هناك ولاء ثقافي وسياسي وعسكري للإمام عليه السلام، ولا يسوغ للمؤمن أن يتهاون بأسرار الإيمان وتذاع حتى تصل إلى الأعداء والخصوم

بل هناك مسؤولية أمنية، «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

منطق رسول الله ﷺ، وكذلك منطق أهل بيته من بعده هو أن الكل مسؤول في الإعداد والاستعداد للمشروع الألهي، إذن هذه المسؤوليات العظيمة لا يعطل منها شيء، نعم لا بُدَّ للإنسان المؤمن في مسؤولياته أن يهيئ الأرضية والمقدمات لمشروعه، ليكون البناء على أسس رصينة.

الفصل الخامس

الدعاء وضرورة الارتباط بالمهدي (عج)

- ميزان التواصل مع الإمام المهدي عليه السلام
- نوع الارتباط بالإمام المهدي عليه السلام
- رؤية الإمام عليه السلام دليل على وجوده.
- حجية التشرف برؤية الإمام المهدي عليه السلام
- الحجية الأكمل والأتم

ميزان التواصل مع الإمام المهدي عليه السلام

العلاقة بين المؤمنين الموالين لأهل البيت صلوات الله عليهم، وبين إمام زمانهم عليه السلام، هل هي بطبيعتها مقطوعة أو موصولة؟ هذه الجدلية ليست نزاع بقدر ما هي ميزان لطبيعة هذه العلاقة.

أحد طرق الارتباط هو الارتباط القلبي والفكري، وليس فقط الحسي العيني، فهو لا ينحصر بالنوع الثاني، وقد نُقِلَ عن الكثير من الأعلام أنه لدى بعض علماء الإمامية الحظوة والارتباط مع صاحب العصر والزمان عليه السلام، وهذا الارتباط ليس بالضرورة أن يكون جغرافياً، كالسلطان الذي يحكم بلداً كبيراً ويوجد لديه الوزراء والقادة الذين لا يراهم أحد من الناس، ولكن مع ذلك هم من يدير تلك المملكة ويسير شؤونها، لأن الجغرافيا لا تحدد دائماً طبيعة العلاقة.

والتوقيع الوارد عن صاحب العصر والزمان عليه السلام إلى السفير الرابع علي بن محمد السمرى، والمقطوع بصدوره عند الطائفة، يحدّد هذه العلاقة، فقد ورد في التوقيع المبارك: « بسم الله الرحمن الرحيم، يا علي بن محمد السمرى، أعظم الله أجر إخوانك فيك، فإنك ميت ما بينك وبين ستة أيام، فاجمع أمرك، ولا توصي إلى أحد يقوم مقامك بعد وفاتك، فقد وقعت الغيبة الثانية (التامة)، فلا ظهور إلا بعد إذن الله (عزوجل)،

وذلك بعد طول الأمد، وقسوة القلوب، وامتلاء الأرض جوراً، وسيأتي شيعتي من يدعي المشاهدة، ألا فمن ادعى المشاهدة قبل خروج السفيناني والصيحة فهو كاذب مفترٍ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»^(١).

نوع العلاقة موجود بعدة ألسن، سواء في دعاء الندبة أو الزيارات الكثيرة الأخرى الواردة بحقه عليه السلام: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْعَلَمُ الْمَنْصُوبُ وَالْعِلْمُ الْمَضْبُوبُ وَالْعَوْتُ وَالرَّحْمَةُ الْوَاسِعَةُ وَعَدَا غَيْرَ مَكْذُوبٍ»^(٢)، فالغوث يعني أن تتمسك به لكي يغيثك، وكذلك دعاء الفرج ودعاء المؤمنين له، وكذلك الكثير من الروايات عن آباءه بالتشديد على ضرورة التمسك به عليه السلام.

عن يونس بن عبد الرحمن قال: دخلت على الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام: فقلت له: يا ابن رسول الله أنت القائم بالحق؟ قال: «أنا القائم بالحق، ولكن القائم الذي يطهر الأرض من أعداء الله، ويملاها عدلاً كما ملئت جوراً هو الخامس من ولدي، له غيبة يطول أمدها خوفاً على نفسه، يترد فيها أقوام ويثبت فيها آخرون، ثم قال عليه السلام: طوبى لشيعتنا المتمسكين بحبنا في غيبة قائمنا، الثابتين على موالاتنا والبراءة من أعدائنا، أولئك منا ونحن منهم، قد رضوا بنا أئمة ورضينا بهم شيعة، فطوبى لهم ثم طوبى لهم، هم والله معنا في درجتنا يوم القيامة»^(٣).

فالثبات هنا هو ثبات سياسي وعقائدي وعسكري أمني.

إذن هنا لونين للعلاقة مع صاحب العصر والزمان عليه السلام، وليس بينهما

(١) الصدوق، كمال الدين، ج ٢، ص ٥١٦. والطوسي، الغيبة، ص ٢٤٢، ٢٤٣.

(٢) مقطع من زيارة آل ياسين.

(٣) الصدوق، كمال الدين: ص ٣٦١ ب ٣٤ ح ٥

تناقض أو تنافي، بل هما يحددان ميزان العلاقة بالإمام المهدي عليه السلام، أحدهما يدعي له صفة رسمية في الارتباط مع صاحب العصر والزمان وهذا أمر باطل، فمن يدعي الارتباط الرسمي بعد السفير الرابع فهو مارق عن الدين، وكاذب، ومنحرف عن الصراط المستقيم، حسب ضرورة وتسالم أعلام الطائفة قدس الله أرواحهم.

هذا النمط من الارتباط الباطل لفترة محدودة، وهو - حسب التوقيع الشريف - إلى زمان خروج السفيناني والصيحة التي سيسمعاها كل إنسان بلغته، وهي نهاية الغيبة الكبرى وبداية الظهور الأصغر، وهو بحسب بعض الروايات يستمر لسته أشهر، وسيكون له نواب خاصين.

أما النيابة العامة فهي دور الفقهاء ونيابتهم في زمن الغيبة الكبرى، وهي مذكورة في القرآن الكريم، وفي مرويات أهل البيت عليهم السلام.

في نص القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً ﴾^(١). فالأحبار هم الفقهاء.

وكذلك الحديث الوارد عن صاحب العصر والزمان عليه السلام: «وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجّتي عليكم، وأنا حجّة الله عليهم»^(٢).

(١) سورة المائدة، الآية ٤٤.

(٢) الصدوق، كمال الدين وإتمام النعمة، ص ٤٨٤، ب ٤٥؛ والحر العاملي، وسائل الشريعة ج ٢٧، ص ١٤٠، ب ١١، ح ٣٣٤٢٤، من أبواب صفات القاضي.

نوع الارتباط بالإمام المهدي عليه السلام

من وظائف المؤمن هو شدة الارتباط بالإمام المهدي عليه السلام: «هَلْ مِنْ مُعِينٍ فَأُطِيلَ مَعَهُ الْعَوِيلَ وَالْبُكَاءَ، هَلْ مِنْ جَزُوعٍ فَأُسَاعِدَ جَزَعَهُ إِذَا خَلَا، هَلْ قَدِيتَ عَيْنٌ فَسَاعَدْتَهَا عَيْنِي عَلَى الْقَدَى... عزيز علي أن أرى الخلق ولا ترى»^(١).

بغض النظر عما إذا كان الإنسان صادقاً أو كاذباً في إدعائه «عزيز علي أن أرى الخلق ولا ترى» فالإمام لا يستطيع أن يكشف هويته، لعدم وجود القوة التي تحميه من بطش الأعداء في الشرق والغرب!، فالاتصال بصاحب العصر والزمان عليه السلام ليس بدرجة الانقطاع التام، لأن هذا جحود وإنكار لأصل إمامة الإمام عليه السلام.

وإذا كان الشخص يعتقد أن صاحب العصر والزمان حيّ يُرزق ويُدبّر الأمور العامة للبشر، لكن طريق الارتباط به منقطعة تماماً، هذا أيضاً درجة من درجات جحد إمامته عليه السلام.

والصحيح، لا هو إنقطاع تام، بمعنى الجحود والأنكار له عليه السلام، ولا هو وصال تام، بمعنى السفارة والوساطة الرسمية، فهذا في منهاج مدرسة أهل البيت عليهم السلام هو الآخر باطل.

(١) مقطع من دعاء الندبة.

الكليني رحمه الله عقد لهذه المسألة جملة من الأبواب في «أصول الكافي»، وكذلك «الصدوق» في «كمال الدين»، والطوسي في الغيبة، والنعماني تلميذ الكليني أيضاً في كتاب الغيبة، وكذلك الشيخ المفيد، والسيد المرتضى، والسيد بن طاووس، كل هؤلاء الاعلام وغيرهم، عندهم إصرار كبير على تثبيت التشرُّف بالرؤيا، مع إبطال السفارة والنيابة الخاصة لمن يدعيها في الغيبة الكبرى، وإبطال المشاهدة والوساطة الرسمية في الوقت الذي يصرون فيه على وقوع الرؤيا، يعني اصرار على عدم الانقطاع التام.

وهذا هو مسلك علماء الإمامية، وهي الوسطية في العلاقة مع الإمام

المهدي عليه السلام.

رؤية الإمام عليه السلام دليل على وجوده

ما ورد في كتب الشيعة الإمامية عن فقهاء الطائفة وعلماؤها بتشرّف البعض برؤية صاحب العصر والزمان عليه السلام جعله الفقهاء من الأدلّة على وجود الإمام المهدي عليه السلام، وهو لا يناقض نصّ التوقيع الشريف، لأنّ التشرف بالرؤية مع عدم إدعاء النيابة الخاصة، لا مشكلة فيه.

وقد روى الأعلام من الإمامية في كتبهم، كالميرزا النوري رحمه الله حيث ألف كتاباً خاصاً فيمن فاز برؤية صاحب العصر والزمان، وهو الآن يُطبع مع البحار في المجلد الثالث والخمسون. وهذا نوع من أنواع الأرتباط بالإمام المهدي عليه السلام.

حجية التشرف برؤية الإمام (عجل الله فرجه)

الإجماع التشرفي يختلف عن الإجماع اللطفي، والتعبدي، والتسالمي كما يُعبّر الأصوليون، فالإجماع التشرفي هو أضعف من زاويتين أو أكثر عن بقيه مراتب الإجماع، وهو حجة على من تشرف فقط، وليس على غيره، ولا يُعتمد عليه كحجة، ولا حتى كرواية ظنية، وإذا كان الأمر كذلك فما هي ثمرة هذا التشرف؟.

الحق أن فيه ثمرة هم يعطوها الأهتمام إذا لم تخالف الكتاب والسنة، أو البديهيات الماثورة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام، صحيح أن نقل من تشرف إلى من لم يتشرف باللقاء ليس حجة ظنية أو حسية، ومع ذلك يبنون على أنها ليست عديمة الفائدة.

والشيخ الطوسي في المصباح ينقل أدعية ليست منقولة عن النواب الأربعة، بل هي منقولة عمّن تشرف باللقاء في زمن الغيبة الكبرى، وكذلك الشيخ المفيد في المزار وفي موارد متعددة، مع أن الأعلام يقولون إن الأجماع التشرفي حتى لمن تشرف هو أضعف حجة من الإجماع اللطفي، وكذلك التسالمي والتعبدي، لضابطة وسطية يعتمد عليها علماء الإمامية وهي أن السبب ليس في المعصوم، وإنما في من تلقى عن المعصوم، حتى

لو كان التشرف واقعاً وليس فيه خطأ ما، ففهم غير المعصوم وسمعه أيضاً لا يتصفان بالعصمة، لأن التلقي من غير المعصوم.

ويمكن ملاحظة ذلك في القرآن الكريم، فإنه لا يكفي العصمة من المنبع، بل لا بد من العصمة في المتلقي حتى يكون الملقى حياً بالحق ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْهُ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(١)، فالوحي معصوم من الله، والمتلقي معصوم بالنبي عليه السلام، لذا أجمع علماء الإمامية أن المصحف الشريف لا يمكن أن يكون وحيانياً بنقل إجماع الصحابة أو التابعين أو تابعي التابعين من دون المعصوم، لذلك قالوا إجماع الأمة ليس بحجة ومقصودهم هي الحجة الوحيانية، فالحجة الظنية والتواتر الحسي موجود لكن من دون إمام معصوم ينزل عن الحجية الوحيانية.

(١) سورة الأسراء، الآية ١٠٥.

الحجبة الأكمل والأتم

الحجبة الوحانية هي الأكمل والأتم والتي لا يشوبها شك أبداً، في حين أن الحجبة الحسية - على سبيل المثال - ممكن فيها الاشتباه، والنص القرآني واضح في ذلك: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاعُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾^(١)، وهذا الاشتباه في الحس أثبتت الدراسات وقوعه، والعقل عادة يصحح هذا الاشتباه، وفي قصة عيسى عليه السلام الوحي هو من صحح اشتباه الحس لدى اليهود بزعمهم قتل المسيح عليه السلام.

لا يمكن باليقين الحسي الوصول إلى نتيجة وحيانية لا شائبة فيها، وإلا سيكون القرآن الكريم الذي مستنده رواة الصحابة بالتواتر كتاباً تاريخياً بشرياً والعياذ بالله، ويتم إثبات وحيانية القرآن الكريم بوجود صاحب العصر والزمان عليه السلام فهو السبب المتصل بين الأرض والسماء.

فتلقي غير المعصوم - على جلاله قدره - كزرارة ومحمد بن مسلم وغيرهم من الأكابر لا يجعل هذا التلقي وحيّاً، غاية الأمر أن هذا الوحي

الذي ألقاه الإمام الصادق عليه السلام بسبب المتلقي غير المعصوم تلون وهبط من المستوى الوحياني إلى المستوى الحسي الظني.

هذا المستوى الحسي والظني يعتمد على محكمات القرآن الكريم، والمتواترات الوحيانية من سنة النبي والعترة الطاهرة عليهم الصلاة والسلام، تلك المحكمات ليس بتلقي الأفراد بل هناك حافظ لوحياتها وهو إمام العصر في كل زمان.

لذلك نحن نقول أن تلقي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله يختلف عن تلقي جميع الصحابة، لأن تلقي الصحابة حسي ظني، أما تلقي أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام هو تلقي وحياني معصوم من معصوم، ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أذنٌ وَعِيةٌ﴾ (١)، فالصحابة يشتهون في النقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله بعمد أو غيره، ولهذا بقي الاجتهاد مفتوحاً عند الإمامية، لأن تلقي العلماء الفقهاء عن المعصوم ليس معصوماً، وهو قابل للتخطئة.

والتشرف بلقاء صاحب العصر والزمان عليه السلام ليس بحجة ولكنه إرشاد لشيء غفل عنه الإنسان، والحجّة تبقى لمحكمات الكتاب والسنة.

الفصل السادس

أثر البكاء في تقريب المسافات

- البكاء إحساس بالمسؤولية
- أثر البكاء في الشحن الروحي
- دعاء الندبة مدرسة تربوية
- الممارسة اليومية للحب والمودة
- دوام الذكر يولد المحبة
- الدمعة آية المحبة

البكاء إحساس بالمسؤولية

فلسفة دعاء الندبة استثارة حسّ المسؤولية لدى المحبين، «هل من معين فأطيل معه العويل والبكاء؟ هل من جزوع فأساعد جزعه إذا خلا؟ هل قذيت عين فساعدتها عيني على القذى؟ هل إليك يا بن أحمد سبيل فتلقى؟ هل يتصل يومنا منك بعدة فنحطى؟ متى نرد مناهلك الروية فنروى؟ متى نتقع من عذب مائك فقد طال الصدى؟ متى نغاديك ونراوحك فنقتر عينا؟ متى ترانا ونراك وقد نشرت لواء النصر؟ ترى أترانا نحف بك وأنت تؤم الملاء، وقد ملأت الأرض عدلاً وأذقت أعداءك هواناً وعقاباً، وأبرت العنة وجحده الحق، وقطعت دابر المتكبرين، واجتثت أصول الظالمين، ونحن نقول: الحمد لله رب العالمين»^(١).

هذه الرغبة والشوق هي غاية من غايات دعاء الندبة، لأن شدة المحبة والحنين هي التي تخلق المسؤولية «سيدي غيبتك نفت رقادي، وضيق علي مهادي، وابترت مني راحة فؤادي» الإحساس بالمسؤولية هو الذي يُسلب المؤمن راحته!، الإحساس الكبير بالمسؤولية يصدم حب الذات والأنا، وهنا تكمن الفلسفة العظيمة لدعاء الندبة.

(١) مقطع من دعاء الندبة.

وهذا لا يشير فقط إلى تقصير الموالين بل حتى المخالفين، وإلّا كيف يُفسّر موقف أهل المدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، عندما مارست الزهراء سلام الله عليها دورها في البكاء والحنين.

أتى القوم إلى أمير المؤمنين عليه السلام وعبروا عن إنزعاجهم من كثرة بكاء الصديقة الطاهرة، وطلبوا منه أن يخيرها بين البكاء ليلاً أو نهاراً، مع أنه لم تمض أيام كثيرة على وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله.

هذا المنطق هو الذي يريده الطرف الآخر، لا يريد للشوق والحنين لرسول الله صلى الله عليه وآله أن يكون حساً للمسؤولية، «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات»!! إنشداد المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وآله في يوم رحيله يعتبرها عبادة لرسول الله مع أنها عين الإيمان.

هنا موقف الزهراء عليها السلام، عندما رأت الفتور فيما بعد وفي الأيام الأولى من وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله من قبل المسلمين عزّ عليها ذلك، ولم تقبل لنفسها أن تتخلى عن دورها ومسؤوليتها وهي الحجّة على الأمة، لأن ما تراه هو نوع من قلة الاهتمام بأبيها وهو سيد الخلق وتهوين لشأنه، وهذا من أكبر الكبائر.

وأسباب هذا التقصير الكبير واضح، وهو أن الحنين والمحبة والانشداد لرسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن متوفراً عند من أخطأ بحقه بعد وفاته.

وأولئك يشابهون من يتحسس الآن من مجالس سيد الشهداء وبكاء المؤمنين على ما جرى عليه وعلى أهل بيته عليهم الصلاة والسلام.

إن الفتور من قبل المؤمنين في هذا الجانب هو عقوق وإدبار عن أهل البيت عليهم السلام، وعن الوظيفة الإلهية المقررة.

زيادة الارتباط والحنين وشدة الشوق والمحبة في قلب المؤمن هي من الغايات المحورية في الزيارات والأدعية وخصوصاً دعاء الندبة، لأنه بالنتيجة هذه الأمور هي التي ستثير في نفس المؤمن حسّ المسؤولية تجاه مشروع أهل البيت عليهم السلام.

أثر البكاء في الشحن الروحي

سُنَّة البكاء على سيّد الشهداء عليه السلام كانت قبل ولادته منذ بُعث الأنبياء السابقين، وكذلك البكاء على صاحب العصر والزمان، والبلاء الذي يعيشه عليه السلام ومحنة غيبته الطويلة.

أمير المؤمنين عليه السلام، عندما شاهده أحد أصحابه وهو يتنفس الصعداء مهموماً مغموماً، فسأله عن سبب هذا الغم، فقال: همي وغمي لذكر غيبة ولدي المهدي وطول محنته.

وكذلك الأئمة عليهم السلام من بعد أمير المؤمنين عليه السلام، كانوا يعيشون الآم وهموم المهدي عليه السلام وهو لم يولد بعد.

فاجعة كربلاء ومصائبها الفظيعة بسفك الدماء الزاكية لسيّد الشهداء وآل بيته وأصحابه وسبي عياله، ومصيبة صاحب الزمان في عظيم محنته بطول الغيبة، لا زالتا ماثلتين قائمتين، وهذا يعني أن المشروع الإلهي إلى الآن لم يتم، والسبب وقوف الظالمين في وجه هذا المشروع، والحيلولة دون تحقيق أهدافه.

لذا هذا البكاء على سيد الشهداء في مصيبتهم وعلى صاحب الزمان في محنة غيبته، لأن باطن هذا البكاء حب وولع بهما صلوات الله عليهما

وبمشروعهما، وبالتالي بالمشروع الألهي، فهو نوع من الخزن وشحن للطاقة الروحية الفاعلة لأنجاز هذا المشروع، والمكابدة في تحمّل عظم المسؤولية لكي لا يتراجع المؤمن في وسط الطريق، لأنه ليس في تقدير الله الحكيم العبث في محن آل البيت عليهم السلام، بل هو رسالة وحيانية من الله سبحانه وتعالى أن مشروعهم عظيم، ويحتاج إلى مخزون إعدادي وروحيّ يستمر لقرون طويلة.

دعاء الندبة مدرسة تربوية

بهذا اللحاظ دعاء الندبة مدرسة تربوية وفلسفة عظيمة لصناعة الوله والحنين لأهل البيت عليهم السلام، سواء بصيغة البكاء عليهم أو بصيغ أخرى لغرض الإحساس بالمسؤولية.

وحقيقة المشروع الألهي الذي هو بجهد المعصومين عليهم السلام والأنبياء السابقين يتجسد الان بصاحب العصر والزمان عليه السلام، والمخاطرة به الآن هي مخاطرة بكل الجهود السابقة، بل هو تفريط بكل مصائب ومحن آل البيت عليهم السلام من خلال التفريط بغاية وجدوائية تلك المحن والمصائب.

ولهذا الألم وزفرة الحزن التي يبثها الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام «سيدي غيبتك أوصلت مصابي بفجائع الأبد وفقد الواحد بعد الواحد يفنى الجمع والعدد...» كأن محنة الإمام المهدي عليه السلام ومصيبته في طول غيبته هي اختزال لكل المصائب والمحن التي مرّت على المعصومين عليهم السلام.

لذلك ليس المطلوب قراءة دعاء الندبة فقط، بل المطلوب الحقيقي هو الذروة في هذه القراءة، وهي اللوعة والألم ووجع القلب لهذه المصائب والمحن وإقامة حقيقة هذه العناوين، وهذه تحتاج إلى الصدق في العلاقة القلبية والروحية والفكرية لكي تُحدث الأثر المطلوب.

عدم تحقيق المؤمن لهذه العناوين في نفسه يعني عدم الشعور بالمسؤولية، وعدم الشعور بالمسؤولية يعني عدم وجود تعلق فكري وقلبي وروحيّ بالمشروع المهدوي، وهذا بالضرورة ناتج عن عدم الفهم لمشروع الإمام المهدي عليه السلام، وكل هذه الأمور تحتاج إلى معالجة فكرية معرفية كي نصل إلى هذه الدرجة من التعلق والوله، وبنود دعاء الندبة كما هي روحية قلبية، هي أيضاً بنود فكرية معرفية، عدم التدبر فيها لا يصل الإنسان إلى مرحلة الشحن الروحيّ والطاقة اللازمة للمقاومة.

الممارسة اليومية للحب والمودة

يجب على الإنسان أن يمارس يوماً سُنَّةَ التعلق بأهل البيت عليهم السلام، لأنها ضرورة لتربية النفس، وهي باب مهم من أبواب العبادات.

العبادة البدنية مقدّسة، وهي تبقى معنا، ليس فقط إلى الموت بل وما بعده في البرزخ، ولكن ثمرتها اليومية أن توجد للإنسان رياضة روحية قطبها الحنين والمودة للنبي وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام.

الله سبحانه وتعالى أوجب اجر الرسالة على الأمة بالمودة في القربى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ ^(١) يعني في قبال كل هذه التضحيات العظيمة، وآثارها التي لا يمكن حصرها في العقيدة والتشريع والشعائر العبادية هي المودة للنبي وآله عليهم السلام.

فحصر المحبة والمودة في القربى، يعني أن لبّ العبادات بكل تفاصيلها وتفرعاتها مؤداها حب محمد وآل محمد.

(١) سورة الشورى، الآية ٢٣.

التقرب الروحي والفكري

هذه الندبة التي أقامها كل المعصومين سلام الله عليهم بطريقة وأخرى لذكر صاحب الزمان عليه السلام كما ورد في الروايات بكاءً عليه وحزناً لمحتته في غيبته الطويلة.

بعض مرضى النفوس يعترض على هذه الندبة!، والجواب الدامغ يأتيه من القرآن الكريم ببيان سنة بكاء أقامها يعقوب النبي على ولده يوسف عليه السلام.

البكاء على حجج الله سنة عبادة عظيمة، لم يذكرها القرآن الكريم إلا لكي نتعبد نحن أيضاً بهذه السنة: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

فإذن البكاء على أصفياء الله وحججه سنة تعين على الأشداد والحنين إليهم، لأن باطن البكاء هو وجد وإنجذاب للمحبوب.

في المناجاة الشعبانية عندما يناجي الإمام عليه السلام ربه بهذه الكلمات: «إلهي هب لي قلباً يُدنيه منك شوقه» هو بيان لدور الشوق كفعل قلبي من تقرب العبد لربه، فإذا إنعدم الشوق إبتعد القلب عن الله.

بعض العناوين في دعاء الندبة تشير إلى فعل القلب هذا: «فَأَغِثْ يَا غِيَاثَ الْمُسْتَغِيثِينَ عُبَيْدَكَ الْمُبْتَلَى، وَأَرِهِ سَيِّدَهُ يَا شَدِيدَ الْقُوَى، وَأَزِلْ عَنْهُ بِهِ الْأَسَى وَالْجَوَى، وَبَرِّدْ غَلِيلَهُ يَا مَنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى..» الشوق واشتعال القلب به - الوارد في دعاء الندبة، وفي غيره من الأدعية والمناجاة - تدعونا إلى ضرورة التعامل مع تراث أهل البيت عليهم السلام بدقة وتروّي كبيرين، لأنه يحتوي على نواميس ومعادلات النجوى، فأنت أيها المؤمن تريد القرب وتشكو البعد؟ يجب أن تكون وسيلتك الشوق وهذا الشوق يحتاج إلى قلب واله و متيم.

كان بعض الناس يعيش في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله، لكن لم يكن في قلوبهم الشوق له، وهذا يعني بُعدهم عنه، لأن قرب الأبدان لا يعني شيئاً مع بُعد القلوب.

والفكر أيضاً يقرب الإنسان «إلهي هب لي قلباً يُدنيه منك شوقه، ونظراً يقربه منك حقه»، الفكر إذا كان نافذ البصيرة أيضاً يتقرب به الإنسان لربه، لأن قوة الفكر لها تأثيرها الخاص.

فإذا لم يكن شوق القلب مفتاحاً للوصول إلى المحبوب، يمكن للفكر أن يكون طريقاً آخر للوصول.

لكن يبقى الطريقتين هما المطلوبين للوصول، لأنه لا يكفي الشوق مع عدم البصيرة!، أو قريب فكرياً لكنه قاسي القلب ليس فيه شوق للمحبوب!، حتى لا يصبح هذا الإنسان عجيباً في تناقضاته، لأن المعادلة من طرفين وليست من طرف واحد، «إلهي هب لي قلباً يُدنيه منك شوقه، ونظراً يقربه منك حقه».

هذه هي نقاط الاتصال بالسّاحة الإلهية، وبالتالي بساحة المعصومين عليهم السلام، فكل إنسان قريب شوقاً من صاحب الزمان عليه السلام، ولكنه فكراً بعيد عنه فهذا محجوب، لأنه لا بصيرة له، ولو كان قريباً فكراً لكنه لا يشتاق لصاحب الزمان فهذه القساوة حتماً ستجعله بعيداً عن الإمام عليه السلام.

هذه المعادلة مع الساحة الإلهية هي بعينها مع أولياء الله وحججه - فكر نافذ وبصير، مع قلب مُتَيَّم وشوق كبير - هكذا يكون القرب.

دوام الذكر يوجد المحبة

هذا الحب يُطهّر قلب الإنسان من أوساخ الغفلة، ويعيده إلى ربّه، ورد في المناجاة الشعبانية: «إِلَهِي لَمْ يَكُنْ لِي حَوْلٌ فَأَتَّقِلْ بِهِ عَنْ مَعْصِيَتِكَ إِلَّا فِي وَقْتٍ أَيْقَظْتَنِي لِمَحَبَّتِكَ، وَكَمَا أَرَدْتَ أَنْ أَكُونَ كُنْتُ، فَشَكَرْتُكَ بِإِذْخَالِي فِي كَرَمِكَ، وَلِتَطْهِيرِ قَلْبِي مِنْ أَوْسَاخِ الْغَفْلَةِ عَنْكَ»، فكلّما تزداد أوساخ الغفلة على قلب الإنسان يزداد البُعد عن الله سبحانه وتعالى حتى ينجس القلب، ولن يعود الإنسان إلا أن يشتغل القلب بالحب من جديد، وهذا بدوره لا يتم إلا بالذكر.

حبّ رسول الله وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام هو الأساس الذي ينطلق منه الإنسان في التكامل والقرب الإلهي، والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾^(١) وهذا الرفع لأنه مقرون بذكر الله سبحانه وتعالى، وإدمان هذا الذكر هو الذي يفجّر في قلب الإنسان الحب والشوق إلى المحبوب.

أبناء النبي يعقوب عليه السلام لم يستوعبوا شدة حنين وشوق أبيهم ليوسف عليه السلام: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتَوْنَا تَذَكَّرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ

(١) سورة الشرح، الآية ٤.

تَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿١﴾، والمعصومون أيضاً يتفاوتون في حبهـم وحنينهم بحسب درجة عصمتهم، فأمير المؤمنين عليه السلام في حداده على رسول الله صلوات الله عليه وآله وعلى فاطمة الزهراء عليها السلام لم يخضب شيبته المقدسة بقيّة عمره الشريف، ولم يلبس جديداً، وهذا يدل على شدّة الشوق والحنين لرسول الله وللصديقة الطاهرة صلى الله عليهما وآلهما، وهذا مما اختص به سلام الله عليه.

الدمعة آية المحبة

اذن هذه العبادة القلبية حتى المعصومين يتفاوتون فيما بينهم، أما القاسية قلوبهم فهم محرومون من هذه النعمة الكبيرة والكمال العظيم، لأنهم لم يستوعبوا تلك العبادة، ولم يفهموا أو يستشعروا لذّة هذا الشوق والحنين، وأحد مظاهر قلب العاشق هو الرقة، وتلك الدمعة هي آية من آيات ذلك الحب، وعلامة لين القلب ورقته، والقرآن الكريم أشار إلى ذلك: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُنِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾^(١)، ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾^(٢).

والله سبحانه وتعالى يحب لين القلب، لأنه أقرب ما يكون العبد لربه عندما يلين قلبه، وقد ورد أن موسى عليه السلام قد سأل ربه فقال: يا ربّ أين أجدك؟ قال: «عند المنكسرة قلوبهم».

أما الجفافة الغلاظ فهم قساة، ويتباهون بقساوتهم

(١) سورة المائدة، الآية ٨٣.

(٢) سورة التوبة، الآية ٩٢.

الفصل السابع

محورية المودة في لزوم الطاعة

- لغة الشوق والحنين
- أثر الحب في التعلق بصاحب الزمان عليه السلام
- القصد بالقلوب أبلغ
- الحب والحنين خروج من الظلم
- من طرق باباً أوشك أن يُفتح

لغة الشوق والحنين

هذه الفريضة من فرائض أعمال القلب، وهي إحدى الغايات في دعاء الندبة، وهي الحنين والشوق وغلِيانَه في القلب، «فَأَعِثْ يَا غِيَاثَ الْمُسْتَعِيثِينَ عُبَيْدَكَ الْمُبْتَلَى، وَآرِهَ سَيِّدَهُ يَا شَدِيدَ الْقُوَى، وَأَزِلْ عَنْهُ بِهِ الْأَسَى وَالْجَوَى، وَبَرِّدْ غَلِيلَهُ يَا مَنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى...»^(١).

يعني من الفرائض العظيمة هو أن يشتعل القلب شوقاً إلى صاحب العصر والزمان عليه السلام، أما إذا كان القلب بارداً فهو في قصور وتقصير، وإذا كان الأمر كذلك، ما هو السبيل إلى زيادة هذا الشوق حتى يصل مرحلة الاشتعال في القلب؟

من أهم الأمور التي توجد الشوق والحنين العالي هو البكاء، متى ما وصل المؤمن إلى هذا الأدب وإلى هذه الدرجة من العلاقة فإنه سيشتعل قلبه.

فلسفة البكاء وثماره العظيمة هو اشتعال الحب والشوق للمحبيب، صحيح أن البكاء ناشئ من الحب إبتداءً وليس العكس، ولكن إدمان البكاء هو ترسيخ وتجذير لهذا الحب، بدليل الفوائد العظيمة للبكاء على سيد الشهداء وآثاره الماثلة أمامنا.

(١) مقطع من دعاء الندبة.

من الأسرار العظيمة في دعاء الندبة هي تحبيب لغة البكاء، «فَعَلَى
الْأَطَائِبِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ وَعَلِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَآلِهِمَا فَلَيْتَ الْبَاكُونَ،
وَأَيَّاهُمْ فَلَيْتَ النَّادِبُونَ، وَلَيْتَ لِهَيْبِهِمْ فَلَيْتَ دُرُفِ الدُّمُوعِ، وَلَيْتَ صُرُخِ الصَّارِحُونَ،
وَيَضِجِ الضَّاجُونَ، وَيَعِجِ الْعَاجُونَ»^(١).

لغة الحب ولغة البكاء لغة واحدة، وإنصافاً بعد تحليل علمي سيتضح
أن البكاء هو منشأ الحب والعشق والهيام.

المودة هي فريضة قلبية قبل أن تكون بدنية وهي فريضة عظيمة،
ودعاء الندبة يستعرض لنا اليات أداء هذه الفريضة حتى لا نقصر أو نفرط
فيها، لأن فلسفة الحب للأصفياء من آل محمد عليهم السلام هو تكامل مستمر،
وكلما اشتدَّ الحب زاد الكمال أكثر، وهذا يدلُّ على أن حقيقة البكاء
وفلسفته شيء عظيم.

(١) مقطع من دعاء الندبة.

أثر الحب والتعلق بأهل البيت

من يشكل على شدة التعلق بأهل البيت عليهم السلام، وبالخصوص بصاحب العصر والزمان عليه السلام وأن الأفراط يؤدي إلى الغلو قد اخطأ الطريق، فيذهب بالنتيجة إلى التفريط، وبالتالي الجفاء لآل البيت عليهم السلام، في حين أن القرآن الكريم يصدق بأية المودة: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ ^(١)، وقد روي أن رجلاً من الأنصار جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول ما استطيع فراقك، وإني لأدخل منزلي فأذكرك فأترك ضعيتي، وأقبل حتى أنظر إليك حباً لك، فذكرت إذا كان يوم القيامة وأدخلت الجنة، فرفعت في أعلى عليين، فكيف لي بك يا نبي الله؟ فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ ^(٢)، فدعى النبي صلى الله عليه وآله الرجل فقرأها عليه وبشره بذلك ^(٣).

فهل هذا الرجل هو مبتدع أو مغالي؟ وهل اتهمه رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك؟ أم أن الله سبحانه وتعالى أنزل وحياً يبشر هذا المتيّم بحب

(١) سورة الشورى، الآية ٢٣.

(٢) سورة النساء، الآية ٦٩.

(٣) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٤.

النبي عليه السلام، وهو خائف وجل إذا رُفِعَ النبي عليه السلام يوم القيامة إلى أعلى عليين كيف يراه بعد ذلك؟.

«واجعل قلبي بحبك متيماً» هذه المعاني الروحية العظيمة في دعاء «كميل»، والتي تتصاعد بالعبء في درجة الحب والشوق إلى مرحلة المتيم، هي أعلى درجات العشق والهيام، وهو معنى «القصد إلى الله بالقلوب أبلغ من القصد بالأبدان». فأين نحن من هذا الحب والعشق لصاحب العصر والزمان عليه السلام؟ من نتائج الحب هو الطاعة للمحسوب، وهو أحد المقامات العظيمة لفلسفة الحب والعشق.

دعاء الندبة يسعى في هذا المضمار، وهو زيادة العشق والمحبة لصاحب العصر والزمان عليه السلام، وهذا يعني أن التملل والتلكؤ في الطاعة بسبب ضعف المحبة: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبُّكُمْ اللَّهُ﴾ ^(١) يعني علامة صدق المحبة الأتباع.

إذن المحبة ليست تصنع أو تكلف، بل هي بناء قويم لكمال الطاعة وهي الدين، وهذا يدل على عظمة بيان أهل البيت عليهم السلام في أن حركة القلب إلى الله أعظم من حركة الأبدان، لأن الحب الذي هو حركة قلبية يجعلك مطيعاً للمحسوب ولا تُحدِّث نفسك بالمخالفة أبداً، خصوصاً إذا اشتدَّ الحب وارتفعت درجته.

(١) سورة آل عمران، الآية ٣١.

القصد بالقلوب أبلغ

العبادة القلبية التي يشير إليها دعاء الندبة هي في الحقيقة بند ومحور في كل الأدعية والزيارات، وهي تنبيه على أن العبادة القلبية هي أعظم من العبادة البدنية كما ورد عن أهل البيت عليهم السلام، وهذه الإشارة لا تعني التفريط بالعبادة البدنية، بل تبقى هي مقدمة، وفيما بعد تأتي العبادة القلبية.

والغاية من العبادة القلبية هي الوصول إلى هذا المقام: «وإجعل قلبي بحبك متيماً» يعني أن يصل إلى درجة من العشق والوله، وهي أعلى ما يمكن أن يصل إليه المؤمن.

هذه الحالة إن لم يوجد لها المؤمن في روحه وقلبه سيبقى في صحراء قاحلة لا روح فيها ولا معنى، فالدعاء ليس فقط لقضاء الحوائج سواء كانت دنيوية أو أخروية، بل الغاية الأعظم أن يكون العبد مُتِيماً بعشق الله: «وهبني صبرت على حر نارك.. فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك..» هذا الشوق واشتعال القلب بحب الله متى وُجد في أنفسنا أوجد طاقة من العبادة والأيمان والكمال بدرجة أعظم مما يمكن تصوره.

والإمام الحسين عليه السلام في كربلاء أشار إلى هذه المسألة في إحدى

خطبه بأصحابه: «...وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف..»^(١)
 فالوله هي الغاية التي يبلغها الإنسان في عشقه للمعشوق، وأي إيمان أعظم
 من هذا؟ فقلب غير واله ناقص الأيمان والكمال!

لذلك ترى أهل البيت عليهم الصلاة والسلام يتعاملون مع الإمام
 المهدي عليه السلام بهذا النوع من العشق في ندبتهم له.

فأمير المؤمنين عليه السلام، ورد عنه انه كلما ضاقت نفسه بالهموم ذكر
 ولده المهدي، والإمام الصادق عليه السلام كان كثير البكاء والنحيب في ذكره له،
 وكانت ندبته له تقطع القلب لشدة الوجد الذي يظهره، ونفس الأمر ورد
 عن الرضا عليه السلام.

التعلق بالحجة بن الحسن عليه السلام يجب أن يكون بهذه الشاكلة، وعلينا
 أن نتعلم من أئمة أهل البيت عليهم السلام كيفية التعامل مع المهدي عليه السلام، والتعلق
 به وندبته وذكره بما يستحق من العشق والوله به، وهذا لن يكون بدون
 التوجه القلبي من خلال الدعاء والزيارة، وليست مجرد قراءة فارغة جوفاء
 لا تتعد عن قلقلة اللسان.

فالنذبة سنة نبوية دأب عليها أهل البيت عليهم السلام، والندب هو تلّهف
 وشوق لهذا المنقذ المصلح.

(١) السيد بن طاووس، اللهوف في قتلى الطفوف، ص ١٢٦.

الحب والحنين خروج من الظلم

دعاء الندبة لا يختصّ فقط بطلب الحاجة، بل هو متضمّن لماهيات عبادية عديدة، فهو نجوى وملاطفة في الدعاء، وهو تحبّب وتعاطف وحنين، كل هذه أفعال عبادية مكانها القلب والروح.

وفي الرواية أن حنين المؤمن لرسول الله ﷺ يخرج من دائرة الظلم لنفسه، فقد روي أنّ رسول الله ﷺ كان يخطب بالمدينة إلى جذع نخلة في صحن مسجدها، فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله إنّ الناس قد كثروا، وإنّهم يحبّون النظر إليك إذا خطبت، فلو أذنت في أن نعمل لك منبراً، له مراق ترقاها فيراك الناس إذا خطبت، فأذن في ذلك.

فلما كان يوم الجمعة مرّ بالجذع فتجاوزه إلى المنبر فصعده، فلما استوى عليه حنّ إليه ذلك الجذع حنين الثكلى، وأنّ أنين الجبلى، فارتفع بكاء الناس وحنينهم وأنينهم، وارتفع حنين الجذع وأنينه في حنين الناس وأنينهم ارتفاعاً بيّناً.

فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك نزل عن المنبر وأتى الجذع فاحتضنه ومسح عليه بيده وقال: اسكن، فما تجاوزك رسول الله ﷺ تهاوناً بك، ولا استخفافاً بحرمتك، ولكن ليتّم لعباد الله مصلحتهم، ولك جلالك وفضلك إذ كنت مستند محمّد رسول الله، فهذا حنينه وأنينه، وعاد رسول الله ﷺ

إلى منبره، ثم قال: معاشر المسلمين هذا الجذع يحنّ إلى رسول ربّ العالمين، ويحزن لبعده عنه، وفي عباد الله - الظالمين أنفسهم - من لا يبالي قرب من رسول الله أو بعد، ولولا أنّي ما احتضنت هذا الجذع، ومسحت يدي عليه ما هدأ حنينه [وأنيته] إلى يوم القيامة، وإنّ من عباد الله وإمائه لمن يحنّ إلى محمّد رسول الله وإلى عليّ وليّ الله كحنين هذا الجذع، وحسب المؤمن أن يكون قلبه على موالة محمّد وعليّ وآلهما الطيبين [الطاهرين] منطوياً...»^(١).

وبيان سيّد الأنبياء عليه السلام واضح في هذه الرواية وأن من لا يحنّ لرسول الله عليه السلام ظالم لنفسه!، وكذلك الحنين لأمر المؤمنين والأئمة من بعده عليه السلام، فحق الإنسان على نفسه أن يوجد في قلبه الحنين لسيّد الأنبياء وآله الطاهرين، وهذه العبادة القلبية العظيمة هي ركن مهم وأصل في العبادة لله سبحانه وتعالى، وهي من الفرائض المسلمّة والمتواترة عند الفريقين، وإلّا سيكون محروماً من فيوضات الرحمة الإلهية.

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٧، ص ٣٢٦.

من طرق باباً أو شك أن يفتح

لو قيل: إننا لا نستطيع الوصول إلى هذه الدرجة من اشتعال القلب بالعشق والحنين أو إلى الدرجة التي عبّر عنها الإمام الحسين عليه السلام إنه «يشتاق إلى أسلافه اشتياق يعقوب إلى يوسف»، أو هذا الحنين والأنين الذي تحدث عنه رسول الله صلى الله عليه وآله، فكيف يمكن أن يقال إن هذا الحب فريضة، وهو بهذه الدرجة من الصعوبة؟

وقد ورد في حديث الفضيل بن يسار، وهو أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، أنه سأل الإمام: «هل الحب من الإيمان؟»، فقال له عليه السلام: «وهل الإيمان إلا الحب؟!».

بل إن الله سبحانه وتعالى جعل اجر الرسالة هو حب محمد وآل محمد عليهم الصلاة والسلام: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ ^(١).

وكيف يصل المؤمن إلى هذا المقام بأن يكون قلبه متيماً بحب صاحب الزمان عليه السلام وهو يقرأ دعاء الندبة: «هَلْ مِنْ مُعِينٍ فَأُطِيلَ مَعَهُ الْعَوِيلَ وَالْبُكَاءَ؟ هَلْ مِنْ جَزُوعٍ فَأُسَاعِدَ جَزَعَهُ إِذَا خَلَا؟ هَلْ قَدَيْتَ عَيْنٌ فَسَاعَدَتْهَا عَيْنِي عَلَى الْقَدَى؟».

أو: «فَعَلَى الْأَطَائِبِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا
وَأَلَيْهِمَا فَلْيَبْكُوا، وَإِيَاهُمْ فَلْيَنْدُبِ النَّادِبُونَ، وَلِمِثْلِهِمْ فَلْتَدْرِفِ الدُّمُوعُ،
وَلْيَصْرُخِ الصَّارِحُونَ، وَيَضْجِعِ الضَّاجُونَ، وَيَعَجِّ الْعَاجُونَ»^(١)، وفي الحقيقة
أنه عند البعض مجرد لقلقة لسان لا تترك أثراً يُذكر من العشق والهيام؟!!

سر البكاء نجوى ووصال روحي، وهو بوابة لما هو أعظم من الحب
والحنين، فهل هذا المقام هو فعلاً خارج عن قدرتنا؟.

يجب أن نعرف أولاً: أن هناك الكثير من الواجبات المفروضة لا
تتحقق في الإنسان بين ليلة وضحاها، ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ
كَدْحًا فَلْيَلْقِيهِ﴾^(٢)، بل هي تحتاج إلى جهد ومثابرة، حتى يصل الإنسان إلى
درجة تحقيق ذلك الواجب وتلك الفريضة في نفسه، مثلاً الاجتهاد في
مسائل الدين صحيح أنه كفاي، لكن مَنْ يريد أن يصل إلى مقام الفقهارة
والاجتهاد عليه أن يبذل جهداً حتى يصل إلى هذا المقام.

وأمثلة أخرى من واقع الحياة أيضاً تحتاج إلى جهد لمن يريد أن
يتخصص بأيّ مجال من المجالات العلمية، فهي لا تأتي بسهولة بل
الدراسة لسنوات حتى يصل إلى ما يريد.

هكذا المسألة هنا، فمن طرق باباً أو شك أن يفتح.

ومن يريد أن يصل إلى مقام العشق والوله عليه أن يتذكر قوله تعالى:
﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(٣)، إذن التكليف ليس بالضرورة أن يكون

(١) مقطع من دعاء الندبة.

(٢) سورة الانشقاق، الآية ٦.

(٣) سورة النجم، الآية ٣٩.

دفعة واحدة، بل المطلوب هو التدرّج والحساب مع النفس والمراقبة لها كل يوم حتى يصل إلى الإنسان إلى مبتغاه، صحيح أننا مطالبون أن نصل بقلوبنا إلى درجة اشتياق يعقوب ليوسف: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَبِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(١)، ولكن هي ليست فريضة دفعية لأن الله سبحانه لا يكلف نفساً إلا وسعها.

يبقى على الإنسان أن يهيئ المقدمات الضرورية ويبادر إليها لتحصيل تلك الفريضة المقدّسة، لأنه بدون تلك المقدمات سيحاسب على التفريط، وعلى الظلم الذي ألحقه بنفسه، ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾^(٢).

(١) سورة يوسف، الآية ١١١.

(٢) سورة التوبة، الآية ٤٦.

الفصل الثامن

الدعاء والقراءة الصحيحة للمشروع المهدوي

- كيف نقرأ علامات الظهور
- منهج الافراط
- منهج التفريط
- القراءة الصحيحة
- من أراد استعد
- أنت سيد الموقف
- العلامة الأكبر
- ضريبة العجز والتقصير

كيف نقرأ علامات الظهور؟

هناك جدلية كبيرة مرتبطة بالعقيدة المهديّة والمعرفة بالإمام المهدي عليه السلام، وهذه الجدلية تتحول في المجتمع إلى مشكلة يعالجها دعاء الندبة بشكل واضح وصريح.

هذه الجدلية قسّمت المجتمع إلى فريقين بين الافراط والتفريط في قراءة علامات الظهور، وهي بنفسها من المحاور المرتبطة بالإمام المهدي عليه السلام، وفيها تركت الامة الجادة الوسطى التي خطها لنا تراث أهل البيت عليهم السلام.

ومما لا شك فيه أننا إذا استقمنا على الجادة نكون قد أدّينا المسؤولية العظيمة تجاه إمام زماننا صاحب العصر والزمان عليه السلام.

منهج الإفراط

هناك اتجاه يفرط في علائم الظهور بأن يرهن الأمور بالعلامات وبيالغ بالتوقيت، فيتحول الأمر إلى نظم زمني وحلقات زمنية متتابعة إلى أن تصل إلى نهايتها، وهذا التفسير باطل، «كذب الوقّاتون» فليست حقيقة علامات الظهور عبارة عن تسلسل زمني، [قد يكون لسان بعض الروايات أدّى إلى إغراء أصحاب هذا الاتجاه] ولكن المراد من مغزى علائم الظهور شيء آخر.

منهج التفريط

والبعض ذهب إلى التفريط بتلك العلامات، ولم يعبأ بها أصلاً، وهذا الاتجاه أيضاً خاطئ، لأنّه يعتبر أنه من اللازم على المؤمنين والجماعات الناشطة منهم بالخصوص أن لا تعير اهتماماً لها، وهذا الاتجاه التفريطي أكثر عجباً من الاتجاه الإفراطي، فالروايات المتواترة والمستفيضة تواترها إجمالاً عند الفريقين وليس فقط عند الإمامية، فهل صدرت هذه الروايات جزافاً من الشارع المقدس؟!

أين تكمن الخطورة؟

هناك مشكلة ثقافية كبيرة في مفهوم قراءة علائم الظهور، وهو التعامل مع هذه الروايات كأخبار المنجمين الذين يخبرون ببعض الأحداث المستقبلية، وهذه النظرة للأسف ابتليت بها الكثير من الكتابات حول علامات الظهور.

وظيفة الوحي الإلهي وفلسفته وغايته ليس التنجيم، حتى النبؤات الموجودة في القرآن الكريم يمكن ملاحظتها على أنها إعجاز إلهي في التنبؤ كي يثبت هذا المراد، وهو أن الأمر لله وليس للبشر.

يعني ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(١)، لا أن وظيفتنا تفسير الانتظار على البقاء متفرجين كأننا لسنا طرفاً في هذا المشروع!، هكذا يكون الأمر إذا فسرت علامات الظهور بهذه الطريقة أمّا توقيت وتسلسل زمني للأحداث ينتج قراءة خاطئة لعلائم الظهور أو التعامل مع الروايات كتنجيم، وهذا بالنتيجة يصل بنا إلى أنه ليس هناك مسؤوليات، ولا وظائف للمؤمنين.

(١) سورة محمد، الآية ٧.

القراءة الصحيحة

فلسفة الظهور وعلاماته مرتبطة بالصميم بالمسؤولية الملقاة على عاتقنا، وهي لأجل تحديد المسؤولية تجاه الأفراد والأجيال، لا من باب توقيت التسلسل الزمني، بل هي مرتبطة بأفعال وأحداث نحن نصنعها أو يصنعها الخصم، هذه قراءة أخرى لعلامات الظهور، وهي الجادة الوسطى.

الخطاب القرآني والذي يؤصل لقاعدة عامة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَشُرُوا اللَّهُ يَضْرِبُكُمْ وَيُنَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ﴾^(١)، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢)، هذه الخطابات القرآنية تؤكد أن النصر صحيح هو من عند الله، ولكنه ليس على نحو الجبر، بل هو أمر بين أمرين.

«إن تنصروا الله...»، لن يأتي على نحو العفوية، لأن سنة الله هي قاعدة لا تتخلف كل تغيير وانتقال سياسي أو حضاري، ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٣)، كل شيء مرهون بتلك القاعدة القرآنية.

«البداء» أصل اعتقادي عظيم في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، فعن

(١) سورة محمد، الآية ٧.

(٢) سورة الأنفال، الآية ١٠.

(٣) سورة الرعد، الآية ١١.

أحدهما عليه السلام: «ما عبد الله بمثل البداء»^(١)، وعن الصادق عليه السلام: «ما بعث الله نبياً قط إلا بتحريم الخمر وأن يقرّ له بالبداء»^(٢)، فلسفة البداء ليس كما يعتقد اليهود، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾^(٣)، بل المنطق القرآني هو هكذا: ﴿كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾^(٤).

يعني الله سبحانه وتعالى يعمل بالأسباب والمسببات، لا أننا مؤمنين، ولنا كرامة على الله سبحانه وتعالى فينزل علينا النصر بدون أن نعدّ له العدة!، كلا أبداً: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾^(٥).

فكيف يساوي الله سبحانه في المدد التكويني بين من يجتهد في تطوير مشروعه باستمرار، ويعمل الاحتياطات اللازمة لحفظه والدفع به نحو الانتصار، وبين من يجلس متفرجاً لا يمارس دوراً في المشروع الذي يؤمن به؟!.

فمن يريد التغيير والتعجيل بالظهور المقدّس لصاحب العصر والزمان عليه السلام عليه أن يعمل ويجد ويجتهد في سبيل ذلك المشروع الألهي، لأنه ليس بين الله وبين أحد من قرابة! من يريد الانتصار عليه توفير المقدمات المطلوبة لذلك.

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤، ص ١٣٢.

(٢) الصدوق، التوحيد، ص ٣٣٤.

(٣) سورة المائدة، الآية ٦٤.

(٤) سورة الإسراء، الآية ٢٠.

(٥) سورة النساء، الآية ٩٥.

إذن علامات الظهور ليست برنامج سلسلة زمنية، بل هي توصيات وتحذيرات ليرتبط كل فرد منا بمسؤوليته الشرعية والأخلاقية في تحقيق المشروع المهدوي.

الأهم هو العشق

القرآن الكريم عندما يتحدث عن يوسف عليه السلام ويشير إلى التعلق والوله به من قبل أبيه النبي يعقوب عليه السلام، ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُونَ تَذَكُّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١).

وما يتحدث عنه دعاء الندبة محوره الأصلي هو صاحب العصر والزمان عليه السلام، وهذه الآداب التي جرت من نبي من أنبياء الله وهو يعقوب تجاه يوسف عليه السلام، هذه سنة للمؤمنين بما فيها من آداب، من الحري بنا أن نقيمها مع المهدي من آل محمد صلى الله عليهم أجمعين.

الله سبحانه وتعالى كنى عن أهل البيت عليهم السلام في القرآن الكريم، لكي نستدل عليهم بما هو في غيرهم، وهم أيضاً أعظم من ذلك شأنًا.

(١) سورة يوسف، الآيتان ٨٥ - ٨٦.

من أراد استعداد!

من أراد شيئاً لا بد أن يعدّ له العدة، لأن الحدث لا يمكن أن يكون ابن ساعته، فنهج رسول الله وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام الإعداد والاستعداد لكل شيء خصوصاً الأحداث المهمة والمفصلية في رسالة السماء، ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ أَنْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾^(١).

فمن يبحث عن الأعذار في هكذا نشاط مخطيء، لأن المطلوب من المؤمن أن يكون شعلة من النشاط والحيوية والتكامل المستمر لكي يكون مستعداً باستمرار، لأن مسؤولية تحصيل الأغراض المذكورة في دعاء الندبة والتي لها بداية وليس لها نهاية يجب فيها التشمير عن ساعدي الجد لتحصيلها، ومن لطيف التعبيرات في الدعاء أن الصلاة أحد معانيها تأييد بالنصرة، يعني نطلب من الله سبحانه وتعالى أن يؤيده بالنصر: «وَصَلِّ عَلَيْهِ صَلَاةً لَا غَايَةَ لِعَدِّهَا وَلَا نِهَايَةَ لِمَدِّهَا وَلَا نَفَادَ لِأَمْدِهَا..»^(٢).

(١) سورة التوبة، الآية ٤٦.

(٢) مقطع من دعاء الندبة.

أنت سيد الموقف

هناك بعض الروايات يسأل فيها الراوي عن العلامات المحتومة، مثل السفيناني واليماني وغيرها من العلامات هل يبدو لله فيها؟ قال الإمام عليه السلام نعم^(١)، محتوم ومع ذلك قد يبدو لله فيه، فنحن لسنا مجبرون عليها، بل هي رهينة موقفنا وقوتنا واستعدادنا وتحملنا للمسؤولية، وهنا تبدو حقيقة علائم الظهور وعظمتها في التحذير والاستعداد.

وهذه المسألة ذكر مثلها في القرآن الكريم في قصة قوم النبي «يونس عليه السلام»، وكيف أن العذاب شارف عليهم، ثم رفعه الله سبحانه وتعالى.

إذن هذه العلامات ليس فيها جبر، بل أنت سيد الموقف في مسؤوليتك، لأنه دائماً هناك بدائل وخيارات.

(١) عن أبي هاشم داود بن القاسم الجعفري قال : كنا عند أبي جعفر محمد بن علي الرضا (عليهم السلام) فجرى ذكر السفيناني وما جاء في الرواية من ان أمره من المحتوم فقلت لأبي جعفر: هل يبدو الله في المحتوم؟ قال: نعم. فقلنا له: فنخاف ان يبدو الله في القائم. فقال: ان القائم من الميعاد والله لا يخلف الميعاد. (النعمانى، الغيبة، ص ٣١٤ - ٣١٥).

العلامة الكبرى للظهور الشريف

أمر مهم جداً يُذكر في الأدعية والزيارات الخاصة بالإمام المهدي عليه السلام، وهو هذا المقطع من دعاء العهد: «اللَّهُمَّ إِنَّ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ الْمَوْتُ الَّذِي جَعَلْتَهُ عَلَى عِبَادِكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا فَأَخْرِجْنِي مِنْ قَبْرِي، مُؤْتَرًّا كَفَنِي شَاهِرًا سَيْفِي، مُجَرِّدًا قَنَاتِي، مُلَبِّيًا دَعْوَةَ الدَّاعِي فِي الْحَاضِرِ وَالْبَادِي»^(١).

وقد رُوي عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «من دعا إلى الله أربعين صباحاً بهذا العهد كان من أنصار قائمنا، فإن مات قبله أخرجه الله تعالى من قبره وأعطاه بكل كلمة ألف حسنة ومحا عنه ألف سيئة».

حتى الأموات مُخاطبون بالمسؤولية فضلاً عن الأحياء، وهذا يدل على عظمة المسؤولية الملقاة على عاتقنا، والتي لا يُعفى منها حتى الأموات.

أمير المؤمنين عليه السلام لم يعطي لعلامات الظهور مثل السفيناني أو اليماني أو الحسنبي أو غيرها مثل ما أعطى لهذه العلامة من التركيز، وهي رجعة المؤمنين إلى الحياة الدنيا لنصرة الإمام المهدي عليه السلام، وهي تعني الكثير في بيان حجم المسؤولية الملقاة على عاتق المؤمنين حتى اشتهرت

(١) مقطع من دعاء العهد.

بين أطفال الكوفة فضلاً عن رجالها ونسائها «العجب كل العجب بين جمادى ورجب».

وهذا يعني أن أكبر علامة للظهور هي قيام المؤمنين بمسؤوليتهم في هذا المشروع، الأحياء أولاً ثم الأموات، يحييهم الله، فإذا قام المؤمنون بمسؤوليتهم يقع الظهور المقدّس.

أكبر علامة للظهور إذا نظرنا للموضوع من جهة أخرى، هي قدرة المؤمنين على تشكيل قوة تستطيع توفير الحماية لصاحب العصر والزمان عليه السلام.

كل الأئمة السابقين أجابوا على تساؤل بعض الناس في سبب عدم القيام! هو انهم لو وجدوا أنصاراً لقاموا بالأمر، يعني المسؤولية كلها بالنهاية ترجع إلى ساحة المؤمنين الموالين للأئمة عليهم السلام، فهذا الأمر وتلك الغاية مطلوبة في كل زمان، ولكنه لم تتوفر الظروف المناسبة لبقية الأئمة عليهم السلام والتقصير دائماً بسببنا.

ضريبة العجز والتقصير

العجز والقصور والإخفاق لا يريدُه الشارع، بل يريد من المؤمنين أن يعدّوا العدة، أي تقصير من قبلنا في المسؤولية فهذا يعني عدم ظهور صاحب العصر والزمان عليه السلام، فمتى ما وفرنا القوة من الناحية الاقتصادية والعسكرية والأمنية ولم يحصل الظهور، فهذا يعني عدم كفاية القوة المتوفرة لدينا، وعلينا السعي لتقويتها وزيادة فيها، وهذه الفقرة في دعاء الندبة تشير إلى ذلك: «إلى متى أحارُّ فيكَ يا مولاي وإلى متى، وأيَّ خطاب أصفُ فيكَ وأيَّ نجوى، عزيزٌ عليَّ أن أجابَ دونكَ وأناغي، عزيزٌ عليَّ أن أبكيك ويخذلك الوري»^(١)، هي لمن يقرأ دعاء الندبة ولديه إصرار في محاولات تغيير الأوضاع للمولى وإنهاء حالة اللا أمان، والأنقطاع الظاهري عنه عليه السلام.

فهو يستنكر هذه الأجواء على نفسه وعلى الآخرين، ويعاتب الجميع على سبب الاستمرار في هذا الحال: «إلى متى أحار فيك يا مولاي...» وهو منهج استراتيجي عظيم في تحمّل المسؤولية تجاه أهل البيت عليهم السلام: «عزيز عليَّ أن أبكيك ويخذلك الوري..» يعني سبب عدم الظهور هو خذلان الناس، لا أنه لم تتوفر العلامات الأخرى كالصيحة والسفياني وما شابه!.

(١) مقطع من دعاء الندبة.

بث الحسرة ولوم النفس والمجتمع على خذلان صاحب العصر
والزمان عليه السلام، هي تربية للنفس من أجل عدم الأتكاء على أعذار أخرى، بل
إن السبب الرئيسي هو هذا (خذلان الورى).

إذن نصرة صاحب العصر والزمان عليه السلام هي ناموس الظهور والفرج،
وهي التمهيد لرجعة المؤمنين للقيام بالمسؤولية.

وهذه المحاور هي لرسم استراتيجية العلاقة مع مشروع صاحب
العصر والزمان عليه السلام، «عَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ تُحِيطَ بِكَ دُونِي الْبُلُوَى وَلَا يَنَالُكَ مِنِّي
ضَجِيحٌ وَلَا شَكْوَى»^(١).

بلوى عدم الأمن والأمان هي التي تحيط بصاحب العصر والزمان عليه السلام،
لأنه يحمل المشروع الإلهي المنقذ للبشرية، وهو مُطارِد من قبل الظالمين.

(١) مقطع من دعاء الندبة.

الفصل التاسع

مسؤوليات ومهام المؤمن قبل الظهور

- مسألة قديمة بلغة عصرية
- دور المؤمنين في التمهيد للظهور المقدس
- «يملأها قسطاً وعدلاً» تحملنا المسؤولية
- تحمّل المسؤولية والتدرّج في التمهيد
- التمهيد الروحي أجل وأعظم
- مسؤوليتنا في إقامة الحكومة قبل الظهور

مسألة قديمة بلغة عصرية

التزمت مدرسة الإمامية في «الحُسن والقبح» انهما عقليان ذاتيان، وتبعهم في ذلك المعتزلة في قبال الاشاعة الذين يقولون انهما شرعيان، وهذه المسألة تلقي بظلالها في تشخيص منهاج الحق في الغيبة الكبرى وفي مشروع الظهور.

والآن على طاولة الحوار البشري يُطرح للنقاش التساؤل التالي: هل الصحيح أو الحسن هو ما توافق عليه البشر في المواثيق الدولية وتصالحوها عليه فيما بينهم؟ أم انها واقعية تكوينية أصاب البشر ام اخطأ فيها؟

في كل «البيئات» الحُسن والكمال تكويني ذاتي، ونفس هذا الموضوع القديم يُثار الآن بلغة عصرية، والبصير من يبصر الموازنات بين الأبحاث والإثارات العصرية المتداولة الآن، لأنّه يجب موازاة هذه البحوث مع البحوث الأصلية والأصيلة في مبدأ الدين، وهذا أمر ليس بسهل.

إن الحُسن ذاتي يعني أن صفة المعصوم عليه السلام لا تأخذه في الله لومة لائم، فالمعصوم لا يدور في مقام القبح والحسن على لوم البشر، ولا تعنيه ادانة منظمات الأمم المتحدة، أو مؤسسات الإغاثة أو محكمة لاهاي، لأنه يرى أن خالق هذا الكون وخالق النظام الاجتماعي، والحضاري للبشر يرى هذا الطريق نحو الكمال.

أصلاً غيبة صاحب العصر والزمان عليه السلام وأنه ليس في عنقه بيعة لأحد، أي ليس في عنقه بيعة لأيِّ عُرْفٍ أو ميثاق دولي، لأنه في عنقه بيعة لدين الله ولهذه المبادئ.

القانون الآن هو تكريس للطبقية في المجتمعات، فثروات العالم الآن بيد اشخاص لا يتجاوز عددهم أصابع اليد، وفي كل دول العالم أكثر أموال الأرض دولة بين الأغنياء، فلا الأمم المتحدة استطاعت إيجاد العدالة وإلغاء هذا التفاوت الطبقي، ولا الشيوعية قضت عليه، ولا الاشتراكية، ولا نظام السوق، ولا البورصة، ولا مؤسسات حقوق الإنسان كلهم صفقة واحدة على أن تكون دولة بين الأغنياء منهم، هذه موثيق البشر ومنظمة الأمم المتحدة والتي أدت إلى ذلك التفاوت وتلك النتائج، فكيف يكون هذا المصلح الإلهي في عنقه بيعة لهذه التوافقات وهذه الموثيق.

جيل بشري ينقرض ويأتي جيل آخر، وينقرض الجيل الثاني بأعرافه وموآثيقه وعاداته، وتأتي عادات وأعراف أخرى، وهو سلام الله عليه لا يتأثر بكل تلك الأجيال، ولا بعقولهم القاصرة، ولا بتشخيصاتهم الخاطئة وتوافقاتهم الباطلة، فأبي روح هذه؟ وقد روي عن الإمام الكاظم عليه السلام انه قال «علامة قوة العقل الصبر على الوحدة»^(١).

وهذا ما يشير إليه دعاء الندبة، حيث أن هذه الشخصية الفذة صابرة

(١) من وصيته عليه السلام لهشام بن الحكم : يا هشام !.. الصبر على الوحدة علامة قوة العقل، فمن عقل عن الله تبارك وتعالى اعتزل أهل الدنيا والراغبين فيها، ورجب فيما عند ربّه، وكان الله آسسه في الوحشة وصاحبه في الوحدة، وغناه في العيلة، ومعزّه في غير عشيرة. (الحراني، تحف العقول، ص ١٥٣).

على وحدة الطريق، أتى البشر إليها أم أبطأوا «لَيْتَ شِعْرِي آيْنَ اسْتَقَرَّتْ بِكَ النَّوَى؟ بَلْ أَيُّ أَرْضٍ تُقَلِّكُ أَوْ تُرَى؟ أِبْرَضُوا أَوْ غَيْرَهَا أَمْ ذِي طُوًى؟ عَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ أَرَى الْخَلْقَ وَلَا تُرَى، وَلَا أَسْمَعُ لَكَ حَسِيساً وَلَا نَجْوَى، عَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ تُحِيطَ بِكَ دُونِي الْبَلْوَى وَلَا يَنَالِكَ مِنِّي ضَجِيجٌ وَلَا شَكْوَى، بِنَفْسِي أَنْتَ مِنْ مُغَيَّبٍ لَمْ يَخْلُ مِنَّا، بِنَفْسِي أَنْتَ مِنْ نَارِحٍ مَا نَزَحَ عَنَّا»

لم يأويه أحد لأنه لم يهادن، والإيواء هنا علاقة وارتباط، وفي بعض المرويات يُعَبَّرُ عنه ﷺ «بالشريد الطريد والوحيد الذي لا يناغي»^(١).

فالصبر على الوحدة لا تجعله يحسن ما حسنته الأجيال، ولا يكثرث للقول أن الحسن والعرف الصالح ما تصالح عليه البشر، لذلك وأجيال من البشر تذهب وهذا الرجل لا يتأثر، لأنه لا يأنس إلا بطريق الحق ويستوحش طريق الباطل، هذا نفس البيان «الحسن ما حسنه تكويناً العقل الكل، لا الحسن ما حسنه البشر»، وهو نفسه «لا تأخذه لومة لائم» ولكنه بعبارة مختلفة، ومعناه انه ثابت على الدين الحقيقي الذي لا يُصَابُ بالعقول ولا بتوافقات البشر ويمضي قدماً.

لذا يجب علينا نحن المؤمنون أن نتشبع بحقيقة الدين الواقعية، ولا نتزلزل عنها بسبب ضغوطات البشر واستهزائهم، وبسبب التوافقات

(١) جاء عن الأصعب بن نباتة انه قال سمعت أمير المؤمنين ﷺ يقول: «صاحب هذا الأمر الشريد الطريد الفريد الوحيد» (الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج ١، ص ٣٠٣، ب ٢٦، ح ١٣).

وعن عيسى الخشاب قال: قلت للحسين بن علي ﷺ: أنت صاحب هذا الأمر؟ قال: «لا ولكن صاحب الأمر الطريد الشريد الموتور بأبيه المكنى بعمه يضع سيفه على عاتقه ثمانية أشهر». (الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج ١، ص ٣١٨، ب ٣٠، ح ٥).

المضادة من الآخرين، لا بدّ من الثبات على أنّه ليس الحسن ما حسّنه الناس ولا القبح ما قبحه الناس، بل الحسن ذاتي بغضّ النظر عن أصابه أو أخطأه.

وإذا كان الحال كذلك، فلا بدّ أن نبين أن هذه البنود التي بها سعادة البشر، الفارق بينها وبين المواثيق الحالية عند الناس، أن هذه المواثيق تكرّس الفساد وسفك الدماء والظلم والجور في الأرض.

دور المؤمنين في التمهيد للظهور المقدس

هذا المحور ضمن سياق انه ﷺ يخرج وليس في عنقه بيعة لأحد أو التزام أو تعهد على أي ميثاق سوى المواثيق الإلهية، وهو أحد معاني غيبته، وهو أيضاً أحد صعوبات الغيبة والظهور، لأن توثيق الجانب الغيبي دائماً يحتاج إلى مؤونة الشهادة.

وأكبر مسؤولية تقع على عاتق المؤمنين به والعارفين له هو تعريف البشرية على مشروعه ﷺ، وتوضيح الشعارات المهدوية للعقل البشري.

محاربة قوى الظلام ومافيات المال في العالم للمشروع المهدوي واضحة تماماً وهناك وثائق لممارسات مشبوهة والتي تريد أن تعطي طابعاً معيناً عن المشروع المهدوي وانه غير واضح المبادئ والشعائر والأهداف، هذه الحرب المعلنة من خلال دعمها للفرق الضالة الذين يرفعون باسم الإمام المهدي ﷺ شعارات مناقضة لمبادئ المشروع المهدوي ولمبادئ ضرورة الدين.

لذا من الأمور ذات المسؤولية العظيمة في تعبيد الطريق لرفع ستار الخفاء عن هذا المشروع العظيم المتجسد فيه هو صلوات الله عليه، دوراً ونشاطاً ومسؤولية، هو نشر هذه المبادئ الناصعة، وتعريف هذه المبادئ لتعرف الأمة ما هو العرف الصالح، فالعرف أشد تغليظاً في الالتزام من

الرأي في الانتخابات، لأن الانتخابات سنوات قليلة وتنتهي، والعُرف اشدّ من البيعة وأغلظ وأحكم لأنه عقد اجتماعي وهو من أعظم الالتزامات، وهذا العهد لا يحتاج حتى إلى التلفظ وليس هو فكرة تفصيلية حتى تأتي به نفسه، بل العقل الباطن يتداوله ويتبناه ويجري عليه ارتكازاً.

فالعُرف إذاً كما يقولون قانون متطوّر ومفعّل أعم من تفعيل القانون في الوزارات، ويعتبر العُرف حكومة فاعلة أكثر من الحكومات الفعلية الموجودة، فإذا قمنا ببناء أعراف مبنية على ثقافة المشروع المهدي بدون تحريف في المعاني نكون قد بنينا حكومة الظهور، سيما أن بناء الحكومة على مراحل.

كلمة «يملأها قسطاً وعدلاً» تحمّلنا المسؤولية

من الواضح أن الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف لا يمضي ولا يشرعن أي نظام أو عرف بشري إلا بمقدار ما فيه من شرع الله وسنة رسوله ﷺ.

وقد فرض عليه ﷺ أن لا يهادن ولا يسالم حتى اقامته الدولة الإلهية في العلن، وان لا يعمل بالذرائع ولا بالعنوان الثانوي.

كثير من روايات الفريقين أكدت على أنه يخرج بعد أن ملئت ظلماً وجوراً ليملاًها قسطاً وعدلاً. وحسب هذا البيان الوحياني الموجود في روايات الفريقين يظهر أن الفارق بين الأعراف والمواثيق البشرية وما سينجزه وبينه صاحب الدولة الإلهية ﷺ بينهما فارق أكبر مما يتصور، فلا تصح بينهما مقارنة.

هذا التأكيد على هذه الخاصية تحمّلنا نحن المسؤولية في الغيبة الكبرى، وهي أن نكون حذرين - ونحن نسعى لدولة الأمل المنشود للبشرية - أن ندوب في أعراف ليس بالضرورة ان تكون سلبية، فقط بل قد تكون مغلفة بعناوين حسنة، بل الحذر الأكبر ان تكون هناك اعراف حسنة فنقتنع بها ونقف عند ذلك الحد، ونعتقد اننا وصلنا إلى نهاية المسير وكل ما عداه سيكون خاطئاً.

مثلاً لدينا في باب «التوحيد» في الصفات، عندما تصف الله سبحانه وتعالى بصفات حسنة مؤقتة وحيانية فضلاً عن غير الوحيانية، وكما هو معروف في بحث التوحيد التسمية والأسماء توقيفية، فتسمية الله بالأسماء يعني توصيفه، ومع ذلك لا يظن أحداً أنه قادر على إحصاء أسماء الله جلّ شأنه.

يعني هناك وظيفة معرفية، وهي أن لا يتوهم الإنسان أنه يحيط بكل أسماء الله، وقد ورد بلسان الوحي أن الله عز وجل اسم مستأثر غيب في ذاته لم يظهره لأحد، وهذا الاسم هو مهيمن على كل الأسماء.

ومن الصفات العظيمة لأهل البيت عليهم السلام - رغم أنهم يثنون على الله بثناء لم يثن به ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ويعجز الكل في الوصول إلى قول ما قالوا إلا أن يقتبس منهم - رغم ذلك هم أنفسهم يقولون: «سبحانك ما عبدناك حق عبادتك» ويظهرون عجزهم.

وفي توحيد الله حتى الكمال الذي نصف الله سبحانه به فإنه لا يجوز لنا معرفياً أن نحده بهذا الكمال الذي وصفناه به.

فإذا استوعبنا هذا المثل يكون الفارق هكذا بين أعراف صاحب العصر والزمان في دولته مع الأعراف البشرية حتى لو افترضنا أنها صالحة.

فإذا وقفنا عند حدود تلك الأعراف الصالحة - مع فرض أنها صالحة - لن تصل البشرية إلى سعادتها الحقيقية إلا بالظهور المقدس لصاحب الزمان أرواحنا لتراب مقدمه الفداء.

تحمل المسؤولية والتدرج في التمهيد

يجب التعرف على المنهج المجموعي الذي ترسمه الأدعية والزيارات الخاصة لصاحب العصر والزمان عليه السلام لسيرته ومشروعه وهذا لا يتعلق به فقط، بل هو منهج يجب على المؤمنين اقامته حتى في زمن الغيبة الكبرى.

هناك معادلات قانونية أو معرفية في دعاء الندبة وبقية الأدعية والزيارات، وهذه القواعد المذكورة هي تعليم تربوي في الفقه العقائدي والسياسي والاجتماعي والأخلاقي، وهي قواعد عامة يراد منها الإنجاز ولكن بشكل تدريجي.

وهناك الكثير من المحققين من أعلام الإمامية يفسرون الظهور بانه تدرج البشرية في الالتزام بمقومات دولة الظهور حينئذ ينبثق نور الظهور، لا أن دولة الظهور هي شروع من الصفر.

طبعاً ما بعد الظهور ستتحقق إنجازات عظيمة، ولكن دولة الظهور هو كون البشرية ترتقي في تكاملها وتستعد إلى أن تأتي ساعة الظهور.

ملاحم المستقبل التي ينبئ عنها سيد الأنبياء عليه السلام، ومن بعده أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام هي من باب تعيين وظيفة ومسؤولية المؤمنين في

زمن الغيبة، شبيه القائد العسكري الذي يبثّ العيون لرصد العدو لتأتيه أخبارهم ليرسم من خلالها خارطة عمل واستعداد وقائي.

هكذا هي الملاحم، فليس المسار في الغيبة الكبرى ان نكون على ملعب فيه متسابقين ولسنا معنيين به، بل الظهور عبارة عن مسؤوليات ملقاة على عاتق جميع المؤمنين صغيرهم وكبيرهم ليسهموا في بناء الدولة المهديوية والتمهيد لها، فلكل مؤمن دوره واسهاماته في دولة الظهور^(١).

وهذا الدور لا يسقط عن أي فرد، وهذه المسؤولية لا تتوقف وهي لا تعتمد على أحد أفراد بل هي مسؤولية جماعية^(٢) وطبيعة حديث الرسول صلى الله عليه وآله واضحة: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

ومن أعظم المدارس في التاريخ في تحمّل المسؤولية وفي حضارة النهضة والإصلاح سطرّها «مسلم بن عقيل» تحت راية سيد الشهداء عليه السلام، العظمة في مدرسة بن عقيل القيمة والأخلاقية أن الكل تخاذل وهو بقي حيويًا ونشطًا وفعّالًا كأنه وهو وحده جيش ليس عنده تردد أو تهاون، وهذه هي الروح الحيوية والمثابرة في القيام بالمسؤولية مع المعاناة

(١) عن بشير النبال: قلت لأبي جعفر عليه السلام إنهم يقولون: إن المهدي لو قام لاستقامت له الأمور عفواً، ولا يهرق محجمة دم، فقال «كلا والذي نفسي بيده لو استقامت لأحد عفواً لاستقامت لرسول الله (صلى الله عليه وآله) حين أدميت رباعيته، وشح في وجهه، كلا والذي نفسي بيده حتى نمسح نحن وأنتم العرق والعلق، ثم مسح جبهته» (الشيخ النعماني، الغيبة، ص ٢٩٤).

(٢) ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه توجه إلى أصحابه بعد حجة الوداع في الجحفة فقال لهم: «إنه قد نبأني اللطيف الخبير أنني ميت وأنكم ميتون، وكأنني قد دعيت فأجبت وأني مسؤول عما أرسلت به إليكم، وعما خلفت فيكم من كتاب الله وحجته وأنكم مسؤولون، فما أنتم قائلون لربكم؟» (الشيخ الصدوق، الخصال، ص ١٦٧).

والجراح، وهو في المعتقل لم يفقد التخطيط والتدبير، وهذا يدل على روح المسؤولية ويقظتها ونشاطها في مسلم بن عقيل.

إذا طبيعة علائم الظهور المنطقية والعقلية أنها درجات تقترب فيها للإعداد للظهور، فالسماء ليست عاجزة، لكن إرادة الله اقتضت ان لا يجبر البشر ولا يُفوّض، بل هو أمر بين أمرين، وعلى كل فرد ان يقوم بدوره في التمهيد للظهور.

التمهيد الروحي أجل وأعظم

كل هذا الازدهار المادي لدى البشر لا يُقارن بما سيكشفه الإمام المهدي عليه السلام، فيكون الانجاز العلمي والروحي في دولة الظهور يملأها قسطاً وعدلاً أعلى، كماً وكيفاً، عن العدل الذي يقام في بُعد المادي بكثير.

وهذا يدل على حجم مسؤولية المؤمن في زمن الغيبة والتدرّج في بناء تلك الدولة، وأحد الأمور العظيمة في بنائها هو العلم والتفقه في اسرار الدين وموازينه، لا الجهل بها والصدّ عنها. وطبعاً هذا بموازين حقيقة الغيبة والظهور.

فهل الغيبة هي خفاء بدن الإمام أم نوره؟ يعني الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله كانوا يرون بدنه ونوره! وهل الغيبة هي لأهل زماننا فقط؟ الحقيقة ان المعصومين عليهم السلام كانوا في غيبة عن أهل البشر لأنهم يشاهدون ابدانهم الشريفة فقط.

لذلك كل المعصومين كانوا في ظهور بدني، وحقائقهم النورية ومناصبهم الروحية التي جعلها الله لهم غير معروفة عند أهل زمانهم، لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتأوه على اخوانه الذين سيؤمنون به من بعده ^(١)،

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم: «يا ليتني قد لقيت إخواني!.. فقال له أبو بكر وعمر: أو =

فالذين معه هم أصحابه، لأنهم لم يتأخوا مع الروح والنور، وهذا يدل على ان نوره كان غائباً عن أهل زمانه لقصور فيهم.

ولهذا الكثير من الأعلام يقولون إن التشرف الروحي والنوري مع صاحب الزمان عليه السلام بالمعرفة أعظم من تشرف البدن، وفي عالم العقل والنور ليس هناك حجب إذا تَلَطَّف الإنسان وتَنَوَّر كحجب البدن والجغرافيا.

إذن بنيان دولة الظهور النوري والعلمي وبنائها في هداية الروح والمعنى، أعظم من البنيان المادي، فاین هذا من ذاك؟! ولهذا تقع علينا مسؤولية عظيمة وهي نشر النور في عقول البشر وفي أرواحهم.

تعريف المشروع المهدوي تفتح القلوب عليه، وهو أعظم فتح يمكن ان يسهل أمام هذا المشروع العظيم فتح البلدان جميعاً.

ولهذا عندما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «كونوا دعاة لنا بغير الستتكم»^(١)، لأنه إذا تلاً لأننا في التقوى والنور سنكون قادرين على نشر ذلك النور، إذا تطهرنا وتعلّمنا أكثر صرنا نماذج ويؤر لنشر النور بين البشر بطريقة أعظم من اللسان المادي.

لسنا إخوانك آمننا بك وهاجرنا معك؟.. قال: قد آمتتم وهاجرتم، ويا ليتني قد لقيت إخواني، فأعادا القول، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله أنتم أصحابي ولكن إخواني الذين يأتون من بعدكم، يؤمنون بي ويحبوني وينصروني ويصدقوني، وما رأوني، فيا ليتني قد لقيت إخواني» (مجالس المفيد، ص ١٣٢).

(١) ورد عن الإمام الصادق عليه السلام احاديث كثيرة في هذا المضمون منها: «كُونُوا دُعَاةً لِلنَّاسِ بِغَيْرِ أَلْسِنَتِكُمْ لِيَرَوْا مِنْكُمْ الْوَرَعَ وَالْإِجْتِهَادَ وَالصَّلَاةَ وَالْخَيْرَ فَإِنَّ ذَلِكَ دَاعِيَةٌ» (الكليبي، الكافي، ج ٢، ص ٧٨).

وأهل البيت عليهم السلام دائماً قواعدهم وبياناتهم ونظمهم على هذا
المستوى العالي مثل ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (١)
فتقوى المتقي تأثيرها أعظم في الآخرين.

(١) سورة المائدة، الآية ٣٢.

مسؤوليتنا في إقامة الحكومة قبل الظهور

بات واضحاً في العلوم السياسية والإنسانية والاجتماعية أن السلطة اقسام وأنواع وليست سلطة واحدة، أحداها هي سلطة العرف وبناء الأعراف الصالحة.

سيما وأن البشرية الان تهتف بهذا الشعار، ونحن الآن نعيش حضارة ثورة المعلومات، والعُرف الصالح كي يقام فهو بأمس الحاجة إلى هذه الثورة المعلوماتية، وإلى الآن قوى الظلام من الدول العظمى بطريقة وأخرى يحاربون الشيعة في ذلك لأن العلم له دور عظيم.

والإمام المهدي عليه السلام وهو يعيش في حالة الغيبة، ومع ذلك فهو ليس من قبيل منظمات دول السرية الذين يستعملون المنهج المافيووي لأجبار الناس لما يريدون، هذا الشخص الذي اصطفاه الله طيلة اثني عشر قرن هو ذو نفسٍ طويل، فهو يلاحظ البشرية كطفل يربيه شيئاً فشيئاً على نهج جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله.

هذا الأسلوب يتعامل مع البشرية بلغة إنسانية وينمي فيهم النزعة الإنسانية للتكامل.

اذن طول الغيبة هو تدرّج في البناء إلى ان تحين ساعة الظهور، وربما

جملة من الناس يظنون ان هذه الاناة عند صاحب العصر والزمان تفوت الفرص، أو تتأخر عن تلبية الضرورات، ولكن الحقيقة انه لا يريد العلاج المؤقت، فعلاج الطوارئ ليس علاجاً جذرياً، هو يريد ان يبني أساساً طبيعياً وهذا يحتاج طول نفس، كيف ان الله سبحانه وتعالى لا يستفزه عصيان العصاة ولا تغريه طاعة المطيعين، لأن هناك مشروع كامل وخارطة واضحة، وهكذا مشروع يأخذ طبيعته وإدارة المشروع اولاً وبالذات بناء «الأعراف».

الفصل العاشر

النظام الأمني في المشروع المهدوي

- نظام أمني صارم وسريّة تامة
- التقية دين ونظام
- السرية سبب من أسباب القوة
- الغيبة إحتفاظ بعنصر المبادرة
- المسؤولية بين الكتمان والنشر

نظام أمني صارم وسريّة تامة

عنصر الخفاء والسريّة في المشروع المهدي هو المحور الأهم في هذا المشروع، وان كان الغيبة والظهور لها معاني عديدة، لكن أهم وأبرز ما في الغيبة مقابل الظهور والظهور في مقابل الغيبة هو عنصر الخفاء.

إذن السريّة أو النظام الأمني في نهضة صاحب العصر والزمان عليه السلام هو ركن مهم ورئيسي.

بهذا اللحاظ فإن هذه النهضة ليست مستقبلية فقط كما يتوهم ذلك الكثير، بل إن نهضته ودولته وإمامته ومسيرته انطلقت منذ استشهاد أبيه الحسن العسكري عليه السلام، غاية الأمر أن هذه النهضة والمسيره لأصلاح العالم هي ذات طابع خفي، والنظام الأمني فيها هو الأساس.

يعني نوع من ترقية وتنمية الجانب الأمني بشكل لا تهاون فيه ولا تراخي، من اليوم الأول فَعَلَّ هذا النظام بشكل لم يشهده أي نظام أمني آخر إلا عند سيد الأنبياء والأئمة من بعده صلوات الله عليهم، واستخدموا معه هذا الطابع السري والأمني حتى وهو جنين في بطن إمه الطاهرة السيدة نرجس عليها السلام.

هذا النظام هو سُنّة عند كل الأئمة عليهم السلام، لكن مع صاحب العصر والزمان أكبر وأوضح في كل الجهات.

في سورة «الكهف» والتي هي كهف الأسرار بالنسبة للمشروع الإلهي، ذُكر لقاء النبي موسى للخضر عليه السلام وهو لقاء عجيب في دروسه وعبره، الخضر عليه السلام هو رجل السرية وهو رمز لها في المشروع الإلهي، ويتضح أن هذا الدور الخطير هو لشدة محافظته على السرية بشكل صارم ودقيق، فقد أعطى النبي موسى عليه السلام شفرتين أمينتين لكي يعرف ذلك الرجل السري في الدولة الإلهية ويلتقي فيه.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَإِنَّا غَدَاءٌ لِّقَوْمٍ إِذٍ نَسِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَسِيًا * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِينَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّ عَلَيْنَا آثَارُهُمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءِتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ (١).

والنبي موسى عليه السلام هو أيضاً كان في حالة غيبة حسب النصوص القرآنية، مع ذلك طبقة الخفاء التي يمارسها الخضر أعلى وأشد من الخفاء الذي يمارسه النبي موسى عليه السلام.

وهو كان يعيش في قصر فرعون، ولو كان بني إسرائيل يعلمون ان موسى عليه السلام هو المخلص، وأنه من ولد بني إسرائيل فإن الخبر سيفشى ويصل إلى فرعون وسيكون معرضاً لخطر الموت، فولاية موسى عليه السلام كانت في خفاء، وكذلك ترعرعه في بيت فرعون، وحسب روايات أهل البيت عليهم السلام أن ام موسى والقابلة التي أولدتها توفيتا فخفي أمره حتى على

بني إسرائيل ولا أحد يعرف انه منهم، وترعرع في أحضان الطاغية فرعون، فكل شيء كان في سرية وخفاء وهو مصطفى ويعلم بدوره، لكنه كان في خفاء منذ ولادته إلى أن بلغ أشده، ثم دخل المدينة كما في سورة «القصص» ووجد رجلين يقتتلان، وعندما تدخل لنصرة الإسرائيلي الذي هو من شيعته إنكشف بعض أمره، لذلك زاد من درجة الخفاء بأن ذهب إلى أرض «مدين».

هذه المشاهد في القرآن ليست للسرد التاريخي، بل يريد سبحانه وتعالى أن يبين فيها دور الأنبياء والأوصياء ورجال الدولة الإلهية، كيف هو وضعهم في النظام الأمني والتعامل السري.

خفاء مستمر بل ويزيد في درجته إلى أن أتت ساعة الظهور للنبي موسى ﷺ ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾^(١).

التقية دين ونظام

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «التقية ديني ودين آبائي»^(١). وليست التقية آية أو آيتين في القرآن الكريم بل هي نظام أمني، والنظام الأمني مشحون في كل صور القرآن، وقد روي عن الإمام الرضا عليه السلام نقل كلام النبي موسى عليه السلام في تفسير هذه الآية: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٢) قال عليه السلام: «يعني استرني من أعدائك لئلا يظفروا بي فيقتلونني» بل أكثر من هذا أعطاه برنامج أمني لكي يستره بأن أرسله إلى أرض «مدين»، وهذا يُسمى في الحرب الأمنية تصعيد درجة الخفاء لكي لا تخترق من قبل الطرف المقابل.

هذا النظام القرآني في السنن الإلهية يجب ان نتعرف عليه، وهو كما يُعترف به الآن في علوم الدولة العصرية والعلوم الاستراتيجية من أعظم واعقد واصعب علوم بناء الدولة.

والإمامة الإلهية اعقد واصعب بكثير، ولا يمكن فهمها ومعرفتها بسهولة من خلال قراءة كتاب أو كتابين، وبملاحظة الجانب الأمني فيها،

(١) الكليني، الكافي، ج ٢، ص ١٧٤، ح ١٢، باب التقية.

(٢) سورة القصص، الآية ١٦.

لذلك فإن الإمام الصادق عليه السلام وبلغه هادئة وخفية يشير إلى خطورة معرفة علوم الامن والنظام الأمني، وهذا من عجائب البيان عند أئمة أهل البيت عليهم السلام عندما يعبرون هكذا: «التقية ديني ودين آبائي» لأن اصل قيام الدين باستعمال الخفاء، والخفاء هو لأجل تقوية النشاط.

وفي دول العالم الآن قوة الأسلحة المالية والاقتصادية والعسكرية والعلمية يُستخدم فيها السرية، لأن العدو سوف يستهدف هذا المُنجز ويحاول تدميره واختراقه، وأعظم شيء في حفظ القوة وتناميها هو اخفائها سواء كانت مكانية أو زمانية.

يجب الاطلاع على هذه العلوم لكي نستطيع قراءة «فضائل أهل البيت عليهم السلام» في الآيات والروايات، ونعلم ماهي كفاءتهم العظيمة والعلاقة في هذا المضممار والتي هي عرشية وفوق البشر.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «التقية حصن حصين»^(١)، هذه التربية العالية والعظيمة أين نحن منها؟ أين نحن من سُنن الأئمة عليهم السلام؟

يُسأل الإمام الصادق عليه السلام: قبيل الظهور ترتفع التقية؟ فيقول: «بل

(١) وصفت التقية في جملة من أحاديث أهل البيت عليهم السلام بأنها ترس المؤمن، وحرزه، وجنته، وإنها حصنه الحصين ونحو هذه العبارات الكاشفة عن أهمية التقية. فقد روى عبدالله بن أبي يعفور، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «التقية ترس المؤمن، والتقية حرز المؤمن»، وعنه عليه السلام قال: «كان أبي عليه السلام يقول: وأي شيء أقر لعيني من التقية؟ إن التقية جنة المؤمن»، وكذلك ورد عنه عليه السلام انه قال للمفضل: «إذا عملت بالتقية لم يقدروا في ذلك على حيلة، وهو الحصن الحصين وصار بينك وبين أعداء الله سداً لا يستطيعون له نقباً» (أصول الكافي، ج ٢، ص ٢٢١، ح ٢٣، باب التقية)، (أصول الكافي، ج ٢، ص ٢٢٠، ح ١٤، باب التقية)، (الوسائل، ج ١٦، ص ٢١٣، ح ٢١٣٨٩، باب ٢٤، من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

تشتد^(١)، فالتقيّة لا تعنى الجمود لأنك من المفروض تخفي القوة والضعف كذلك، وتشتدّ التقيّة ليس بمعنى انك لا تراول نور الهداية، بل هذا الجانب مستمر أيضاً على أكبر مساحة ممكنة.

هناك قسمان للوظيفة الدينية، قسم في نشر نور الهداية بين الناس بالتّي هي احسن، وبدون استفزاز واثارة العداوة مع الطرف الآخر بالسباب والشتم ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾^(٢).

أما على صعيد التطبيق يعني القوة التي تملكها فهذه يجب فيها الحفاظ على الجانب السري دائماً.

وقد يقال أن فلسفة الردع هي إظهار للقوة وكشف لها؟ وهذا صحيح، ولكن في الردع يتم الكشف عن بعض القوة، لا كلها، وهذه تسمى سياسة توازن الردع، وهذا فصل من فصول علم الامن حسب ما موجود في الثقافة الحديثة، فلا يمكن كشف كل القوة لأنك سوف تكون مستهدف حينها من قبل عدوك، بل بمقدار ما تحتاجه ويوفر لك الغرض.

فقوة القوة في الخفاء، وإلا لن تحافظ عليها، فلماذا نترك هذه المسؤوليات التي نحن مكلفون بها، فهذه المسؤوليات هي تطبيق للحديث الوارد عن أهل بيت العصمة والطهارة: «التقيّة ديني ودين آبائي».

(١) ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام انه قال : لا دين لمن لا ورع له، ولا إيمان لمن لا تقيّة له، إن أكرمكم عند الله أعلمكم بالتقيّة. فقيل له : يا ابن رسول الله إلى متى؟ قال : إلى يوم الوقت المعلوم وهو يوم خروج قائمنا أهل البيت، فمن ترك التقيّة قبل خروج قائمنا فليس منا... (الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ص ٣٧١).

(٢) سورة النحل، الآية ١٢٥.

السرية سبب من أسباب القوة

بحسب قرائن الروايات هناك جملة معاني للغيبة وللظهور أيضاً، وأحد معاني الغيبة المركزية والمهمة تعني فيما تعني سنة الخفاء والسرية أو النظام الأمني، وهذه مسؤولية عظيمة جداً، والعقل يدرك أن المحافظة على الخفاء والسرية في جانب أسباب القوة مشمولة بعموم قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ، وَعَدُّوا لِلَّهِ وَعَدُّوْكُمْ﴾^(١) ودائماً من أعظم اليات القوة قديماً وحديثاً إذا كان خصمك مكشوفاً وانت مخفي عنه.

بحسب المنطق التكويني والعقلي ان الخفاء هو بنفسه من أسباب القوة، ولأننا مأمورون بإعداد القوة، لا لأجل العدوان بل لردع العدوان، وهذا الخفاء يُعبّر عنه الآن في المصطلحات الحديثة بالقوة الناعمة.

هذه القوة قليلة الكلفة مع تأثيرها الكبير، فقط تحتاج إلى النباهة والفتنة والاستعداد ودوام الحذر، وتشملها نفس الفريضة المذكورة في الآية الكريمة والمرتبطة بالولاية ونظام الولاية ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

(١) سورة الأنفال، الآية ٦٠.

نفس مداولة العلوم الأمنية بين المؤمنين وتربية بعضهم بعضاً على الحس الأمني في كل الجوانب أمر مهم، فالوعي ضروري، وعملية تحريك اليقظة في العقل الأيماني فريضة عظيمة.

نبد السذاجة والغفلة عن العقلية المؤمنة مساهمة عظيمة في الأمن الثقافي، فإذا أعطيت شاباً من أبنائنا وعياً لتوقظه وتحميه من السذاجة، والاستغفال، والاستدراج، والتحايل الفكري الذي يحاك ضده، فهذا من أسباب القوة.

علينا ان نستلهم العبر مما جرى في صفيين وكيف أن فئة عظيمة من الجيش تُستغفل ويُسلب منها نصر مؤزّر وكبير كان بين أيديهم! يخفقون في تحقيقه لأنهم في ساعة النصر استغفلوا برفع المصاحف، وتفتت قوى الجيش بخدعة لأنهم لا يملكون وعياً أمنياً، فوقعوا فريسة سهلة للخداع والتضليل.

«الحرب خدعة» دائماً أمير المؤمنين عليه السلام يكررها على مسامع أصحابه لغرض تربيتهم، وهذه ليست في الحرب الساخنة فقط، فالحرب الآن في العقل البشري ليست فقط حرب عسكرية ساخنة، بل هي حرب اقتصادية وتجارية وحرب ثقافية والحرب الأمنية أشد فتكاً.

الغيبية إحتفاظ بعنصر المبادرة

غيبية صاحب العصر والزمان ﷺ مشروع امني عملاق وسنة مهديه عظيمة، فطابع مسيرته الان خلال أكثر من عشرة قرون هي الغيبة، وعمله كله نشاط لكن في خفاء، ولذلك يجب ان نثري هذه البنود تبعاً في الشريعة، ومنها «الحرب خدعة»، وهذا مرتبط بالخفاء لأنه مع تنبه العدو لا تكون الخدعة.

ومعرفة مضمون «الحرب خدعة» مهم جداً، لأنه من العلوم الاستراتيجية للحرب، وهو أقوى فقرة تُستخدم في الحرب ليحتفظ دائماً بعنصر المبادرة، والتخطيط بالخفاء من دون ان يشعر بك العدو.

آلة الانتصار في الحرب الأمنية بين الأنظمة أن لا يستشعر عدوك بأنك عدو له، وأن لا يستشعر خصمك بأنك خصم له، بل يجب عليك أن تشعره بالثقة، وهنا تكون قد حققت الانتصار واخرقت الطرف الآخر، لأنه لن يكون في يقظة واستعداد، بل يكون في حالة سبات لأن استشعار العداوة يقظة.

سرّ عظيم أن صاحب العصر والزمان ﷺ لا يهادن، لأنهم ذئاب فلا يمكن الثقة والاطمئنان بهم، نعم ننبد ثقافة الكراهية مع الشعوب لأنها محرومة ومستضعفة، أما الأنظمة العاتية وحكامها الطغاة فلا يمكن معهم المهادنة.

أئمة الجور الذين هم قادة الفتن والظلم والجور في المجتمعات البشرية يرفعون راية محاربة الإرهاب في العالم لاستغلال الآخرين، وهم يديرون الإرهاب ويقودونه بأنفسهم.

الخفاء يحمل الكثير من الأسرار، والحرب خدعة كأنما أي سلاح في الأرض لا فائدة فيه لأن عمدة الأمر في الحرب هو الخدعة.

بطولة وشجاعة أمير المؤمنين عليه السلام غير الآليات الموجودة، والتخطيط هو عنصر الخفاء، والتدبير الذي يمارسه، وفي صفين مرتين معاوية بن أبي سفيان يكون تحت سيف أمير المؤمنين عليه السلام بواسطة التدبير والتخطيط الحربي.

والإمام الحسن أيضاً صلوات الله عليه خطَّط أن يأتي بمعاوية بدون أن يبرم صفقة الهدنة معه، فاستدرج معاوية وجيشه إلى الكوفة عندها تعطلت كل العيون والجواسيس الذين كانوا يعملون لمعاوية في الكوفة لتداخل الجيشان في الأزقة والشوارع ولما يبرم معه أي صفقة، وهذه عظمة التخطيط عند الإمام الحسن عليه السلام، حتى إن معاوية أراد أن يفتك بعمر بن العاص لأنه اعتقد أن هناك مؤامرة وتواطؤ بينه وبين الإمام الحسن عليه السلام، لأنه رأى نفسه في قبضة الإمام الحسن عليه السلام ومن ثم أملى الإمام عليه السلام شروطه على معاوية، وأول شرط فيها أن الحسين عليه السلام لا يبايع، وهذا يعني أن الخط الساخن في المواجهة يبقى مفتوحاً، وقد وافق معاوية مرغماً على ذلك.

كل خداع ومغريات ورشاوى معاوية ومؤامراته باءت بالفشل مع التدبير الخفي للإمام الحسن عليه السلام، الذي لم يعلم به لا معاوية ولا عمرو بن

العاص ولا عبد الله بن عباس ولا عبيد الله بن عباس ولا أحد من الجيشين، فقط الإمام الحسن والحسين عليهما السلام، وهنا دقة التدبير والمناورة عند الأئمة سلام الله عليهم. والكثير ممن اطلع إلى بنود صلح الإمام الحسن عليه السلام لم ينتبه إلى دقة البنود، لعدم وجود العلوم الأمنية، فلم يقرأ البنود قراءة صحيحة.

هذه مسألة مفصلية في صلح الإمام الحسن عليه السلام، وكيف أنه استدرج معاوية وجيشه في وسط الكوفة وفي قبضته، ولما يبرم معه أي شيء، فالمفاوضات ليس فيها التزام بعد وهذا هو معنى «الحرب خدعة»، كما تفكر في التصنيع العسكري والحربي فكر في التدبير العسكري والأمني الخفي.

كل بطولات أمير المؤمنين عليه السلام أكبر عامل فيها هو عنصر الخفاء والمكر العسكري والأمني، فهو عليه السلام كان طالباً للشهادة، لكنه لا يعطي العدو فرصة الاقتراب منه، ومن خصائص أمير المؤمنين عليه السلام التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنه لا يهزم في حرب قط»، وأيضاً ذكرها الإمام الحسن عليه السلام بعد استشهاد أبيه عليه السلام لأنه عنده تدبير أمني لا يجعل للعدو فرصة أن ينتصر عليه، إذن الشهادة عند أمير المؤمنين عليه السلام ليس كما نفهمها نحن، فهي ليست عي في التدبير الأمني والعسكري، أو الغفلة عن مخططات العدو فهذه ليست هي الشهادة.

التخطيط الأمني عند أئمة أهل البيت عليهم السلام تجهيز الجيوش بأسلحة قوية، وكل أنواع القوة يجب ان يتسلح بها بيت الإيمان، لكن يبقى السلاح الأكبر هو سلاح الامن، أي أن ترصد عدوك ولا يرصدك.

ولكن نحن نحمل مفهوماً خاطئاً مفاده أنك تستتر عن عدوك فقط، وهذه ليست تقيّة، لأن معنى الاستتار عن العدو هو انكشاف عدوك لك، وإلا كيف يستتر الإنسان عن عدوه قبل تشخيصه وتحديد موقعه، ومعرفة جغرافية وإحداثيات العدو في كل المجالات.

إذن قوام التقيّة هي كشف الطرف الآخر، وأن لا يكون مستتراً عنك، وإلا لا تتحقق التقيّة، وهذا قوام مهم في الفقه السياسي والعقائدي والعسكري وهو ركن مهم في باب التقيّة، وصاحب العصر والزمان عليه السلام هو الغائب صحيح، لكن الآخرين بالنسبة إليه ليسوا غيباً، بل هم في مشهد منه.

إذن قوام التقيّة وجهين متعاكسين، من جهة أنت في ستر وحصن، ومن جهة الطرف الآخر مكشوف لك، وأنى لك ان تستتر والطرف الآخر غير مكشوف لك؟!.

كيف نُعرّف التقيّة بهذا المعنى، والإمام الصادق عليه السلام يعرفها بانها حصن حصين، فكيف نكون حُصّنا بتعريفنا الخاطيء لها، والإمام الصادق عليه السلام يقول: «العالم بزمانه، لا تهجم عليه اللوابس»^(١)، هذا قوام التقيّة فكيف نستتر من الذئاب؟ بمنهج النعامة تضع رأسها في التراب وتظن ان هذا يحميها من عدوها! هذا هو إطمئنان الحمقى.

أول ركن في التقيّة هو أن ترصد العدو وتراقبه ليل نهار بلا توقف أو سكون، وهذا حذر وليس عدوان، يجب أن نحافظ على مفاهيمنا من أن تنقلب رأساً على عقب، كم نادى المؤمنون «أَيْنَ صَاحِبِ يَوْمِ الْفَتْحِ وَنَاشِرُ

(١) الحسن بن علي الحراني، تحف العقول عن آل الرسول، ص ٣٥٦

رَايَةَ الْهُدَى، أَيْنَ مُؤَلَّفُ شَمْلِ الصَّلَاحِ وَالرِّضَا...»^(١) لكن هل خُذع صلوات الله عليه وآله؟ كلا أبداً، لا يبرز!! لأنه لا يخدع من قبل الجميع صديقاً كان أو عدواً، بل هو يعد العُدَّة ويُدبّر.

(١) مقطع من دعاء الندبة

المسؤولية بين الكتمان.... والنشر

من معاني غيبة الإمام المهدي عليه السلام أنها ممتزجة بين طابعين، طابع السرية والخفاء، وطابع المسؤولية العامة.

وهناك إشارات قرآنية تبين الحقيقة المهدوية ونهجه وسيرته عليه السلام، وقد نبه القرآن الكريم إلى ذلك، وهي قاعدة معرفية قرآنية وروائية.

وقد ورد ما يشير إلى ذلك المعنى عن أهل بيت العصمة والطهارة صلى الله عليهم ^(١)، وكل هذه الإشارات يدعمها محكم التنزيل: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ^(٢)، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّالِئِلِينَ﴾ ^(٣) والآيات هي علامات ^(٤)، وهذا ليس فقط من التأويل، بل هو نص واضح في صريح القرآن.

(١) روي عن الصادق عليه السلام: «إن سنن الأنبياء وما وقع عليهم من الغيبات جارية في القائم منا أهل البيت حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة.....» (الصدوق، إكمال الدين واتمام النعمة، ص ٣٤٥، باب ٣٣، ح ٣١).

(٢) سورة يوسف، الآية ١١١.

(٣) سورة يوسف، الآية ٧.

(٤) روي عن الباقر عليه السلام: «إن فيه أربع سنن من أربع أنبياء: من موسى خائف يترقب ومن يوسف السجن ومن عيسى يقال: مات ولم يمت ومن محمد السيف». (الصدوق، إكمال =

فما جرى في بني إسرائيل حتى في التفاصيل وكذلك في جانب الشّر واهل الشّر عبرة، لأن الكلام ليس في فرعون، بل هو في منهج الفرعونية الذي قد بُتلى به الامة، وفعلاً ابتليت هذه الأمة بمنهج الجبت والطاغوت، ومن لا يلتفت إلى هذا المنهج فهو غافل أو متغافل عن النظام العام في القرآن الكريم^(١).

مثلاً في قصة موسى ﷺ كانوا موعودين به وينتظروه كما يُنتظر المهدي ﷺ: ﴿قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾^(٢) فكان بني إسرائيل ينتظرون الموعود وهو النبي موسى^(٣) ﷺ، وهذا مما يؤكد ان عقيدة الموعود المنتظر المُصلح سنّة إلهية في الأمم وليست بدعاً من سنن الله^(٤) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ

الدين وإتمام النعمة، ص ١٥٣، باب ٦، ح ١٦ / وص ٣٢٧، باب ٣٢، ح ٦).

(١) ورد عن رسول الله أنه خاطب أصحابه فقال: «لتتبعن سنن من كان من قبلكم شبر بشبر وذراع بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم. قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟» (صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٦٦٩، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب قول النبي ﷺ لتتبعن سنن من كان قبلكم).

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٢٩.

(٣) روي عن الصادق ﷺ أنه قال: «سنة من موسى خفاء مولده وغيبته عن قومه ثمانين وعشرين سنة». (الصدوق، إكمال الدين وإتمام النعمة، ص ١٥٢، ب ٦، ح ١٤).

(٤) قال الصدوق في إكمال الدين: أول الغيبات غيبة إدريس النبي ﷺ المشهورة حتى آل الأمر بشيعته إلى أن تعدّر عليهم القوت وقتل الجبار من قتل منهم وأفقر وأخاف باقيهم ثم ظهر ﷺ فوعد شيعته بالفرج وقيام القائم من ولده وهو نوح ﷺ ثم رفع إدريس إليه فلم تزل الشيعة يتوقعون قيام نوح ﷺ قرناً بعد قرن وخلفاً عن سلف صابرين من الطواغيت على العذاب المهين حتى ظهرت نبوة نوح ثم ذكر حديثاً عن الباقر ﷺ يتضمن غيبة إدريس عشرين سنة مختفياً في غار لما خاف من جبار زمانه وملك من الملائكة يأتيه =

خَلَوْا مِنْ قَبْلِ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١﴾.

وعليه فتفجير الموقف قبل آوانه بالمواجهة الساخنة ليست من البرنامج الإلهي بل هي من عمل الشيطان - طبعاً الدفاع بلا ريب حق مشروع وحتى الدفاع الوقائي - لكن أن يكون المؤمن هو الذي يؤزّم الموقف، أو أن يُخدع ويُجرّ إلى تفجير الموقف فهذا خطأ كبير.

فلسفة القوة في منطلق أهل البيت عليهم السلام هي الردع وليس الجبروت والتسلّط والعدوان على الآخرين، فالقوة لا تعني العدوان وخلق أزمة مع الطرف الآخر، واللين لا يعني الضعف، بل هو لين في قوة وحزم.

اذن من قضايا الخفاء في الغيبة أن المؤمن بقدر ما يستطيع لا يبني في العلن، بل جلّ عمله ينبغي أن يكون مخفياً في هذا الجانب.

ولهذا ما جرى من موسى عليه السلام مع القبطي الذي استغاثه عليه أحد شيعته ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفَلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَنَصَّهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ

بطعامه وشرابه ثم ذكر ظهور نبوة نوح عليه السلام ثم روى بسنده عن الصادق عليه السلام: [أنه لما حضرت نوحاً عليه السلام الوفاة دعا الشيعة فقال لهم: اعلموا أنه ستكون من بعدي غيبة يظهر فيها الطواغيت وأن الله عزّ وجلّ يفرّج عنكم بالقائم من ولدي اسمه هود فلم يزالوا يترقبون هوداً عليه السلام وينتظرون ظهوره حتى طال عليهم الأمد وقست قلوب أكثرهم فأظهر الله تعالى ذكره نبيه هوداً عليه السلام عند اليأس وتناهى البلاء وأهلك الأعداء بالريح العقيم ثم وقعت الغيبة بعد ذلك إلى أن ظهر صالح عليه السلام. (إكمال الدين واتمام النعمة، ص ١٣٥ و١٣٦، باب في ذكر ظهور نوح - ٨ - ح ٤).

(١) سورة الأحزاب، الآية ٦٢.

فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالِ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَهُ إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾ .

مع أن موسى عليه السلام نبي ومن أولي العزم لكنه في ذلك الوقت كان عليه تدبير أمره في السر وليس في العلن، ولهذا فُسِّرَتْ «ظلمت نفسي» لدخوله في منطقة العدو، وهو مطالب بكتمان نشاطه، لأن كشف أوراقه يؤدي إلى ضعفه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ ^(٢)، واغفر لي يعني استرني.

ولأهمية أمر الكتمان ترى الألم الذي يعتصر قلب الإمام السجاد عليه السلام على فقدان شيعته هذه الخصلة بالذات: «وددت والله أنني افتديت خصلتين في الشيعة لنا ببعض لحم ساعدي، النزق وقلة الكتمان» ^(٣).

هذا الأمر أيضاً مرتبط بالمشروع المهدي عند الغيبة، وإذا كان عنوان المرحلة الغيبة، فهي لا تعني إلا الخفاء، ولا تعني الجمود أو عدم المبالاة، بل تعني الخفاء والسرية، ومعنى السرية هو أن تكون في قمة النشاط، فماذا تُسر وماذا تُخفي؟ لا بد أن يكون هناك شيء تخفيه وهذا هو معنى الغيبة والخفاء، فإذا الخفاء هو عنصر قوة لبناء المجتمع الصالح والقوي ^(٤)، ومن أكبر المحرمات كشف الستار، ولكن ينبغي الإشارة أن هذا الأمر ليس في العقائد المعلنة.

(١) سورة القصص، الآيتان ١٥ - ١٦ .

(٢) سورة القصص، الآية ١٦ .

(٣) الكليني، الكافي، ج ٢، ص ٢٢٢ .

(٤) روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «ولا بد له في غيبته من عزلة، ولا بد في عزله من

قوة» (الغيبة للطوسي، ص ١٠٢).

وهذا هو الأسلوب والنهج القرآني في جانب النور والهداية ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾^(١)
 ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۗ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾^(٢).

اذن المسؤولية عامة على أهل الأيمان في الكتمان والسرية فيما يتعلق بجانب التنظيم وصناعة القوة.

(١) سورة النحل، الآية ١٢٥.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٥٩.

الفصل الحادي عشر

المفاهيم وضرورة حفظها

١. خطورة النكث بعد الأيمان
٢. جدلية العدل والتزام العرف
٣. ضرورة عدم الخلط بين الموازين
٤. الأعتزال الأيجابي سنة من سنن الأنبياء
٥. بين الثابت والمتغير

خطورة النكث بعد الأيمان

أحد مصاديق النكث الواضحة هذا الالتباس والانهمام الفكري سواء كان على صعيد القضاء، أو الفقه السياسي، أو الاسري.

والحرب الفكرية على النظام الأسري في منهج القرآن والعتره من قبل الغرب على قدم وساق، التسفيه والتشنيح حتى على التشريعات القرآنية ومرويات المعصوم تحت أسماء ومسميات مختلفة.

ولخطورة النكث فإن النبي ﷺ أوصى أمير المؤمنين عليه السلام بقتالهم من بعده، وكذلك قتال القاسطين والمارقين^(١)، ولكن الناكثين أخطر لأنهم بداية رفع الالتزام ولو بلباس ديني.

والثبات على منهج الدين بوعي وبصيرة وبلغة عصرية من أهم الوظائف في «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس»^(٢)، وأعظم هذه الوظائف هو الثبات على إمامة صاحب العصر والزمان عليه السلام لأنه صاحب هذا المشروع، فإذا انهزم المؤمن فقد تخلى عن المشروع، وبأي مشروع بعده

(١) روى الحاكم بإسناده عن عتاب بن ثعلبة: «حدثني أبو أيوب الأنصاري في خلافة عمر بن خطاب قال: أمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين. (المستدرک على الصحيحين، ج ٣، ص ١٣٩).

(٢) نص حديث للإمام الصادق عليه السلام (الكافي، الشيخ الكليني، ج ١، ص ٢٧).

يؤمن الإنسان! هؤلاء الذي يقولون «ارجع يا ابن فاطمة فلا حاجة لنا بك»^(١) ليس فقط هم يقولون ذلك، بل نحن أيضاً - لا سامح الله - إن تراجعنا عن مشروع الدين وعن مشروع أئمة البيت عليهم السلام.

فما كان على صعيد البصيرة حتى نكث العهود مع الدين والإيمان له درجات أيضاً، وهذا التعدد الموجود في دعاء الندبة يعني ان صاحب الزمان عليه السلام ليس عنده مهادنة، ولا تقرير للفساد من أي كان وفي أي دائرة مهما قربت، وسيكون حاله كحال جده أمير المؤمنين عليه السلام «يَحْدُو حَدَوِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَآلِهِمَا، وَيُقَاتِلُ عَلَى التَّوِيلِ، وَلَا تَأْخُذُهُ فِي اللهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، قَدْ وَتَرَ فِيهِ صَنَادِيدَ الْعَرَبِ وَقَتَلَ أَبْطَالَهُمْ وَنَاوَشَ ذُؤْبَانَهُمْ، فَأَوْدَعَ قُلُوبَهُمْ أَحْقَاداً بَدْرِيَّةً وَخَيْرِيَّةً وَحُنَيْنِيَّةً وَغَيْرُهُنَّ، فَاصْبَتَ عَلَى عِدَاوَتِهِ وَآكَبَّتْ عَلَى مُنَابَذَتِهِ، حَتَّى قَتَلَ النَّاكِثِينَ وَالْقَاسِطِينَ وَالْمَارِقِينَ»^(٢).

فنحن على الأقل يجب أن نكون واعين ولو على مستوى التنظير، فإن لم نكن نملك الأسلحة المادية فلنملك الأسلحة العلمية والإعلامية، فالنكث له درجات كثيرة، ويجب الوعي لها.

والانحراف الآخر - وهذا أيضاً سنة تتكرر في كل زمان - هو منج القاسطين والمارقين. والقاسطين يعني أنهم وصلوا إلى نهاية المطاف، وهناك بيان لسيد الأنبياء مروى عند الفريقين وهو بالترتيب: ناكثين، قاسطين، مارقين، وكأن الترتيب رتبي من قبيل السبب والمسبب وتداعياته، يعني الناكثين يفرزون قاسطين، والقاسطين يفرزون مارقين.

(١) محمد بن جرير الطبري الإمامي الصغير، دلائل الإمام، ص ٢٣٩.

(٢) مقطع من دعاء الندبة.

أخطر شيء في البداية الوعي والبصيرة، كما عبر الاصوليون ان الموافقة الالتزامية أعظم واسبق وأخطر من الموافقة العملية، بل لو عملت بالواجب وأنت لا ترى أنه واجب، فهذا أخطر وأضل وأكثر فسقاً.

الموافقة الالتزامية أن تلتزم أن هذا حق على صعيد الوعي والإذعان، إذن العقيدة أعظم من العمل مع أهميته.

الملل والنحل قامت على الرؤية الايدلوجية ولم تقم على السلوك البدني، فالرؤية والمعرفة هي الأخطر والأعظم ثواباً لأرتباط مصير البشرية بها.

والقاسطون هم ناكثون وزيادة، فإذا ابتليت الأمة بالنكث تلقائياً تصل ذروة الانحراف في الناكثين إلى القاسطين، يعني السقيفة تلقائياً تولد الاموية.

في الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرَّيَّا لَوَجَّ أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾^(١) فالآية تتحدث عن مستقبل رؤية وحيانية، فتنة للناس وهي السقيفة، والشجرة الملعونة تطور النكث ليذهب إلى القاسطين، وتداعياتها كأنها تكوينية سبب ومسبب، تمادى النكث فوصل ذروته إلى القاسطين، والقاسطون يرفعون شعار العدل لكنهم لا يلتزمون ببنوده وفصوله، وفي البداية خلعوا ربقة العهد والبيعة والالتزام.

ولذلك المطلوب من المؤمن في زمن الغيبة الكبرى تجديد البيعة

كل يوم ليجدد التزامه بهذا المشروع بحذافيره، يعني لا يقبل التراجع لنفسه فكرياً أو قلبياً بل أن يبصر ويعي كل هذه البنود.

وهذا الشعار أيضاً درجات، فيه الجلي، وفيه الخفي، وفيه الأخفي وهكذا، فنكث العهد ونبذ الالتزام إذا تمادى الإنسان فيه تصل به الأمور إلى التمادي في رؤية الحسن قبحاً وبالعكس!، يعني صلافة في الإعلان جهاراً، وعدم العظة ورعونة في الالتزام بالقبيح والباطل مع الإصرار على صحة معتقده الباطل، والنهج الأموي لا يخفى منذ بدايته حتى زواله قباحة صريحة بدون حياء.

ولذلك وردت الاحاديث الكثيرة في الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لتأمرن المعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لكم»^(١).

وأيضاً ما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام لما قدم العراق ونزل الحيرة دخل عليه أبو حنيفة وسأله عن مسائل، وكان مما سأله أن قال له: جُعِلت فداك ما الأمر بالمعروف؟ فقال عليه السلام: «المعروف يا أبا حنيفة المعروف في أهل السماء المعروف في أهل الأرض، ذاك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام» قال: جعلت فداك فما المنكر؟ قال: «الذنان ظلماه حقه وابتزاه أمره وحملا الناس على كتفه؟ قال: ألا ما هو أن ترى الرجل على معاصي الله فتنهاه عنها؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: ليس ذلك أمراً بالمعروف ولا نهياً عن المنكر إنما ذاك خير قدمه.»^(٢).

(١) الطبراني، المعجم الأوسط: ج ٢، ص ٩٩.

(٢) تأويل الآيات: ج ٢، ص ٨٥٣، ح ٨؛ والبحار: ج ١٠، ص ٢٠٨، ح ١٠.

إقامة للعدل أو التزام العرف؟

ذُكرت لصاحب العصر والزمان عليه السلام صفات عديدة من خلال الأدعية والزيارات منها انه مُجدد لسُنَّة النبي صلى الله عليه وآله، ومحبي لما عَطَّل من أحكام كتابه، «أَيْنَ الْمُدَّخِرِ لِتَجْدِيدِ الْفَرَائِضِ وَالسُّنَنِ؟ أَيْنَ الْمُتَخَيَّرِ لِأَعَادَةِ الْمِلَّةِ وَالشَّرِيعَةِ؟ أَيْنَ الْمُؤَمَّلِ لِأَحْيَاءِ الْكِتَابِ وَحُدُودِهِ؟ أَيْنَ مُحْيِي مَعَالِمِ الدِّينِ وَأَهْلِهِ؟» (١).

كل هذه بلا شك ذُكرت كبنود، لكن الأشهر في تلك البنود هي العدل والقسط، كأنها ميزة له عليه السلام دون جميع الأنبياء والأوصياء، ربما النبي سليمان تولى ملكاً إلهياً، أو ذو القرنين، أو يوسف النبي في منطقة جغرافية معينة، وحتى سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله في الجزيرة العربية، أو أمير المؤمنين عليه السلام في منطقة جغرافية أكبر، أما خصوص صاحب العصر والزمان فإنه يملأها قسطاً وعدلاً، خاصة له دون غيره.

وهنا سؤال يطرح نفسه وهو: إذا خرج وليس في عنقه بيعة لأي نظام سياسي أو اجتماعي فكيف يتلائم هذا مع أمر الله عز وجل لسيد الأنبياء: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (٢)؟

(١) مقطع من دعاء الندبة.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٩٩.

فهذه فريضة قرآنية أمر بها سبحانه وتعالى، وسُنّة نبويّة قام بها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف يتخطاها صاحب العصر والزمان؟

كيف نجتمع بين عدم اعترافه باي عُرف أو نظام فاسد، وهو خارج نطاق تأثير أي دائرة عليه حتى من قِبَل مواليه، مع مضمون الآية الكريمة «خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين»؟

هذه قاعدة قرآنية ونبوية عظيمة لكن يجب تحديد موطنها لكي تتضح الصورة.

هناك اشكال من قِبَل المدرسة الإمامية على مذاهب الجمهور، ومن باب المثال لو اخذنا قاعدة «المصالح المرسلّة وسد الذرائع» فالأشكال بالدقّة هو ان تلك المذاهب طبقت هاتان القاعدتان في مورد خاطئ.

ففي تحريم المتعتين - متعة الحج ومتعة النساء على سبيل المثال أن من حرّمهما استند على «سدّ الذرائع والمصالح المرسلّة» وهذا الاستناد خاطئ، والذين أتوا من بعده لم يميزوا الموطن الصحيح لسدّ الذرائع والمصالح المرسلّة مع هذا التحريم.

هذا التحريم باطل لأن حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة، فسدّ الذرائع والمصالح المرسلّة في مقام التدبير السياسي وباب التزاحم له حكم سياسي، ولكنه ليس حكم تشريعي ثابت.

بعبارة موجزة ذكر الاصوليون أن حلال محمد حلال إلى يوم القيامة، وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة هذا على صعيد التطبيق التشريعي.

أما على صعيد التطبيق الجزئي المقطعي الزماني فيمكن للإنسان أن

يمنع نفسه عن ارتكاب الحلال، ولكنه ليس تحريم كلي ثابت بل هو في موارد المهم والأهم، وفيها يجب على الإنسان ان يراعي الأهم، فإذا قرط بالاهم لأجل المهم أرتكب حراماً، فالأهم يمنعه من إتيان المهم هنا، ولكنه ليس منع تشريعي ثابت، بل هو منع مؤقت جزئي تدييري في عالم سياسة المجتمع، أو الاسرة، أو في عالم تدبير الفرد لنفسه. سد الذرائع بهذا اللحاظ صحيح، ومصالح مرسلة بهذا اللحاظ أيضاً صحيح، أما ان تجعل ضوابط قاعدة سدّ الذرائع وقاعدة المصالح المرسلة قواعد للتشريع الثابت كمن قال: «متعنان على عهد رسول الله وانا احرمهما واعاقب عليهما»^(١)، فان كان المراد بذلك هو التحريم التشريعي فهذه نبوة جديدة!، أما إذا كان المراد المنع المقطعي فهذا لا يعني الحرمة التشريعية، فلماذا أتباعه يبنون على الحرمة التشريعية؟ هنا الخلط بين المصالح المرسلة وسد الذرائع وجعلها قاعدة تشريعية طامة كبرى.

اذن القواعد التشريعية يجب ان نعرف مواطنها، وان لم نعي مواطنها اختلط الحابل بالنابل، ولا يكفي مشروعية الشيء لتطبيقها، بل يجب الوعي حتى لا يعمل الميزان في غير محله وموطنه، وإلا لا يكون ميزاناً، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾^(٢) فالوزن قانون صحيح

(١) عن أبي نضرة عن جابر رضي الله عنه قال في حديث: تمتعنا مع رسول الله ﷺ ومع أبي بكر رضي الله عنه، فلما ولي عمر خطب الناس فقال: إن رسول الله ﷺ هذا الرسول، وإن هذا القرآن هذا القرآن، وإنهما كانتا متعتان على عهد رسول الله ﷺ وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما، إحداهما متعة النساء، ولا أقدر على رجل تزوج امرأة إلى أجل إلا غيبتة بالحجارة، والأخرى متعة الحج، افضلوا حجكم من عمرتكم، فإنه أتم لحجكم وأتم لعمرتكم. (البيهقي، السنن الكبرى، ج٧، ص٢٠٦).

(٢) سورة الرحمن، الآية ٩.

لكنه عادل، والقانون شرعيته بالعدل والعكس غير صحيح، لأن العدل هو الأصل فيجب مطابقة القانون للعدل.

ونحن الآن نعيش في عصر وصل فيه الدجل إلى درجة لم تشهدها البشرية في أي جيل من أجيالها، وقد بلغ قوته من الناحية الفكرية والإعلامية في زمن يضيع فيه الميزان بالعدل حتى على اللبيب كما في الروايات.

الشائع الآن في ثقافة المجتمع أن القانون هو الأصل، وما يطابق القانون هو العدل وما يخالفه فهو جور وظلم!، جعل الأصل القانون ومصالح البشر وتوافقاتهم هذه مشكلة، بعنوان انتخاب الأكثر يكاد يطبق هذا المفهوم الخاطيء على العقل القانوني والسياسي والمجتمعي.

لكن في منطق أهل البيت عليهم السلام العدل هو الأصل وما طابق العدل هو القانون، يعني النظم والقانون بتوسط العدل، كما تقول الصديقة الطاهرة عليها السلام «وجعل إمامتنا نظاماً للملة»، فالعدل نظام وهم سلام الله عليه مجسدة العدل حسب نص القرآن الكريم.

وهذا هو منطق أهل البيت عليهم السلام ان الحسن والقبح ذاتين عقليين، فإن توافق عرف البشر وتراضى على هذا الحسن والقبح الذاتي فهو صحيح، وليس الموازين والمواثيق البشرية بما هي.

مع ان الله سبحانه وتعالى يأمرنا بالوفاء بالعهود ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنََّّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾^(١)، ويوصينا بمراعاة العرف ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٢)، أيضا يأمرنا بجعل العدل هو الأساس في

(١) سورة الإسراء، الآية ٣٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٩٩.

القانون ونظم الأمور ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾^(١)
فالميزان قانون يُجعل بالعدل.

والعهد من مصادر التشريع عند القانون الوضعي وهو من منابعها المهمة، والعرف نوع من العقد الاجتماعي، وعند السيد «الخوئي» تنظير وافق فيه أحد المحققين السابقين له وهو المحقق «النهاوندي» في كتابه «تشریح الأصول» على أن دلالة اللفظ على المعنى في اللغة هي بالوضع وأن العرف هو تعهد، وفي هذا الكتاب يذكر هذا المحقق نظرية السيد الخوئي نفسها في الوضع، والوضع مخرج من مخرجات التوافقات الاجتماعية يتصالح فيه فئة من البشر على الحوار بأصوات معينة، لذلك يبني هذان العُلَمان (المحقق النهاوندي والسيد الخوئي) على أن اللغة كبيئة اجتماعية ميثاق والتزام وعقد.

كثير من الأعلام أشكل على السيد الخوئي ولكن هذه النظرية صحيحة - وإن كان كلامنا في معنى الميثاق الاجتماعي وليس في اللغة أو الوضع - فهذه المفردة مثال مهم بنى عليه هذان العُلَمان على أن نظام التوافقات الاجتماعية ولو بنحو تعيني لا تعيني يعني بنحو ارتكازي استرسالي، فأنت تدخل في مجتمع وتتعرف على لغتهم تلقائياً تدخل في العهد الاجتماعي، لا أن العقد يحتاج إلى إيجاب وقبول خاص.

وهذا المبنى نظرية في المواثيق الاجتماعية وهو شرح دقيق لمعنى العرف، هذا التعريف يظهر ويبين أن التوافقات بالارتكاز البسيط، فعندما تنخرط في بيئة اجتماعية معينة فأنت قد التزمت بالتعهد سواء التفت

تفصيلياً أم لا، هذا المبني في تعريف الالتزام الاجتماعي هي أحد الأمور التي ذكرها السيد الخوئي والمحقق النهاوندي في الوضع، وهو لا ينحصر في اللغة والوضع، بل هذا البحث عام في كل الأعراف، فإذا رضيت أن تستوطن بيئة اجتماعية معينة فهذا يعني أن تلتزم وتتعهد.

لذلك نفهم لماذا لا يتعايش «صاحب العصر والزمان» في أي مجتمع مدني، لأنه لا يدخل ضمن موثيقهم، ولا يتعهد بعهودهم، وهو غائب وينأى عن التعايش مع الأعراف المختلفة، ليس عنده بيعة لأحد - والبيعة يعني تعهد والالتزام - وهو لا ينسجم مع هذه التوافقات المجتمعية المدنية إلا بمقدار ما طابقت دين الله وسُنن رسوله، إما أن يتعايش أو يتوافق أو يتعاهد فهذا لا يكون أبداً، لأن هذه البيئات قد حرّمها الله عز وجل عليه منذ ولادته، وولادته خفية لهذا السبب.

وعلى هذا الارتكاز، فعندما يعيش الإنسان في مجتمع مدني فيقوم بالغدر والتفجير والتفخيخ والاعتيالات فهو بذلك قد نكث العهد، فإذا عاش الإنسان في بيئة ونظام آمن ومدني فهذا تعهد منه في هذا النظام المدني، إذا تعهد به ثم غدر ونكث به فهو غادر فاجر، وكل غادر وفاجر فإلى النار كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام، وهو سلام الله عليه في الثلث الأخير من عهده لمالك الاشرى يوصيه بالمواثيق الاجتماعية وعدم نكث العهد إذا التزم به ^(١).

(١) وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحُطَّ عهدك بالوفاء، وارع ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت، فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم، من تعظيم الوفاء بالعهود. وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين، لما استولوا من عواقب الغدر! فلا تغدرن بذمتك،

لكن هذا لا يعني ان الإمام المهدي عليه السلام يعيش في عالم آخر، بل هو نفسه بيئة صالحة في هذا العالم ويسعى لتوسعتها وتغيير الأعراف الفاسدة باتجاه هذا العرف الصالح، لأنه ليس في معزل جغرافي، بل هو في معزل اجتماعي عن الأعراف الفاسدة، «بِنَفْسِي أَنْتَ مِنْ مُغَيَّبٍ لَمْ يَخْلُ مِنَّا، بِنَفْسِي أَنْتَ مِنْ نَازِحٍ مَا نَزَحَ عَنَّا»^(١)

الجدار الأخلاقي هو الذي يعزل صاحب الزمان عليه السلام عن كل المجتمعات طيلة أكثر من عشرة قرون، الأعراف الفاسدة هو لا يتنازل لها ولا يتزايل عن صراطه المستقيم، ولا يستثمرها بمعنى ان ينصاع لها ثم يأخذ مخرجاتها، بل من البداية هو يعيش في بيئة اجتماعية ليس فيها لوث أو شائبة «لم تدنّسك الجاهليّة بانجاسها ولم تلبسك من مدلّهّمات ثيابها»، ثيابها الاجتماعية والسياسية والمالية والتجارية، وهذا مفهوم آخر للغيبة، ومنه نعرف معنى الظهور والغيبة، هو نازح ونائي عن هذه التوافقات الاجتماعية ونزوحه ليس جغرافياً، بل نازح عن السلوك الاجتماعي الخاطيء، ومن الأعراف الفاسدة إلى عرف صالح.

ولا تخيسن بعهدك، ولا تختلن عدوك، فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقي. وقد جعل الله عهده وذمته أمناً أفضاه بين العباد برحمته، وحرماً يسكنون إلى منعته ويستفيضون إلى جواره. فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه. (من عهد أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الاشتهر أرض- لما ولاه مصر).

(١) مقطع من دعاء الندبة.

ضرورة عدم الخلط بين الموازين

الخلط يقع إذا أخطأنا التمييز بين الموازين في الأبواب، فتارة تجعل المصالح المرسلة وسد الذرائع قاعدة لأصل حلية الشيء وحرمته، وهاتان قاعدتان باطلتان في أصل التشريع كما أسهب علماء الإمامية طوال قرون في توضيح هذا المطلوب، وتارة هاتان القاعدتان تُجعلان ميزان لتدبير جزئي زمني مقطعي، وهذا أمر آخر.

وبعبارة أخرى - كمثال - بعض القواعد الفقهية أو القانونية بعضها قواعد للقوانين الدستورية، وهناك القوانين البرلمانية والمجالس النيابية وهي أيضاً قواعد قانونية أو فقه قانوني لكنها تختلف سنخاً عن قواعد القانون الدستورية، وهكذا تنزل القوانين إلى وزارية وبلدية وما شابه ذلك، يعني أنماط من القواعد القانونية وهي ليست على درجة واحدة وسنخ واحد، فجعل قاعدة معينة في القانون البلدي قاعدة في الفقه الدستوري حينئذ ستحدث مشكلة في علم الفقه الدستوري لعدم وجود الصلة، فالقواعد القانونية البلدية عبارة عن موازين تديرية في البيئة الخاصة لتلك المحافظة أو المنطقة، وليس لها ربط في الحكومة الاتحادية مثلاً، وهذا مبحث مهم جداً وأكد عليه علماء الإمامية كثيراً، لأنه ستعم الفوضى في التقنين مع ملاحظة ذلك على صعيد البلاد الواحدة والرقعة

الواحدة، فكيف إذا كان على صعيد البلدان البشرية، لأنه يجب مراعاة الخصوصيات التي لا بد ان تُحفظ في كل شعب أو بيئة.

وهذا ما كان عليه أئمة أهل البيت سلام الله عليهم، أما في التفاصيل النازلة فهذا سر طول غيبته ﷺ، فهو غائب ومعتزل عن أصل المشروع الفاسد، ولكنه يمارس الهداية برفق وتدرج لتغيير البشر وهدايتهم، نفس الغيبة هي رفق تدرجي في كيفية التغيير من دون أن يُسلم أو يهادن لأي عرف فاسد، ونفس الذوبان بأي عرف من الأعراف هو تعهد لتلك الأعراف الفاسدة.

وهنا أمر يجب الالتفات إليه وهو أن صفات المعصومين ليس المراد منها الصفات الفردية، فعندما نصف أمير المؤمنين ﷺ بالشجاعة، فليس المقصود الشجاعة بالعضلات، فهذا بُعد يسير منها، بل دوماً مراد منها الشجاعة على افق اكبر، وكذلك عندما نقول «كاظم الغيظ» فهذا الرجل الذي كان هو يد الرسول ووزيره وصاحب المنزلة العظيمة عنده، ثم يسلب سلطانه ومع ذلك هو لا يفقد تدبيره، ولا يفقد التخطيط المنهجي لمرحلة بناء جديدة وصعبة، وهذه البشرية التي انكفأت عنه بعد خمس وعشرون عاماً تعود إليه ندماً، هذا هو معنى كظم الغيظ عند علي ﷺ، لا يستفزه المُعادي، بل تدبيره هو هو، ولن يستحوذ عليه الارباك.

نفس كظم الغيظ هذا عند موسى بن جعفر سلام الله عليه، بعض الناس يكظم غيظه (الفردية) لكنه روحياً منهار، وفكرياً لا يدبّر أمره، بل أصابه الاعياء، وهذا ليس كظماً للغيظ.

كظم الغيظ عند أمير المؤمنين ﷺ له معنى آخر، يعني نوع من امتصاص الضربة والعلاج، وهذا معنى مختلف.

شراسة هارون العباسي في قتله موسى بن جعفر عليه السلام بهذه الشدة أراد أن يستفز الإمام ليتخذ الأسلوب الساخن، وبالتالي يعرض القاعدة الشعبية لموالي أهل البيت للخطر، ومع ذلك صلوات الله عليه امتصّ الضربة من دون ان يعطي للعدو ما أراد من إبادة هذه المسيرة في وجودها الشعبي.

من يتخيل أن القاعدة الشعبية للإمام قد تقاعست عن نصرته فهذا ليس بصحيح، لأن ما جرى هو من تدبير الإمام الكاظم عليه السلام بنفسه ولم يعطي للعدو ما يريده، والذي كان يريد المواجهة بأي طريق كان لأبادة المؤمنين، إذن كظم الغيظ عند موسى بن جعفر عليه السلام أيضاً له معنى آخر.

هنا أيضاً في وصف صاحب العصر والزمان عليه السلام «ذو الحلم الذي لا يصبو»، يعني لا تأخذه صباوة المستعجلين والمؤقتين والمتسرعين، ذو الحلم يعني الطمأنينة والسكينة في التخطيط القيادي والحضاري.

الاعتزال الإيجابي سنة من سنن الأنبياء

أيضاً من معاني الغيبة هو نأيه عن الالتزام والذوبان في موثيق اجتماعية فاسدة، بل حتى لو كانت موازين اجتماعية صائبة وكان ولي هذه الموثيق إنسان غير عادل هو أيضاً يكون برئ منها.

فغيبته بمعنى براءته وعدم التزامه بأي موثيق ليست على الموازين، أما من ناحية المتصدي أو من ناحية نفس الميثاق، هو غائب بهذا المعنى فهو برئ وبعيد ومنقطع لا يستسلم ولا يسلم لها، نظير ما ورد في النبي إبراهيم عليه السلام ﴿وَأَعْتَزَلَكَ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ ^(١) سنة من النبي إبراهيم نجدها في الإمام الثاني عشر.

فالغيبة بمعنى اعتزال البيئات الفاسدة ولكن ليس اعتزالاً سلبياً، بل هو اعتزال إيجابي، أي إنه في وسط الأحداث، وهو فيهم ولكنه ليس منهم.

وكذلك سنة النبي عيسى عليه السلام: ﴿وَمُطَهِّرَكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ^(٢) يعني البيئة التي فيها جور وظلم بيئة نجسة في منطلق القرآن.

(١) سورة مريم، الآية ٤٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٥٥.

هذا الأنفلات هو نجاسة لأنه فيه طغيان وفرعونية، ويدخل فيه طغيان الغرائز والأنانية، وهذه كلها أرجاس في منطق القرآن.

فإذن أحد معاني الغيبة الاعتزال الإيجابي عن التسليم للبيئات الفاسدة وهو طهارة، ويقابلها الظهور الذي هو عبارة عن انتشار البيئة الطاهرة - من بنود المشروع المهدي - ونشرها وتكريسها بين الناس، وهذا معنى اجتماعي للغيبة وللظهور أيضاً في منطق الحضارات.

الفصل الثاني عشر

الوعي والبصيرة في مشروع التمهيد

١. التعرف على بنود المشروع
٢. الوعي بالمشروع المهدوي
٣. ضرورة المعرفة والترويج للمشروع المهدوي
٤. الوعي والبصيرة في مواجهة الحرب الإعلامية
٥. حرب المعلومات المضللة
٦. الدولة المهيمنة بالعلم والبصيرة

التعرف على بنود المشروع

للتعرّف على منظومة البنود المهدوية الواردة في الأدعية والزيارات الخاصة به، يعني ان لا يتوقف المؤمنون عند أفق سياسي محدود ومعين، أو عند عُرف من الأعراف المعينة.

وللتعرّف على هذه البنود ينبغي التأكيد على عدّة خطوات:

الخطوة الأولى، قراءة هذه البنود لنستنبط منها باستنباط اجتهادي، فهي خير مصدر للفقهاء السياسي في الغيبة الكبرى.

وأى باحث يريد ان يكتب في الفقه السياسي أو الفقه القضائي فلا يتعد كثيراً ويخص بحثه فقط بالمواد الموجودة على عهد رسول الله ﷺ، أو عهد أصحاب الكساء عليهم السلام، ولا ريب ان بنيتهم أساسية، لكن لا بد من العودة لمصادر من البنود الواردة في اللون الوحياني بعنوان مهدوي من خلال الأدعية والزيارات المرتبطة به صلوات الله عليه، لأن مشروع السماء تبلور وامتد في الياته ونظامه ومعادلاته بهذا القلب.

اذن قراءة هذه البنود وبالدرجة الأولى معرفتها ودوام التعرف عليها واستنباطها سواء في البحوث العقائدية أو في البحوث الأخلاقية السياسية والاجتماعية والإدارية.

عهد أمير المؤمنين لمالك الاشر ضروري بلا شك، وكذلك نهج البلاغة، ولكن لابد أيضا من التعرف على البنود التي يرسمها لنا إمام زماننا عليه السلام لتداخل تلك البنود مع بعضها البعض.

والخطوة الثانية التعرف على غريب الالفاظ في تلك البنود، مثل القرآن.

والخطوة الثالثة معرفة معانيها.

والخطوة الرابعة كيفية قراءتها على ضوء الفقه وعلم الكلام المركوزين لدينا في الأبواب والبحوث، وكذلك قراءتها على ضوء الأفق والأخلاق السياسية الحضارية في بعديها العام والفردي، وفي المحصلة معرفة هذه البنود لها خطوات ونحن مأمورون وملزمون بها.

توجد روايات مستفيضة في باب التعارض بين الخبرين ذكرها صاحب الوسائل، وكذلك علماء الأصول في كيفية الأخذ بين الخبرين المتعارضين، وهناك روايات كثيرة تؤكد على ضرورة العمل بالأحدث، وأحد الاعلام يجعل بين المرجحات الروايات الاحداث.

افترض في عهد الإمام الصادق عليه السلام وفي كل سنة الإمام عنده توصيات إلى أتباعه المؤمنين في أبواب الدين المختلفة، فإذا علم المكلف بروايات صادرة عن الإمام الصادق عليه السلام قبل خمس سنين، وروايات صادرة عنه في هذا العام، فإذا كان فيها تعارض يعمل بالرواية الأحدث، لأن الإمام عليه السلام هو الذي يشخص الوظيفة في المرحلة.

وهذا الأمر أيضاً ينطبق لو كان التعارض بين روايتين صدرتا عن إمامين من الأئمة عليهم السلام فأنا أيضاً نأخذ بالرواية الاحداث.

الآن نحن نعيش في عصر الإمامة والدولة الإلهية الخفية للإمام الثاني عشر عليه السلام، ولا ريب فيها توصيات وبنود معينة غير التوصيات السابقة التي صدرت عن أهل البيت عليهم السلام.

هم نور واحد ومصدر واحد لا شك في ذلك، لكن بحسب قواعد تشريعات التطبيق الاحداث له دور، سواء نظرنا له نظرة تشريعية أو نظرة تطبيقية.

فما صدر من بنود وتوصيات حول الإمام أو منه عليه السلام يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار بحسب النظام والمنظومة في اخذ أحكام الدين.

الوعي بالمشروع المهدي

والخطوة الأولى لكي نصل إلى جعل هذه المبادئ اعرافاً اجتماعية هي التعليم، لأن الجهل حاجز كبير في طريق التمهيد، فالتوعية والتثقيف والتعليم هو الخطوة الأولى.

ومن ثم توضيح للبنود بصورة أكبر.

والحوارية المستمرة مع العقل البشري إلى أن تصل البشرية إلى درجة الطموح والطمع والانشداد إلى هذا المشروع بينوده الواعية غير المحرّفة والمتكاملة والمنظومة، لتبدأ المجتمعات البشرية والنخب البشرية تهتف بهذا الأمر.

يعني يصبح لها أنس فيما بينها مع حكومة الظهور، وتكون البيئة صالحة لساعة الظهور، لذا كلما ابتعدت البشرية عن العلم الصحيح والسليم بالمشروع المهدي كلما ابتعدت عن الظهور أكثر.

الوعي والإحاطة أولاً بالمشروع المهدي، هذه المسؤولية مهمة جداً، ثم بعد ذلك تعريف الآخرين به، ثم إقامة الأندية العلمية للمقارنة بين المشروع المهدي الربّاني الصحيح وبين الذي ترسمه المخابرات العالمية لتشيويه الإسلام، فالاسلام لن يُعرّف بقلم النهج السقيفي أو الاموي أو العباسي أبداً، بل يُعرّف بمنهج أئمة أهل البيت عليهم السلام.

ضرورة المعرفة والترويج للمشروع المهدي

الغايات الكبرى في مشروع الإمام المهدي هي بمثابة قواعد الوظائف في الغيبة الكبرى على الصعيد العقائدي، والفكري، والسياسي، وهذه المنظومة من البنود تمّ التأكيد عليها كثيرا في دعاء الندبة وفي أكثر الزيارات التي يُزار بها الإمام المهدي عليه السلام.

هذه المسائل ليست قضايا عابرة، بل هي أمر مهم، والتأكيد عليه كمجموعة ومنظومة له مغزى، ولا شك أن من وظائف الوسط العلمي الحوزوي في الدرجة الأولى الوعي بالمشروع المهدي، ومن ثم نشر هذا الوعي، من أجل أن لا تختلط هذه الغايات والكمالات بأعراف البشر الفاسدة، بل البصيرة بهذا الفاصل أمر في غاية الأهمية، وإلا والعياذ بالله الاعتقاد بمهدوية الثاني عشر لن تتحقق لنا وسيكون الإيمان والمعرفة به مجرد لقلقة لسان لا واقع لها، ولن نكون على هذا الصراط بدون البصيرة بهذه المنظومة.

فمن يريد أن يعرف إمام زمانه عليه السلام عليه معرفة هذه البنود الواردة فيه، وزيادة هذه المعرفة معناها الزيادة في الموالات والنصرة والتمسك به عليه السلام، فكأنما في خصوصية الإمام الثاني عشر دون بقية أهل البيت عليهم السلام ان له شؤون خاصة في الغيبة الكبرى والظهور، فإذا لم ينشد المؤمن معرفة وانقياداً وتمسكاً بهذه البنود فلن يتعرف على إمام زمانه.

ومن ثم تقع على عاتقنا مسؤولية كبيرة وهي فريضة الترويج لهذه البنود وإطلاق عملية تربوية وتعليمية وارشادية هادية لتنمية العقل البشري بما فيها من معرفة، وفي كثير من أسرار الروايات إذا ما أُنجزت هذه المهمة فإنها ستساعد في الظهور.

ربما نستخف بهذه المسؤولية أو نستهن بها ولكن هذه المرحلة هي من اهم مراحل الإعداد للظهور، ومن أعظم مراحل الإعداد العظيم لنصرة صاحب العصر والزمان عليه السلام، ولتوفير أرضية الظهور يجب نشر هذه البنود، وهذا ليس في الروايات فحسب بل جملة من التقارير المنشورة عن الغرب تقول لو قُدِّر لهذه الشعارات أن تنتشر ويهتف بها الناس لسلب ولاء هذه الشعوب عن أنظمتها، وهذا هو الانتصار الكبير للظهور المقدس، أن تهتف به الشعوب وتكون شعاراتها ومطلبها الجماهيري شخصه عليه السلام.

فالتمهيد لا يحتاج إلى دماء وحروب ساخنة، بل يحتاج إلى نشر هذه البنود، وهذا ما لم نقم به طيلة عشرة قرون.

حتى الباحثين الغربيين الذين لا يقولون بإمامة المهدي عليه السلام يقولون أن هناك سرٌّ خفيٌّ في صمود أتباعه، فلولا وجود داعمٍ أمني سري فإن هذه الجماعة ستنقرض بسبب سياسات القتل والتنكيل المفروضة ضدها من قِبَل الحكومات الاموية والعباسية والعثمانية والاستعمارية فيما بعد، ويأتون بأمثلة لجماعات وملل انقرضت نتيجة سياسة معينة مورست ضدها، بينما هذه الجماعة تنتشر وتتوسع وتمتد وتعملق، ومن غير المعقول أن يكون هذا الأمر صدفة.

إذن المغزى العظيم من هذه البنود المنشورة في الدعاء والزيارات

الأخرى بعد ان نقوم بالواجب الأول وهو معرفتها والتبصّر بها، ثم نهدي الآخرين إلى نورها ونشرها بين بني البشر وتجديرها فكرياً.

الوعي والبصيرة في مواجهة الحرب الإعلامية

وعلى ضوء المنهج المهدي يجب التنبيه إلى الأعراف الموجودة، وان المسؤولية الملقاة على الجميع سيما أهل العلم أن لا يلتبس عليهم أولاً الصائب من الفاسد من الأعراف البشرية تحت وطأة الضغط الإعلامي والشبهات والأفكار المختلفة، وقد ورد عن أهل بيت العصمة والطهارة أن الأشد من المنكر هو رؤية المنكر معروفاً والمعروف منكراً، وهذا بلاء عظيم^(١).

فدور الوعي العلمي والبصيرة بلحاظ بيئات البشر من المسؤوليات العظيمة الملقاة بالخصوص على كاهل الحوزة العلمية التابعة لأهل البيت عليهم السلام^(٢)، والوعي العلمي يجب ان لا يكون فيه مداهنة، صحيح أن

(١) روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: «كيف بكم إذا فسدت نساؤكم، وفسق شبابكم، ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر» فقيل له: ويكون ذلك يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله: «نعم». فقال: «كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر، ونهيتم عن المعروف» فقيل له: يا رسول الله ويكون ذلك؟ فقال: «نعم وشر من ذلك كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً؟». (المجلسي، بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ١٨١، ب ٢٥، ح ١).

(٢) عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنما شيعتنا أصحاب الأربعة الأعين: عينان في الرأس، وعينان في القلب، ألا والخلافتك كلهم كذلك، إلا أن الله عزَّ وجلَّ فتح أبصاركم وأعمى أبصارهم» (الكليني، فروع الكافي، ج ٨، ص ٢١٥).

المداراة ثلثي العقل، وضرورة المعاشرة بالحسنى مع الآخرين، لكن الوعي العلمي والبصيرة لا يرتبطان بالمداراة والمعاملة بالحسنى، فهذا الخلط إذا حصل فهو طامة كبرى.

يجب أن يكون المؤمن وهو تحت وطأة الحرب الإعلامية النفسية والناعمة التي قد لا يشعر بها قوياً وصلباً، وأن لا ينحني ويتراجع تحت ضغط اللوم بسبب طبيعة الضعف البشري لديه، وعليه التآسي بآل البيت عليهم السلام في ذلك فهم لا تأخذهم في الله لومة لائم^(١).

فالحرب النفسية والإعلامية أعظم تأثيراً في فكر الإنسان ووعيه من أي حرب أخرى، وفي المطارحات الفكرية هناك منهج خطير من قبل العدو وهو تعمية الحقيقة وطمسها، فينبغي على المؤمن أن يسير إلى الحقيقة بروية هادئة بعيداً عن الاستفزاز والتشنج، لأنه عند الغضب يفقد الإنسان بصيرة العقل، إلا إذا كان الغضب مسخّر للعقل.

الأئمة الماضين سلام الله عليهم فدوا بأنفسهم وأرواحهم الطاهرة وذهبوا إلى حدّ السيوف دون أن يهادنوا في الوعي، لأن الوعي إذا غاب غابت البصيرة تماماً، وفي بداية دعاء الندبة هذه الإشارة الواضحة «وَكُلُّ شَرَعَتْ لَهُ شَرِيعَةً، وَنَهَجَتْ لَهُ مِنْهَا جَاءً، وَتَخَيَّرَتْ لَهُ أَوْصِيَاءَ، مُسْتَحْفِظًا بَعْدَ مُسْتَحْفِظٍ مِنْ مُدَّةٍ إِلَى مُدَّةٍ، إِقَامَةً لِدِينِكَ، وَحُجَّةً عَلَى عِبَادِكَ، وَلِتَلَّا يَزُولَ

(١) من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام يصف فيها علاقته برسول الله صلى الله عليه وآله: «... وإني لمن قوم لا تأخذهم في الله لومة لائم سيماهم سيماء الصديقين، وكلامهم كلام الأبرار. عمار الليل ومنار النهار. متمسكون بحبل القرآن. يحيون سنن الله وسنن رسوله. لا يستكبرون ولا يعلون، ولا يغلون ولا يفسدون. قلوبهم في الجنان وأجسادهم في العمل». (نهج البلاغة، ج ٢، ص ١٥٧).

الْحَقُّ عَنْ مَقَرِّهِ وَيَغْلِبُ الْبَاطِلُ عَلَى أَهْلِهِ، وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا مُنْذِرًا وَأَقَمْتَ لَنَا عِلْمًا هَادِيًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى»^(١).

هذه الإشارة في دعاء الندبة هي أمر ضروري ومصيري، لأن المطلوب أن لا يكون هناك عمى في البصيرة فهو اخطر من عمى الأبصار، وهي زاوية مهمة جداً فلا يجب أن يكون هناك لبس في بطلان الباطل أو إحقاق الحق على أقل التقادير، نعم قد تكون هناك ضرورة للمواربة أو عدم ابراز الحق بدرجة معينة، ولكن لا بد من إبقاء قدر ما لأجل اظهار مسار الحق ومنهجاه.

والمسؤولية في الدرجة الأولى تقع على أهل العلم حتى لا تلبس الأعراف الفاسدة أو التي اختلطت صلاحها بفساد على العقل والوعي البشري فيتم التعامل معها على انها مثلى أو انها وصلت القمة في الصلاح. ويمكن ملاحظة ذلك من خلال الغاية التي ذكرت في دعاء الندبة الانفة الذكر، وأن إقامة الدين من خلال إقامة الحججة على العباد لتتير له الطريق وترشده نحو الصلاح حتى لا تُغلب العقول على بصيرتها، وهذا هو معنى لثلا يغلب الباطل على أهله.

في أصل التوحيد والنبوة والإمامة والمعاد وجملة من ثوابت الدين الأخرى هذا المقدار لا يمكن التسامح به فهو مسؤولية كبيرة وفيه فلسفة الاختبار والامتحان. سُنَّه اللهُ سبحانه وتعالى في البشر ليس إجبارهم ولكن لم يفوض إليهم مطلقاً بل هو أمر بين أمرين، وفي بداية دعاء الندبة تحدد الوظيفة الاجمالية من خلال البنود التفصيلية والتي يستعرضها الدعاء:

(١) مقطع من دعاء الندبة.

«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا جَرَى بِهِ قضاؤُكَ فِي أَوْلِيائِكَ الَّذِينَ اسْتَخَلَصْتَهُمْ لِنَفْسِكَ وَدِينِكَ... إلى ان يقول: وَقَدَّمْتَ لَهُمُ الذِّكْرَ الْعَلِيَّ وَالشَّاءَ الْجَلِيَّ، وَأَهْبَطْتَ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَتَكَ وَكَرَّمْتَهُمْ بِوَحْيِكَ، وَرَفَدْتَهُمْ بِعِلْمِكَ، وَجَعَلْتَهُمُ الذَّرِيعَةَ إِلَيْكَ وَالْوَسِيلَةَ إِلَى رِضْوَانِكَ، فَبَعْضُ أَسْكَنْتَهُ جَنَّاتِكَ إِلَى أَنْ أُخْرِجَتْهُ مِنْهَا، وَبَعْضُ حَمَلْتَهُ فِي فُلْكَ وَنَجَّيْتَهُ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ مِنَ الْهَلَكَةِ بِرَحْمَتِكَ...»^(١)

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصية لكميل بن زياد النخعي (ره): «... كذلك يموت العلم بموت حامله» ثم قال: «اللهم بلى لا تخلوا الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهر مشهور، وإما خائف مغمور لئلا تبطل حجج الله وبياناته»^(٢)، لذلك في الروايات عن الفريقين، وبالذات في تفاسير الإمامية في الاجماع اللطفي انه لا يمكن أن يكون في المحجة الظاهرة إمام كل البشر ليس هناك جماعة ليست هي على الحق وإلا أطبق الباطل على أهله.^(٣)

(١) مقطع من دعاء الندبة.

(٢) الشيخ محمد باقر المحمودي - نهج السعادة في مستدرک نهج البلاغة، ج ٨، ص ١٦.

(٣) في خطبة طويلة لأمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة قال فيها «اللهم لا بد لك من حجج في أرضك حجة بعد حجة على خلقك، يهدونهم إلى دينك، ويعلمونهم علمك لكيلا يتفرق أتباع أوليائك، ظاهر غير مطاع، أو مكنتم خائف يترقب، إن غاب عن الناس شخصهم في حال هدنتهم في دولة الباطل فلن يغيب عنهم مبعوث علمهم، وآدابهم في قلوب المؤمنين مثبتة، وهم بها عاملون، يأسون بما يستوحش منه المكذوبون، ويأباه المسرفون، بالله كلام يكال بلا ثمن لو كان من يسمعه بعقله فيعرفه ويؤمن به ويتبعه، وينهج نهجه فيفلح به؟ ثم يقول: فمن هذا؟ ولهذا يأرز العلم إذ لم يوجد حملة يحفظونه ويؤدونه كما يسمعون من العالم: ثم قال بعد كلام طويل في هذه الخطبة: اللهم وإنى لاعلم أن العلم لا يأرز كله، ولا ينقطع مواده فإنك لا تخلى أرضك من حجة على خلقك إما ظاهر يطاع =

ضرورة التوضيح أن أطروحة ومشروع القرآن وأهل البيت مستمرة في هداية البشرية فهي ليست تشريعات تاريخية اكل الدهر عليها وشرب، فإذا تسرب هذا الاعتقاد إلى النفوس فهو نكث!، فمن يشهد بالشهادات الثلاث أما أن يثبت عليها، أو ينكث عهده، لأن الشهادات الثلاث معناها الوهية الباري سبحانه وخالقيته وحاكميته، لأننا لا نقول بالتجربة البشرية، بل بما هو أكفأ وأوعى.

أو خائف مغمور ليس بمطاع لكيلا تبطل حجتك ويضل أولياؤك بعد إذ هديتهم - ثم تمام الخطبة» (الكليني، الكافي، ج ١، كتاب الحجّة، ب ٨٨، ص ٣٣٥).

حرب المعلومات المضللة

أحد أساليب الحروب الأمنية هي المعلومات المضللة، بأن يقوم كل طرف بضخ معلومات للطرف الآخر وهو يظن أنها معلومات حقيقية، لكنها في حقيقة الأمر معلومات مضللة.

هذه أحد آليات تلك الحروب، وكل الدول تعترف في حربها مع بعضها البعض أنها تقع فريسة المعلومات المضللة، أما صاحب الزمان فإنه لا يخدع، ومنذ ألف سنة لم يستطع أحد أن يفعل ذلك.

من الأشياء المهمة في الأمن وعلومه الاقتصادية والتجارية أو العسكرية هو تمييز المعلومات المضللة عن الحقيقية، وهذا من أصعب الأمور وبه يتم الخداع.

في حين ألف سنة لم يستطع أحد ان يسجل اختراقاً أمنياً واحداً على صاحب العصر والزمان عليه السلام، مع أن ادعاء المهودية والسفارة كُثر والعباسية أيضاً كُثر - العباسية هم الموالون الذين يصلون إلى السلطة وأول ما يفعلوه بعد الوصول هو الانقضاض على أهل البيت عليهم السلام - حتى هؤلاء لم يستطيعوا أن يغرّوا صاحب العصر والزمان عَجَل الله فرجه.

وهذا يعني أن لديه قوة عملاقة، مع تطور العلوم والخداع الأمني،

والملاحظات الأمنية أيضاً تطوّرت، ومع ذلك ما استطاعوا أن يخترقوا حتى الأجهزة المعلنة لمدرسة أئمة أهل البيت عليهم السلام وهي الحوزة العلمية. قتلوا مئات المراجع والمجتهدين والخطباء، وآلاف الطلبة من العلوم الدينية، ومع ذلك «جهاز الاعتبار» في الحوزة العلمية لم يستطيعوا أن يتسلقوا إليه.

أتباع أهل البيت عليهم السلام قلعة منيعة بالقيم، والقيم أعظم حصن حتى في المستوى الظاهر، لذلك الحرب الثقافية الآن على هذه القلاع الظاهرة غير الخفية لصاحب العصر والزمان عليه السلام وهي الحوزات العلمية، يحاولون الآن من الداخل هدم الحوزات العلمية، ولن يستطيعوا لذلك.

مع أنه لا أحد يدّعي أن العلماء معصومون، لكن أن يأتي من يعتبر العلماء كفرة! أو أنهم أعداء الدين! فهذا لعمرى أمر عجيب^(١). النقد ضمن الاجتهاد والتقليد لا بأس، أما نقدهم لغرض التكفير؟! هذه أصابع أجنبية واضحة لأعداء مدرسة أهل البيت وأعداء صاحب العصر والزمان. لم يغالي أحد من الإمامية بأن العلماء معصومون ليس فيهم زلل، فالزلل شيء وتكفيرهم واستعداد الآخرين ضدهم شيء آخر، خلط الأوراق بهذه الطريقة من أجل ماذا؟ لكي يهدموا هذا الصرح العظيم؟! وأنى لهم ذلك.

(١) ورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال «لولا من يبقى بعد غيبة قائمكم من العلماء الداعين إليه والدالين عليه والذابين عن دينه بحجج الله والمنقذين لضعفاء عباد الله من شباك ابليس ومردته ومن فخاخ النواصب لما بقي أحد إلا ارتد عن دين الله، ولكنهم الذين يمسون أزمة قلوب ضعفاء الشيعة كما يمسون صاحب السفينة سكانها اولئك هم الأفضلون عند الله عز وجل» (الطبرسي، الاحتجاج، ج ٢، ص ٢٦٠).

الدولة المهيمنة بالعلم والبصيرة

إحدى الغايات والبرامج الرئيسية في مشروع الإمام المهدي عليه السلام أنه لا يقتصر على تأسيس الدولة فقط، بل حسب التأكيد النبوي المتواتر عند الفريقين رأس أهداف المشروع المهدي أمر عظيم، فهو يريد دولة مهيمنة على كل النظام العالمي وراعدة لكل أنظمة البغي والجور، فلا تسمح هذه الدولة لأحد بالبغي أو الجور، فهي تشلّ الجور وتعطلّ الظلم، فيقام العدل، وهذا كله بقوة الردع بسبب حضور الحاضر ووجود الناصر.

الأمر المهم الذي سلّط عليه الضوء من قبل سيد الأنبياء في خصوصية نهضة ودولة الإمام المهدي عليه السلام أنه يملك من القوة إلى درجة أنه لا يبني دولة تحمي نفسها فحسب، بل دولة توجب ردع كل القوى عن أي جور أو ظلم.

الأساس في دولة الظهور أن تكون الدولة المهيمنة، وهذا هو معنى «يملاً الأرض قسطاً وعدلاً»، وهذا مؤشر واضح أن الأنظمة العالمية التي تأتي قبل دولة الظهور تزداد ظلماً وجوراً، بل الآن ترى النظام العالمي المهيمن على الكرة الأرضية يزداد جوراً وبغياً، والإحصائيات تشير إلى فظاعة البغي والجور والعدوان والظلم والفسق والفجور وكل شيء سيء، أرقام مرعبة تكشف هول الكارثة الاجتماعية والسياسية السائدة.

بملاحظة السقوط الأخلاقي وسفك الدماء والعنف المستشري الآن
تدرك ان الوضع أشدّ من الجاهلية الأولى.

وقد ذكر في جُملة من ملاحم الروايات ازدياد الخداع والمكر
والحيلَة إلى درجة تجعل العاقل حيراناً كما تشير الروايات إلى ذلك، يعني
في هذا الزمان المؤمن يحتاج إلى تدبير وحذر أكثر بأضعاف من السابق.
ولكن في نفس الوقت - من البنود التي رُكِّز عليها في دولة الظهور
- انه يزداد العلم والبصيرة بأضعاف عما سبق.

بسبب ازدياد المكر والخديعة من الضروري ترقية الوعي والعلم
والمعرفة إلى درجات اعلى وارقى.

هناك روايات مذكورة عن أهل البيت عليهم السلام، وهذه الروايات هي
إشارة للأيات، فخط الظلام لن يقف عند خداع ما قبل الظهور، بل الخداع
والمكر والكيد مرشح للأزدياد أكثر فأكثر حتى ما بعد الظهور وفي دولة
الظهور، وما بعد دولة الظهور من بعد الرجعة، إلا أنه يقابله إزدياد عظيم
في درجة الوعي والبصيرة.

فنحن في وعد منافسة جديدة بين قوى الجهل والظلام وقوى الحق
والنور، وهناك تعبير متكرر وارد عن أهل البيت صلوات الله عليهم أنه هل
في الرجعة كفر؟ قال أمير المؤمنين عليه السلام: «نعم والله، لكفرة في الرجعة
أشدّ من كفرات قبلها»^(١).

ولهذا المطلب أمثلة حسب بيانات القرآن والعترَة، فأبليس كنموذج

(١) المجلسي، بحار الانوار، ج ٥٢، ص ٤٢.

بلغ من الرقي المعنوي أعلى من بلعم بن باعورا، وكذلك اعلى من السامري الذي كان نموذج آخر لا يختلف عن بلعم بن باعورا وكان من الخواص ولكنه انحرف عن الطريق، إضافة إلى نماذج أخرى موجودة في الوحي.

إبليس بلغ ما بعد الدنيا والبرزخ والرجعة، وبلغ من الملكوت شيء عظيم، ومع ذلك انتكس وانزلق، حتى في الروايات أنه كان يصلّي في صفوف الكرويين في أطراف الملكوت، فطريق التنافس بين خط النور وخط الظلام مفتوح ومرشح لما هو أشد وأعظم - وهذا من المفروض أن لا يخيفنا، بل العكس يثير العزيمة والهمة أكثر.

والمحصلة انه في دولة الظهور ذكرت هذه الخاصية لصاحب الزمان عليه السلام أنه سيزيد من حجم النور والبصيرة والعلم، مما يدل على أن الصراع ليس فقط مادياً وبدنياً بل هو أيضاً صراع روحي وعقلي وفكري، وأن دولة الظهور كما ترتقي في الأمور المادية لا بد أن تحقق التقدم أيضاً في الأمور المعنوية الروحية والعلمية، ووردت نماذج تشير إلى أن كثير من الأعياب الشياطين والجن ستكشف في دولة الظهور ببركات ذلك العلم وتلك البصيرة.

يعني هذا النظام الموجود في قوى الظلام الذي يشير إليه القرآن الكريم: ﴿يَبْنِيءَ آدَمَ لَا يَفْنَيْنَكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهْمًا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ هذا النظام نسبياً سيتحطم.

فعندما يقال أنه يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، فهذا يعني على كل الأصعدة المادية والعلمية والروحية.

إذن التمهيد لبناء دولة الظهور أو المساهمة في ذلك التمهيد يجب أن يشمل كل الجوانب، وهذا يعني أن فراسة المؤمن وفطنته لا بد أن تزداد أكثر فأكثر، فإذا قنع بالموجود فسوف يكون قد تأخر عن ركب الصراع بين الخير والشر.

الفصل الثالث عشر

العدالة مطلب عالمي

- قراءة جديدة لمنظومة العدل
- أين تكمن سعادة البشر
- القادر على بسط العدل
- الأصلاح لقيادة العالم
- معنى «يملاها قسطاً وعدلاً»

قراءة جديدة لمنظومة العدل

منظومة الدين لا تعتدل ولا تتزن إلا بنحو مضموني مجموعي، هذه طبيعته، وهذا هو أحد تعاريف العدل والعدالة.

الكثير من نظريات البشر لمعنى العدالة لا تقر مبدأ التساوي - ربما عرف قديماً بمعنى التساوي - أما حديثاً بعد ان وصل البشر بنموه العلمي ونقاشاته الفكرية إلى درجة متطورة توصل إلى معنى آخر للعدالة وهو «التوازن» - أحد التعاريف الجديدة للعدل - فهو محور واحد لكن بهياكل مختلفة.

ولا زال هناك جدل علمي في تعريف العدالة، في الشيوعية - مثلاً - وجدوا في تعريفهم للعدالة سلبيات فرفعوا اليد عنها إلى الاشتراكية، ثم رأوا سلبيات أخرى في تعريف الاشتراكية للعدالة فانتقلوا إلى السوق الحرة، ثم سلبيات أخرى فانتقلوا إلى البورصة، ثم رأوا سلبيات أخرى فانتقلوا إلى التجارة العالمية، والبشرية إلى الآن في لغط كبير في تحديد النظام العام للعدالة.

واحد الشواهد على ذلك نظام الانتخابات في العالم، فهو غير متفق عليه حتى بين الدول التي تعمل به، فلو أردت دراسة نظام السلطة في تلك الدول تجده مختلف وان كانت هناك بعض المشتركات، وهذا يعني ان

البشر إلى الآن غير متفقين على تنظير كُليّ لآليات تحقيق العدل والعدالة ولا آليات الوصول إلى السلطة.

الغرب الآن يعتمد على مراكز المعلومات والإحصاء والدراسات والاستطلاعات، هذه المراكز هي التي ترسم نظام وسياسة الدولة، وهي التي ترسم ملفات البرلمان والنظام القضائي.

يعني السلطات الثلاث القضائية والتشريعية والتنفيذية تحت سلطة مراكز الدراسات، فيلزهم في أي خطوة أن تكون مقنّنة وليست فقط في الدستور والمحكمة الدستورية، بل إن الذي يعطي الخارطة هي مراكز الدراسات، فليس من حق حفنة من الرجال سواء كانوا قضاة أو برلمانيين أو وزراء أن يمتلكوا أمر الأمة.

هم وصلوا إلى آليات أخرى غير الانتخابات وهو العلم الجمعي، والرقيب الأكبر ليس البرلمان ولا مؤسسات الدولة الأخرى، بل مراكز الدراسات هي الرقيب - وإن كانت نسبية - يعني العلم والعقل الجمعيين.

فالعدالة عند البشر والمشاركة وصلت الآن إلى هذا المستوى، لأن التوازن يأخذ دائماً طابعاً جمعياً.

هذا المعنى المنظومي للعدل والعدالة سيوضح لنا كيف أن الإمام المهدي عليه السلام سيملاًها قسطاً وعدلاً بعد ان مُلئت ظلماً وجوراً.

أين تكمن سعادة البشر

الرؤية إلى سعادة البشر الان في النظام العالمي العادل والمُوحد، لأن الفطرة البشرية تدعو إلى النظام الموحد الذي يساوي بين بني البشر ويتعامل مع الجميع بالسوية دون تميّز عنصري أو عرقي.

فالبشرية الآن ترى ان النظام الموحد أمر مهم وضروري، ولكن أي أطروحة تكون قادرة على إدارة العالم؟

هناك اعتراضات واضحة على نظام العدالة الذي تُدار به الأمم المتحدة من قبل الدول الكبرى، بل يمكن ان تكون التسمية الصحيحة لها «منظمة عصابات الأمم!» ويكفي النظر إلى الشعوب المحرومة وكيف يتم اضطهادها باسم الشرعية الدولية!. والحال هذه فان الدين الذي تدّعيه الأمم المتحدة ليس موقفاً لحكم البشر، لأن الجميع الان يعترف بأن النظام الموجود في مؤسسات الأمم المتحدة غير عادل، فهي عصابات استخبارية للدول العظمى لكي تُشرعن ظلم الأغنياء، حروب تقام من اجل النفط والغاز، تُباد بها شعوب تحت ذرائع مختلفة، ومنظمة الأمم المتحدة تُشرعن ذلك الظلم، وعليه فمن الخطأ أن يُنظر إلى الأمم المتحدة انها مدنية، بل هي دينية يُداين بها بني البشر، فبعض الأديان تجبر الآخرين على اعتناقها، وهنا إجبار على المواثيق الدولية الظالمة فإن رفض أحد ما

هذا الظلم يُتهم بمعاداة الشرعية الدولية والإرهاب، وما إلى ذلك من التهم الجاهزة.

هذه اللغة العالمية للنظام العادل هي في فقرات دعاء الندبة وقوانينها، «أَيْنَ جَامِعُ الْكَلِمَةِ عَلَى التَّقْوَى؟ أَيْنَ بَابُ اللَّهِ الَّذِي مِنْهُ يُؤْتَى؟ أَيْنَ وَجْهُ اللَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ يَتَوَجَّهُ الْأَوْلِيَاءُ؟ أَيْنَ السَّبَبُ الْمُتَّصِلُ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ؟ أَيْنَ صَاحِبُ يَوْمِ الْفَتْحِ وَنَاشِرُ رَايَةِ الْهُدَى؟ أَيْنَ مُؤَلَّفُ شَمْلِ الصَّلَاحِ وَالرِّضَا؟»^(١)

والفرق واضح بين مشروع الدولة الإلهية وبين مشروع الأمم المتحدة! أصلاً لا يمكن المقارنة بين من يملأها قسطاً وعدلاً وبين من يملأها ظلماً وجوراً.

«السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مِيثَاقَ اللَّهِ الَّذِي أَخَذَهُ وَوَكَّدَهُ السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا وَعْدَ اللَّهِ الَّذِي صَمِنَهُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْعَلَمُ الْمَنْصُوبُ وَالْعِلْمُ الْمَضْبُوبُ وَالْعَوْتُ وَالرَّحْمَةُ الْوَاسِعَةُ وَعَدَاءٌ غَيْرَ مَكْدُوبٍ»^(٢)

البشرية الآن بقناعتها وفطرتها لديها ميل نحو وحدة النظام العالمي، والوحي القرآني دعاها إلى ذلك: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٣) والكلمة السواء يعني النظام الذي يشمل عدله الجميع.

(١) مقطع من دعاء الندبة.

(٢) مقطع من زيارة آل ياسين.

(٣) سورة آل عمران، الآية ٦٤.

يجب علينا أن نعيد النظر في الكثير من المفردات لكي تكتمل
وتتضح لنا الصورة في المسير إلى مُنقذ البشرية ﷺ.

القادر على بسط العدل

القرآن الكريم يبين أن العدل المنظومي العالمي في كل العوالم الكونية - وليس الأرض فقط - لا يمكن أن يقوم به إلا أهل البيت حصراً.

في قوله تعالى: ﴿ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ^(١) وحسب التفسير فإن فيء الأرض هي ثروات الأرض كلها، وهذه الثروات الولي والمدبر لها هو الله سبحانه وتعالى، ورسوله الكريم عليه السلام، وذوي القربى - يعني الأئمة من بعده -، أما اليتامى والمساكين وابن السبيل فقد ذكروا في الآية بدون لام ليشير إلى أنهم مصرف لهذه الأموال، وليست لهم ولاية.

لن يكون هناك من يقدر على إيجاد العدل المنشود في المعمورة وبين بي البشر سواء كان من السقيفة، أو من الأنظمة الرأسمالية أو الاشتراكية أو أي نظام آخر خلا أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام فهم القادرون على ذلك، وإحدى وظائف صاحب العصر والزمان أنه ناصر

(١) سورة الحشر، الآية ٧.

لمن لا يجد ناصرًا إلا الله، فأبي شعب أو مكُون مغلوب على أمره فهو ناصره، والدولة العالمية لا يقيمها إلا سيد الأنبياء وآل بيته صلوات الله عليهم أجمعين.

فهنا الفيء هو فيء الأرض كلها، يعني عالمية الإدارة، يعني أعراف البشر ونظرياتهم ومدارسهم لن تستطيع أن تقترب من هذا الأمل المنشود وهو إقامة العدل في الأرض، لأن الأعراف والمواثيق والنظم البشرية - سواء من خلال الأمم المتحدة أو المواثيق الدولية التي هي خارج اطار الأمم المتحدة - لا تستطيع ان تصل ولو إلى نصف العدل المنشود، وهي أبعد ما تكون عن هدف البشرية.

وحسب النص الوحياني فإنه ﷺ هو من سيملاها قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً، وهذا لا يعني أن وظيفة المؤمنين في زمن الغيبة كما يروج أصحاب الأفكار المنحرفة التقاعس وعدم السعي للتمهيد وأنه لتعجيل الفرج ان نترك الفساد ينتشر فهذا فكر شيطاني وانحراف عن جادة الصواب.

بالعكس هذا المنطق يزيدنا مسؤولية بأن لا نهادن ولا نستسلم لأي عُرف بشري، فرغم تنامي اماكنيات البشر وتنامي عقولهم إلا أنه لا يزيدهم عن العدل والقسط إلا بُعداً، وقد بينها أهل البيت ﷺ إن الذي يسير من دون إمام هدى لا تزيده كثرة السير إلا بُعداً^(١).

(١) عَنْ طَلْحَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ (عليه السَّلَام) يَقُولُ : « الْعَامِلُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ، لَا يَزِيدُهُ سُرْعَةُ السَّيْرِ إِلَّا بُعْدًا » (الكليني، الكافي، ج ١، ص ٤٣، الحديث : ١ من باب من عمل بغير علم).

إذا لم نجعل ربّاني سفينة البشرية صاحب العصر والزمان عليه السلام فإن سيرها في بحور الفتن والظلمات لا يزيدها عن مقصدها إلا بُعداً، بدليل أن الحروب الآن تزداد ضراوة وفتكاً لأسباب واهية وضحاياها بالملايين.

الأصلح لقيادة العالم

في منطق مدرسة أئمة أهل البيت عليهم السلام أن الرئيس الحاكم للنظام العالمي ولكل شعوب الأرض ممتنع أن يكون الفقيه أو المرجع أو النائب الخاص.

المؤهل لرئاسة النظام العالمي الذي يعبر عنه الشيعة الإمامية الاثني عشرية هو من بيده الجهاد الابتدائي.

وهو لم يشرّع إلا لسيد الأنبياء عليه السلام ووزرائه من بعده، وهم الأئمة المعصومون سلام الله عليهم أجمعين.

رئاسة النظام العالمي لا يصلح لها عصمة عامة مثل التي كانت عند إبراهيم الخليل عليه السلام فرئاسة النظام العالمي يحتاج إلى دائرة أعظم من دائرة أولي العزم، لأن إدارة العالم يحتاج إلى علم فوق علم الأنبياء وأولي العزم.

وإذا نظرنا إلى قصة النبي موسى والخضر عليه السلام وما سطره القرآن حولهما، وكيف ان موسى لم يصبر على ما لم يعلم، سنعرف عندها آل ياسين ماذا يعنون؟ قصص هي نور تبين للإنسان شأن الدولة الهاشمية، وكلما ازدادت الصلاحيات عظمت العصمة، فالعصمة وثيقة لكن التوثيق بالعصمة مختلف.

والتوثيق لتلك العقبة الكؤود، وهي كيف تثبت للناس ان هذا الرجل كفوء لإدارة العالم وأنه القادر على حل كل مشاكل الشعوب إن لم يكن يمتلك علماً إحاطياً.

هنا يأتي دور أتباع أهل البيت عليهم السلام وضرورة الفات نظر البشرية إلى فضائل أهل البيت عليهم السلام لكي يعرف الناس كفاءتهم لإدارة العالم.

هنا يجب الالتفات إلى فضائل أهل البيت عليهم السلام التي يركز عليها القرآن الكريم، لكي نبشّر الناس ان الرجل الكفوء لإدارة العالم هو الإمام المهدي عليه السلام.

وهذه ليست عواطف ترنمت بها طائفة معينة، بل هي مبادئ ينادي بها القرآن الكريم آناء الليل واطراف النهار، فالناس إذا لم يثقوا بكفاءة القائد، فلن يكون هناك ظهور، لأنه سبحانه وتعالى أبي أن يكون في أمره إكراه، بل هو أمر بين أمرين، إذا لم يقتنع البشر ولم يفهموا كفاءة هذا القائد، ولم يعرفوا مشروعه ولا بنود ذلك المشروع، كيف يتبعوه؟

يجب ترجمة هذه النصوص التي وردت فيها فضائل أهل البيت عليهم السلام إلى لغات العالم المختلفة ليعلم الناس انها حق وليست غنوصية قديمة. وتركيز القرآن على الفضائل، لا لأجل دغدغة العواطف، بل هو نور لنا لنزداد وعياً وبصيرة، ومجرد ملاحظة كلمة (فضلنا) كم مرة وردت في القرآن ولماذا يؤكد ويجذّر القرآن الكريم منطق الفضائل في من اصطفاهم الله؟: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١)، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ الَّذِينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١﴾ ، ﴿٢﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ
عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمُ
مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٢﴾ .

هذه الترانيم القرآنية نور للبشرية وفرج لهم من الويلات والحروب
المدمّرة، وهي صراط النجاة وسعادة البشر.

(١) سورة الإسراء، الآية ٥٥.

(٢) سورة النساء، الآية ٥٤.

معنى «يملأها قسطاً وعدلاً»

ورد عن النبي الأكرم عليه السلام «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج رجل من ولدي يملؤها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً»^(١)، فما معنى يملأها قسطاً وعدلاً؟

لنذكر هذا الأمر أولاً وهو لنفس المعنى فقد ورد عندنا في مستفيض الروايات ستكون بعد دولة صاحب العصر والزمان عهد «دابة الأرض»، دابة الأرض بنص القرآن الكريم ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾^(٢) فهي مرحلة من المراحل بعد دولة الإمام المهدي، وبنصوص روايات الفريقين، وهي متواترة عند الطرفين^(٣).

وخصائص هذا العهد من دابة الأرض في روايات الفريقين - والذي

(١) كمال الدين ص ٣١٧ باب ٣٠، ح ٤.

(٢) سورة النمل، الآية ٨٢.

(٣) عن العامة رواها ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده المتصل عن أبي هريرة قال «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى وخاتم سليمان.....» (تفسير ابن أبي حاتم، سورة النمل، مجلد ١١، ص ٢٠٣ / سنن ابن ماجه، ج ٢، ص ١٣٥١، كتاب الفتن، باب دابة الأرض / سنن الترمذي، ج ٥، ص ٢١، ح ٣٢٤٠.... وآخرون).

هو من أبواب الرجعة - أن حكومته أعظم نوراً وهداية من دولة الظهور، مع إنه في دولة الظهور يملأها قسطاً وعدلاً. وفي هذه الحال ما معنى يملأها قسطاً وعدلاً؟

معنى «الملاء» بقريظة جملة من السياقات القرآنية - في موارد عديدة - المراد به إذا أصبحت دولة عظمى تهيمن على دول وشعوب أخرى.

فإذا صار النظام العالمي بيد دولة، فتلك الهيمنة في الأرض هو ملء لها، فإن كان الزمام بيد الخير فهو ملء للخير، وإن كان بيد دولة الشر فهو ملء للشر، فمعنى الملء بالدقة هو عبارة عن الهيمنة، وليس ما يتبادر إلى الذهن شبيهه ملء الكأس بالماء.

«يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملأت ظلماً وجوراً» هذا هو المقصود لا ان الخير غير موجود، فكيف يكون ذلك والله سبحانه وتعالى في محكم القرآن أخبرنا بأنه ستبقى في الأرض قواعد نور إلى يوم القيامة: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾^(١).

إذن من الثوابت أن هذا النور سيبقى إلى يوم القيامة، مراقد أهل البيت عليهم السلام نور في الأرض، ومع ذلك تملأ الأرض ظلماً بهذا المعنى، لأن الهيمنة هي لأولئك الظالمون.

دولة الظهور التي سينشئها المهدي عليه السلام من نصيبها ان تكون دولة عظمى، وهي صاحبة القول الفصل في الأرض، وليس هناك دولة تضاهيها قوة وهيمنة.

إذن من الخصائص المهمة في الدولة المهدوية انها دولة عظمى، مع ملاحظة أمر مهم في تلك المسألة، وهي أن النبي عليه السلام لم يبتدأ بحرب أبداً، وهكذا أمير المؤمنين عليه السلام من بعده «أكره أن أبدأهم بحرب» فهم يحاورون إلى الف سنة ولا يبدؤون بحرب! هذا هو منطق آل البيت سلام الله عليهم، بخلاف منطق الذين يتأرجحون بين التكفير والحكم بالردة، وحروب الردة، وما إلى ذلك: ﴿يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا نَقُولُوا لِمَنْ آَلَفْنَا إِلَيْكُمْ أَسَلْتُمْ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبَتُّعْتُمْ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنْ آَلَفْنَا عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(١) وهذا هو الفرق بين المنهجين.

نعم هو يصطدم مع المعتدي لكنه لا يبدأ بقتال، يعني دولة ردع، وهنا تكمن فلسفة القوة في القرآن الكريم وفي منطق أهل البيت.

القوة في هذه الفلسفة ليست للعدوان والإكراه، بل هي فقط لردع من يعتدى وليست لردع المسالم، وهذا المنطق لا يستطيع تطبيقه إلا أهل البيت عليهم السلام، فالمسالم أياً كان فإنه لا يُعامل بالقوة أبداً.

أما هداية البشرية فهي على نفس الوتيرة المحمدية الأصيلة ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٢) هذا هو منطق القرآن وعِده أهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين.

(١) سورة النساء، الآية ٩٤.

(٢) سورة النحل، الآية ١٢٥.

الفصل الرابع عشر

بناء الأعراف الصالحة

- لا إقرار للأنظمة السياسية والأعراف المنحرفة
- السعي نحو الأعراف الصالحة
- بين القاعدة العقلية والقاعدة العرفية
- دور الأعراف المهدوية في تمييز الكمال الحقيقي
- نشر الأعراف المهدوية الصالحة

لا إقرار للأنظمة السياسية والأعراف المنحرفة

من الأبعاد التي نلمسها في دعاء الندبة وفي بقية الأدعية والزيارات الخاصة بصاحب العصر والزمان عليه السلام وهي مستمرة باستمرار غيبته وخفائه أنه صلوات الله عليه لا يعترف بأي نظام من الأنظمة السياسية، ويخرج وليس في عنقه بيعة لأحد قط ^(١).

وعدم البيعة ليس فقط للأنظمة السياسية، بل حتى لمكوّن من المكونات، أو لعُرف من الأعراف ^(٢).

فلو قيل عن المواثيق الدولية، هل يخرج وهو مقرّر لها؟ نقول بمقدار انطباق تلك المواثيق على سُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، أما إذا لم تنطبق فهو حتماً لن يقرّها، كذلك الأعراف والقيم المجتمعية والاجتماعية التي تصالحت عليها المجتمعات.

وربما فئات من المؤمنين تواجه صاحب العصر والزمان عليه السلام بالقول:

(١) عن ابن أبي عمير عن جميل بن صالح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يخرج القائم وليس في عنقه بيعة لحد. (المجلسي، بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٩٥).

(٢) عن ابن أبي عمير عن سعيد بن غزوان، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: صاحب هذا الأمر تعمى ولادته على (هذا) الخلق لثلاثين يوماً في عنقه بيعة إذا خرج. (المصدر نفسه).

إرجع يا بن رسول الله لا حاجة لنا بك^(١)! لأنهم ألفوا أعرافاً بشرية وبنوا عليها، والإمام لا يقر بها.

(١) عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال في وصفه لحال الإمام عليه السلام حالما يصل إلى الكوفة: يسير إلى الكوفة فيخرج منها ستة عشر ألفاً من البترية شاكين في السلاح، قراء القرآن، فقهاء في الدين، قد قرّحوا جباههم، وسمّروا ساماتهم، وعمّمهم النفاق، وكلهم يقولون: يا بن فاطمة ارجع لا حاجة لنا فيك، فيضع السيف فيهم على ظهر النجف عشية الاثنين من العصر إلى العشاء، فيقتلهم أسرع من جزر جزور، فلا يفوت منهم رجل، ولا يصاب من أصحابه أحد. (أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دلائل الإمامة، ص ٢٣٩).

السعي نحو الأعراف الصالحة

حسب منطق دعاء الندبة وغيره من الأدعية والزيارات أن هذه الأعراف البشرية الصحيح منها ناقص فضلاً عن السقيم، فلا يظن أحداً أن الكمال البشري هو العقلنة الاجتماعية التي وصل إليها العقل الآن، وهناك الكثير من الكتابات في هذا السياق وهذا ليس بصحيح، لأن العُرف المنشود الذي يريد أن يرسمه ﷺ عرف أرقى وأعظم من هذا الموجود.

هو يريد أن يرسم العُرف الإلهي، ويجب أن لا نفكر أن هذا الذي وصل إليه العقل البشري هو قمة المسير، كذلك يجب أن لا ندعي أو نعتقد أن البنود الموجودة في دعاء الندبة أو في الروايات أو الأدعية والزيارات المرتبطة به ﷺ نستطيع أن نجد كل فلسفتها الآن، لأن «دين الله لا يُصاب بالعقول»^(١).

(١) عن عبدالله بن الفضل الهاشمي قال : سمعت الصادق جعفر بن محمد ﷺ يقول : إن لصاحب هذا الأمر غيبة لا بد منها يرتاب فيها كل مبطل، فقلت له : ولم جعلت فداك ؟ قال : لأمر لم يؤذن لنا في كشفه لكم، قلت : فما وجه الحكمة في غيبته ؟ فقال : وجه الحكمة في غيبته وجه الحكمة في غيبات من تقدمه من حجج الله تعالى ذكره، إن وجه الحكمة في ذلك لا ينكشف إلا بعد ظهوره كما لا ينكشف وجه الحكمة لما أتاه الخضر ﷺ من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، لموسى ﷺ إلا وقت افتراقهما.

فلو كان العُرف البشري صالحاً للحياة فما هو الداعي للظهور، ومنطق «إرجع يا ابن فاطمة لا حاجة لنا بك»، هو خطاب فئة من المؤمنين!، وكأن عقولنا البشري كفيلاً بأن يرسم سعادة البشرية؟!

وهذا نفس ما قيل أمام رسول الله صلى الله عليه وآله «حسبنا كتاب الله»! عندما قال «أتوني بدواة لأكتب لكم كتاب لن تضلّوا بعدي ابداً»^(١).

وهذا المنطق برهان واضح بأننا في حاجة لمن يرسم لنا العرف الإلهي، لأنه حتى العدالة التي ينظرها الفقيه لنفسه في الحقيقة هي عدالة ظاهرية لأنه لا يحيط بكل الاحكام، لا في الشبهة الحكمية، ولا في الشبهة الموضوعية.

بدليل قصة موسى والخضر عليهما السلام التي وردت في القرآن الكريم، مع ان موسى عليه السلام نبي ومن أولي العزم إلا أنه يجهل أموراً كان الخضر عليه السلام يعلم بها، وهذا ليس معناه عدم حجّة النبي موسى عليه السلام، بل إن الحجج الاصفائية الإلهية أنواع ودرجات، وهذا الذي أراد القرآن الكريم أن يخبرنا به، فالذي قام به الخضر كما يُبين أئمة أهل البيت عليهم السلام في الشبهة

يا ابن الفضل إن هذا الأمر أمر من أمر الله، وسر من سر الله، وغيب من غيب الله ومتى علمنا أنه عز وجل حكيم، صدقنا بأن أفعاله كلها حكمة، وإن كان وجهها غير منكشف لنا. (المجلسي، بحار الانوار، ج ٥٢، ص ٩٢).

(١) حدثنا يحيى بن سليمان قال حدثني ابن وهب قال أخبرني يونس عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال لما اشتد بالنبي صلى الله عليه (وآله) وسلم وجعه قال اتوني بكتاب أكتب لكم كتابا لا تضلّوا بعده قال عمر إن النبي صلى الله عليه (وآله) وسلم غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا فاختلفوا وكثر اللغظ قال قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع فخرج ابن عباس يقول إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كتابه (البخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم، ح ١١٤).

الموضوعية، يعني في التطبيق قام بأمر مصيرية لم تكن باحاطة العلم اللدني للنبي موسى عليه السلام.

وما قام به الخضر ليس أمراً عادياً، فلولا قتل الغلام لحرمت البشرية من سبعين نبياً كما ورد في الروايات ^(١)، والواضح ان هذا أمر مصيري وليس هامشي.

فإذا كان النبي موسى وهو مسدد هكذا - وبلا شك أن الأنبياء منزّهون عن الخطأ لكنهم على مراتب - فكيف بالفقهاء أو الرواة أو الساسة المؤمنين؟

إذن لولا الحجّة لساخت الأرض بأهلها، يعني القطب اللولبي الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة بتسديد من الله هو الإمام المعصوم.

فالعدل والعدالة بشكل مطلق في الشبهة الحكمية والشبهة الموضوعية حتى في اكبر الكبائر في الملاكات يحيط بها الإمام المعصوم ^(٢)، أما البقية فيقومون بالمسؤولية بحسب وسعهم وقدرتهم، شكر الله سعيهم.

(١) عَنِ الْحَسَنِ بْنِ سَعِيدِ اللَّخْمِيِّ، قَالَ: وَوُلِدَ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِنَا جَارِيَةٌ، فَدَخَلَ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، فَرَأَاهُ مُتَسَخِّطًا.

فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَوْحَى إِلَيْكَ أَنْ أَخْتَارَ لَكَ أَوْ تَخْتَارَ لِنَفْسِكَ؟ مَا كُنْتَ تَقُولُ؟»
قَالَ: كُنْتُ أَقُولُ يَا رَبِّ تَخْتَارُ لِي.

قَالَ: «فَإِنَّ اللَّهَ قَدِ اخْتَارَ لَكَ، - قَالَ - ثُمَّ قَالَ إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْعَالِمُ الَّذِي كَانَ مَعَ مُوسَى عليه السلام وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَارْزُقْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾ [الكهف: ٨١] أُبَدِّلَهُمَا اللَّهُ بِهِ جَارِيَةٌ وَلَكِنَّ سَبْعِينَ نَبِيًّا». (الكليني، الكافي، ج ٦، ص ٦).

(٢) عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «يا أبا عبيدة، إذا قام قائم آل محمد عليه السلام، حكم بحكم داود وسليمان عليهما السلام، لا يسأل بيّنة» (الكليني، الكافي: ج ١، ص ٣٩٧).

وهذا يدل على ان دولة الظهور هي القمّة في العدالة، صحيح ان الآخرين قد يقيموا نوعاً من العدالة لكن بيننا وبين القمّة مسار طويل تنظيراً وتطبيقاً، كما هو الآن مسير أتباع أهل البيت عليهم السلام طوال هذه الغيبة الكبرى، كل جيل يأتي ويخطو خطوات إلى الإمام أكثر، ويعبّد الطريق أكثر فأكثر.

فإذا علمنا أن العُرف المهدي (العرف المجتمعي في الدولة المهديّة المنشودة) هو العُرف الخالص، فهذا لا يعني ان نكفر الآن بكل شيء موجود.

بين القاعدة العقلية والعرفية

علمانية خفية قد تتسرب عدواها لنا تحت شعار الحسن والقبح فهل الحسن والقبح هما الذاتيان الثابتان؟ أو هما بحسب المواثيق الدولية والعرف البشري؟ صحيح أن العرف له دور: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(١) لكن أي عرف هو المقصود؟ في قبال أن الدين ثابت، وفي قبال: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^(٢).

في مدرسة أهل البيت عليهم السلام الحسن والقبح ذاتيان تكوينيان، نعم في مقام التطبيق لا يمكن للإنسان أن يكون حديثاً مثل الخوارج أو الغلاة.

خذ العفو وأمر بالعرف والمجتمع لم يتعود بعد على النظام الإسلامي! والحال هذه، لا يمكن تطبيقه بكل مناهجه، لذلك نحتاج إلى التدرج، وحتى في أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أولاً معرفة الثوابت قبل الشروع بهذه الفريضة، وأيضاً يجب علينا دراسة العرف البشري ومعرفة الصالح منه والطالح؟ والصالح من هو المتوسط في صلاحه ومن هو الأعلى؟ كل هذا يتم بمعرفة القمّة في العرف الصالح والمتكامل... «أَيْنَ الْحَسَنِ أَيْنَ الْحُسَيْنِ أَيْنَ أَبْنَاءِ الْحُسَيْنِ، صَالِحٌ بَعْدَ

(١) سورة الأعراف، الآية ١٩٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

صَالِح، وَصَادِقٌ بَعْدَ صَادِقٍ، أَيْنَ السَّبِيلُ بَعْدَ السَّبِيلِ، أَيْنَ الْخَيْرَةُ بَعْدَ الْخَيْرَةِ»^(١)

اعرفهم أولاً..... هذا هو المشروع المهدي.

طالت الغيبة لأنه في صدد تربية البشر بنفس طويل، يدير ويدبر الأمر عليه السلام بقوة السر والخفاء بشكل هادئ وتربوي، لذا يجب أن لا تختلط عندنا المفاهيم في التنظير.

علينا الركوب في سفينة الإمام المهدي عليه السلام وإلا سوف نغرق، وركوب هذه السفينة بأن نعرف مشروعه عليه السلام ونميز الذئب من الشاة، والخداع من الحقيقة.

إذا لم نتعرف على هذه البنود بلا شك سنغرق، لأن الهجوم على مستوى محاولة تبديل قناعاتنا في الدين، فهل قلاعنا حصينة؟ لا شك أنها بالعلم تكون كذلك.

والعلم هو السباحة في انوار المعرفة بسفينة العقل، والحكمة والتدبر في معاني مشروعه عليه السلام، فدعاء النذبة والأدعية والزيارات الأخرى الخاصة به ليس فقط ذكر لساني، بل هي ذكر عقلي، وهو أعظم من الذكر اللساني.

(١) مقطع من دعاء النذبة.

دور الأعراف المهدوية في تمييز الكمال الحقيقي

البشر قد يصلون إلى تكامل وسطي لكنهم يبتلون دائماً بأمراض بيئية سياسية، أو اجتماعية، وقد يبتلون باعراف فاسدة، أو متكاملة بتكامل وسطي ويظنون انها القمّة في التكامل، وهنا يجب الحذر لأنه من المهم أن يكون تطّلع البشرية على الدوام مسيرة دائبة وهمة للوصول إلى أعراف المجتمع المهدوي والدولة المهدوية، علينا ان لا ننعق بالقليل ولا ننخدع بالمغشوش من أعراف البشر.

كل جيل بسبب السياسات والصراعات والمدارس الفكرية المختلفة يتمخض عنه عرف سياسي أو اجتماعي جديد.

أعراف ورؤى مختلفة في توالد مستمر، ولهذا عندما تشتدّ الظروف علينا التمسك بالحديث الشريف «كونوا حلساً من أحلاس بيوتكم»^(١) وهذا الحديث يعني بيوت أهل البيت، وليس معناه الجمود، فهو في أحد معانيه ان يأخذ النهج المهدوي ولا يغادره يميناً أو يساراً، ولا ينعق مع كل ناعق، نعم يخالط البشر ويكتسب الإيجابيات منهم، لكن لا يقف عندها، بل يجب الاستقامة في التطّلع، وحتى يكون المؤمن مستقيماً في هذا

(١) ورد هذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام، ذكره النعماني في الغيبة ص ١١٥.

المجال يجب عليه التّعرف على بنود المجتمع المهدي والحضارة المهدوية، لكي يكون قادراً على التمييز بين الكمال المهدي التام والكمال الناقص الذي وصل إليه البشر.

فإذن الاستقامة على مسير الكمال في المشروع المهدي هو بتفعيل البنود القرآنية والسنة النبوية وسيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام، وإلا أي مشروع مهدي لا نرى فيه رائحة المشروع الحسيني فهذا ليس مشروعاً مهدوياً، وأي منظومة في التنظير المهدي ليس فيها رائحة اللون العلوي والفاطمي نعلم أن هذا ليس مشروعاً مهدوياً.

لأن المشروع المهدي هو كل مشاريع ابائه واجداده المعصومين وزيادة - والزيادة بمعنى هي بلورة وتجلية أكثر مما كان - فمن دون معرفة هذه المنظومة لا يمكن الاستقامة، لا سيما إذا تصالح البشر على بنود وأعراف سياسية أو اجتماعية تلقائياً، يرسمون لأنفسهم عقلية معينة ذات لون خاص بحسب قوام زمانهم، وعلى ضوء ذلك يجعلون الميزان هذا العقل العصري الذي وصلوا إليه ويحتمونه على بنود الدين، أو يقرأون الدين من خلاله ويكون معياراً لهم، وهنا تكمن الخطورة، ففي حين أن أول المخاطبين في الدين هو العقل، لكن لدينا جدلية أخرى وهي أن الدين لا يُصاب بالعقول.

فبين أن الدين لا يُصاب بالعقول وبين أنه يُقرأ بالعقول، علينا أن لا ننزل في مهاوي أحد طرفي هذه الجدلية، وهذا يقتضي المزيد من معرفة التطلعات الموجودة في الدين من خلال الخطاب المهدي واختلافه عن ما هو موجود لدى البشر.

نشر الأعراف المهدوية الصالحة

العُرف الصالح شيء مهم لكي يستبدل به هذه الأعراف الليبرالية والاشتراكية والتي إلى الان لم تلبى العدالة للبشر، لأن الياتها مفقودة أو غير معروفة.

فالثروة الآن على مستوى العالم بيد أفراد يُعدّون بعدد أصابع اليد، ولم تأتي الاشتراكية إلاّ بمزيد من الرأسمالية المقنّعة والمخادعة! والقرآن الكريم رافض لهذا النهج: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾^(١).

نفس هذه المنظمات الإنسانية هي عبارة عن شبكة عصابات، ومنظمات حقوق الإنسان عبارة عن وعاظ للسلطين الذي يبررون للظلمة سفك الدماء، وغاية ما يصدر من تلك المنظمات (الإنسانية) هو «التعبير عن القلق» وهذا تبرير لتلك الجرائم وإمتصاص لهول البشاعة التي تمثلها.

هذا المشروع المهدوي هو المنقذ بدون ان تتدخل به المخابرات الاستعمارية وتحرفه عن جادته، إذا استطعنا ان ننشر - وهذه مسؤولية عظيمة تقع علينا - هذه المبادئ بكل وضوح وتكامل منظومي.

كثير من الفرق والأفراد الضالون الذين يتسبون زوراً للإمام

(١) سورة الحشر، الآية ٧.

المهدي عليه السلام ينشرون فصلاً من فصول المشروع المهدي بغية تحريف المشروع، وأحد الأمور المهمة في المنظومة المهدوية أنها منظومة مجموعية، وإن نشرت بنياً دون آخر ففي ذلك ميل وحيث دون السير الموزون في المشروع الإلهي، لأن البشرية الآن متعطشة إلى مشروع الخلاص من هذا الجور والظلم في كل الأصعدة والبيئات ﴿وَمَا كُنَّا لَنُفْقِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾^(١)، هذه الأنظمة الاجتماعية الفاسدة (القرية) لا بد من هلاكها: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْقِيكُمُوهَا أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾^(٢).

إذن العُرف أمر مهم جداً، وهو من أعظم أبواب الإعداد للظهور، وتهيئة مجتمع الظهور هو في نشر الثقافة المهدوية - ليس فقط في التوعية بها - بل لا بد أن يصل الأمر إلى حد عرفة هذه المبادئ.

(١) سورة النساء، الآية ٧٥.

(٢) الإسراء، الآية ٥٨.

الفصل الخامس عشر

قيادة النظام العالمي

الشعارات المهدوية مشروع ومسؤولية

نقل الغيب وتعريفه لأهل الشهادة

المهمة الصعبة

ميزان المواطنة في الدولة المهدوية

قيادة النظام العالمي

الشعارات المهدوية مشروع ومسؤولية

مجموعة هذا البنود الموجودة في دعاء الندبة وغيره من الأدعية هي مشروع ومسؤولية وبنود نتفهمها ونتعلمها، نتعرف عليها ونعرف الآخرين بها، لأنها ماء حياة وطوق نجاة وضرورة، فترجمة دعاء الندبة باللغة الإسبانية مثلاً حتى تعرف تلك الشعوب المحرومة أي شعارات ينبغي أن يطمحوا إليها، فهذه البنود ليس للحرية والتحرر فقط بل هي تكفي حتى لنجاة الجنين.

المصباح العيني لنور القرآن الكريم ليس ترجمة المصحف الشريف فقط، بل ترجمة دعاء الندبة وبقية الأدعية أيضاً لكي يرى هذا المستبصر لنظام الحرية والعدالة قانون نظري وهو القرآن المترجم، ونظرية عملية متجسدة وهو مشروع الإمام المهدي عليه السلام.

مسؤولية نشر الشعارات المهدوية وترويض العقل البشري لاستيعابها، ونقصد هنا بالمشروع المهدوي هو ما تضمنه دعاء الندبة «أَيْنَ الْحَسَنُ أَيْنَ الْحُسَيْنُ؟ أَيْنَ أَبْنَاءِ الْحُسَيْنِ؟ صَالِحٌ بَعْدَ صَالِحٍ، وَصَادِقٌ بَعْدَ صَادِقٍ»^(١) فحقيقة المشروع المهدوي هو مشروع جميع الأئمة عليهم السلام مع الخصوصيات المهدوية.

(١) مقطع من دعاء الندبة.

نقل الغيب وتعريفه لأهل الشهادة

زاوية أخرى في منظومة المشروع المهدي وهي مهمة جداً وإن كانت لا تخلو من الصعوبة، وتكبد فيها الأنبياء معاناة شديدة، هذه المشكلة والعقبة الكبيرة علاجها هو نشر البنود والشعارات المهدوية في أصقاع العالم.

المشكلة التي واجهها جميع الأنبياء والمرسلين وأوصيائهم مع أقوامهم هي تعريف عالم الغيب لمن يعيش في عالم الشهادة، وكل المشكلة تكمن هنا.

تعريف عالم القيامة والنار والبرزخ والصراط والحساب والميزان والنشر والبعث وأمور أخرى كلها في عالم الغيب، وغير مرئية بالحواس في عالم الشهادة، هي الازمة الحقيقية التي يعيشها الأنبياء في دعواتهم والرسل والأوصياء مع أممهم، والإنسان بطبعه يأنس بالمحسوسات أكثر من أنسه بالمعقولات.

هذه الملفات الموجودة في عالم الغيب تُقدّم إلى من يعيش في عالم الشهادة لكي يؤمن بها، وهذا هو الإيمان.

هذا التوثيق أمر صعب إلى درجة أن القرآن الكريم ذكر معاناة سيد

الأنبياء ﷺ في مواجهة هذه الصعوبات، وكيف أن قريش والعرب اعتبرت دعوى سيد الأنبياء وتغييره لرؤى وقناعات وما شابه ذلك ضرب من الجنون واتهموه باتهامات عبر عنها الإمام الصادق عليه السلام أنهم قذفوا سيد الأنبياء بطعون وسباب وشتائم تنوء بها الجبال، وهذه الاتهامات هي استهزاء بالطرف الآخر^(١).

جملة من المنافقين في تحركاتهم إلى يوم الغدير، بل إلى آخر يوم في حياته الشريفة كانوا يصفون سيد الأنبياء بهذه الأمور والعياذ بالله، وهذه التعابير هي قتل معنوي لشخصية سيد الأنبياء.

قالوا عنه كاهن تنزل عليه الشياطين والجن، أو أنه يتعاطى من كتب اليهود والنصارى وغيرها، وقد وثق القرآن الكريم الكثير من تلك الاتهامات: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾^(٢)، ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ﴾^(٣)، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾^(٤)، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾^(٥)، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ

(١) ورد في الزيارة الخاصة بالنبي ﷺ من البعد: «... صلَّ عليه كما وفى بعهدك وبلغ رسالاتك وقاتل أهل الجحود في على توحيدك، وقطع رحم الكفر في إعزاز دينك، ولبس ثوب البلوى في مجاهدة أعدائك، وأوجبت له بكل اذى مسه أو كيد أحس به من الفئة التي حاولت قتله فضيلة تفوق الفضائل ويملك بها الجزيل من نوالك، وقد أسر الحسرة وأخفى الزفرة وتجرع الغصة....» (القمي، مفاتيح الجنان، ص ٣٦٢، زيارة النبي من البعد).

(٢) سورة الفرقان، الآية ٨.

(٣) سورة الدخان، الآية ١٤.

(٤) سورة التكويد، الآية ٢٥.

(٥) سورة الحاقة، الآية ٤١.

مُيْتٌ ﴿١﴾ كل هذه الاتهامات من أجل زلزلة الاعتبار بشخصية سيد الأنبياء عليه السلام، بسبب هذه الملفات الغيبية التي يستعرضها، وهذه المهمة تحتاج إلى مخزون كبير جداً من الاعتبار!

لأن هذه الأمور الغيبية ضخمة وكبيرة جداً تسع الدنيا وما فيها، فمن هذا الذي يأتي لكي يوثق هذه المعتقدات؟.

هذه العقبة الكؤود والصعبة مرت بجميع الأنبياء والأوصياء في توثيق الغيب لأهل الشهادة، ولأن الغيب عظيم ومهول فهذا الشخص نفسه يحتاج إلى مخزون وثائقي بشكل كبير، سيما النبي الأكرم عليه السلام لأنه أعظم نبي أتى بكشف المغيبات.

ولذلك حاولوا بكل الطرق قتل سيد الأنبياء من ناحية التصفية الجسدية والاعتقال المعنوي، وكان أمير المؤمنين سلام الله عليه منذ ترعرعه إلى ان استشهاد رسول الله هو الحارس الخاص لبدن النبي ولشخصيته الاعتبارية كذلك.

أما محاولات اغتيال النبي معنوياً، فقد كانت اشرس من ذلك بكثير في «مكة المكرمة» من قبل قريش، وحتى في «المدينة المنورة» من قبل الوسط الداخلي، وعلى طول حياة النبي هذه المحاولات لم تنتهي.

وهذا المخزون للشخصية المعنوية للنبي عليه السلام من اجل توثيق الرسالة ورد في التفسير عن أهل البيت عليهم السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتَبِّعَهُ نِعْمَةً وَعِلَّةً مِّنَ اللَّهِ وَمَا يَدْرَأُكَ اللَّهُ بَدِيعَ رَبِّكَ أَنَّكَ كَبُرَتْكَ لَظْمَةُ أَهْلِ الْبَيْتِ وَرِئَاسَةُ أَوْلَادِ الْبَيْتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَن يَعْقِلُ﴾

مُسْتَقِيمًا * وَبِصُرِّكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ﴿١﴾^(١) إنه لما أتى النبي ﷺ بهذا الكم من الغيب استنكرت قريش الأمر، وكذلك بقية العرب، لذلك حاولوا ان يغتالوا النبي ويقتلوا تلك المعارف التي يعتبرونها كهانة وجن، هذا الإغتيال من خلال تلك البصمة الملوثة التي الصقوها بشخصية النبي ﷺ.

ولما وقع صلح «الحديبية» ذهبت كل محاولاتهم لإغتيال شخصية النبي ﷺ المعنوية أذراج الرياح، هذا هو بمثابة ذنب لأنه حطّم أصنامهم وكبرياءهم وغرورهم، وأقرّوا مرغمين بما جاء به من الغيب.

وهذه المسألة الصعبة بنقل وتوثيق الغيب لأصحاب الشهادة عبّر عنها القرآن الكريم بالفتح المبين، وهو أن تتكرّس وتتجذّر وثاقة النبي حتى عند المشركين والكفار، إذن توثيق الغيب أمر ليس بالسهل.

المهمة الصعبة

نفس المشكلة السابقة تجري مع الإمام المهدي عليه السلام، فهو منذ ولد إلى الآن في خفاء، وهذه السرية والغيب وتوارد الأسئلة الطبيعية، من هو؟ وأين؟ وإلى متى، وحتى متى؟ نفس الخفاء هو علامة استفهام، فإذا أصبح خفاء في خفاء كيف يكون البرهان؟ هذه محنة كبيرة للمؤمنين.

وفي جانب آخر هو بقية الله التي أودع الله فيه كل المشروعية والشرعية والحجّية، بالإضافة إلى انه صاحب القيادة وصلة الغيب بالبشر.

فمن جانب هو غيب وخفاء، ومن جانب آخر كل الشرعية والاعتبار عنده، وإذا أضفنا إليها وعود كل الأنبياء والرسل: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجَعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١) ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(٢) ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(٣) وهذا الوعد كل الأنبياء وعدوا به اممهم، وقد استهزئوا بهم وسفّهوا أحلامهم، هذا الوعد الذي هو غيبي ويحتاج إلى توثيق ووثاقة،

(١) سورة القصص، الآية ٨٣.

(٢) سورة القصص، الآية ٥.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ١٠٥.

كله حُزْنٌ في شخصية وإنجاز صاحب العصر والزمان عليه السلام، وهذا زيادة في المحنة.

هذه المحنة البشرية تجاه هذا الموعد الأكبر أمر مزلزل، كأنما جميع التشكيكات والإنكارات التي جرت على سلسلة الأنبياء والأوصياء تُختزل في شخصية صاحب العصر والزمان عليه السلام، ومن جانب آخر هو وارثهم ولديه كل صفاتهم الاعتبارية.

فإذا كان الأمر كذلك، فما هي طلائع وبراهين توثيق صاحب الزمان عليه السلام؟

في بيانات أهل البيت عليهم السلام ذكروا عاملان وسببان لزحزحة هذه العقبة الكؤود، وكلا هذين العاملين تقع مسؤوليتهما علينا نحن المؤمنين به، وكلما حصل تقصير من قبلنا حسب ما يستنبط الإنسان من دلائل الروايات فالتأخير في الظهور يكون منا:

العامل الأول:

هناك تفسير آخر للظهور من خلال الروايات، وهو جلاء وثاقة صاحب العصر والزمان عليه السلام المؤمنة على كل الدين الإلهي الواحد الذي بعث به جميع الأنبياء والرسل، والوعد بسعادة البشر وإنجاز أعظم حياة تنعم بها البشرية على يديه الكريمتين مرتبط بجلاء وثاقة الإمام عليه السلام.

الآخرون يتخوفون من المبادئ والمفاهيم التي سينشرها صاحب العصر والزمان عليه السلام، ولكننا لم نقم لحد الآن في نشر تلك المبادئ والتبشير بها وتهيئة الأرضية للظهور المبارك.

الغرب مثلاً يتخوفون من انتشار الثقافة المهدوية أكثر مما يتخوفون

من انتشار أي شيء آخر في دولهم وكياناتهم، حتى النسيج البشري الإسلامي في دولهم لا يربحهم بقدر رعبهم من انتشار الثقافة المهدوية. نحن الذي يجب علينا تبليغ هذه البنود المهدوية لكل البشر بطريقة سلمية هادئة وبدون صدام مع الآخرين، فالمسؤولية الأولى للظهور ظهور الانس البشري بالمشروع المهدوي، وإذا أنسته النفوس إقتربت ساعة الظهور.

العامل الثاني:

ذكره أهل البيت عليهم السلام أيضاً وأكدوا عليه لتجاوز هذه العقبة وتقريب ساعة الظهور، هو نشر هذا العامل حتى على غير اتباعهم لأنه سيقرب ساعة الظهور والنصر الإلهي وبأسلوب هادئ ومترن وهو: ترويج علائم الظهور بقراءة تختلف عن قراءة المنجمين والمنتبين.

وهذه القراءة هي قراءة مسؤولية، فأهل البيت عليهم السلام عندما يوضحون لنا الأحداث، علينا أن نتخذ مواقف معالجة ذات مسؤولية مساهمة في قلع تلك العقبات، لا التسليم والانبطاح لتلك العقبات.

فإذا تحدثوا عن السفيناني مثلاً فمعناه انك تبادر وتحاول منع أسباب وعوامل تنشئة السفيناني، فعلائم الظهور هي إحداثيات عسكرية لقائد الجيش لكي يتخذ الاجراء المناسب معها، لا لأجل الاستسلام، بل يحاول دفع هذه الاخطار المحدقة ويزيد من وتيرة الحذر والاستعداد وتحمل المسؤولية، وهنا نريد أن نتبنى مسؤولية أخرى، لا أن نكون متفرجين فقط، فهذه ليست القراءة الصحيحة لعلائم الظهور.

فالمسؤولية في الغيبة الكبرى من أجل توثيق العلاقة بصاحب

الزمان، وجعل الجانب الغيبي فيه جانب شهادة، هو نشر علائم الظهور كتجدي واستعلام بتوصية نفس أهل البيت عليهم السلام، حتى بين المذاهب الأخرى، وحتى بين الملل والنحل الأخرى.

وعندما تقع العلامات ستبرهن لهم دلائل كونية إلهية على هذا المشروع العظيم لصاحب العصر والزمان، لأنهم سيكونون مهيين لقراءة العلائم الأخرى للظهور، وهذا أمر مهم على المؤمن أن يقوم بنشره وترويجه بين البشر لكي لا يلتبس الأمر على العموم ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾^(١).

ونشر علامات الظهور بهذه القراءة العلمية ليس نشر للتكهنات، بل هو تجدي إعجازي للبشر لكي يستعلموا منه طريق الحق والهدى من طريق الغي والضلالة.

ميزان المواطنة في الدولة المهدوية

في منطق أهل البيت عليهم السلام المدار على الحرمة للنفس والعرض والمال، ليس على الطائفة أو المذهب أو العرق، بل هي قائمة على أساس «سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم» سواء انتحل الإسلام أو لم ينتحل، فأهل الذمة إن كانوا مسالمين تتسالم معهم، وهذا يشمل الآخرين أيضاً كغير الكتابي والمعاهد المسالم وغيرهم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آَلَقَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (١) هذا هو منطق أهل البيت عليهم السلام.

لذا يجب الالتفات أن مشروع الإمام المهدي عج الله فرجه الشريف ليس الضامن للأمان في ظهوره أن تتحلل صفة معينة، بل الضمان في أنك سلم معه ام لا؟.

وهو لا يحارب لأجل شخصه المقدس، بل لأنه عين العدل وعين الميزان «أَيْنَ الْمُعَدِّ لِقَطْعِ دَابِرِ الظُّلْمَةِ؟ أَيْنَ الْمُتَنْظِرِ لِإِقَامَةِ الْأُمْتِ وَالْعَوَجِ؟ أَيْنَ الْمُرْتَجِي لِإِزَالَةِ الْجَوْرِ وَالْعُدْوَانِ؟ أَيْنَ الْمُدْخِرِ لِتَجْدِيدِ الْفَرَائِضِ

(١) سورة النساء، الآية ٩٤.

وَالسُّنَنِ؟ أَيْنَ الْمُتَّخِرِ لِإِعَادَةِ الْمِلَّةِ وَالشَّرِيعَةِ؟ أَيْنَ الْمُؤَمَّلُ لِأَحْيَاءِ الْكِتَابِ وَحُدُودِهِ؟ أَيْنَ مُحْيِي مَعَالِمِ الدِّينِ وَأَهْلِهِ؟».

إذا هذا معلم مهم من معالم دعاء الندبة، ومشروع المهدي الاستراتيجي قائم على العدل: «... وَقَدْ مَلَأَتِ الْأَرْضَ عَدْلًا وَأَذَقَتِ أَعْدَاءَكَ هَوَانًا وَعِقَابًا، وَأَبْرَتِ الْعُنَاةَ وَجَحَدَةَ الْحَقِّ، وَقَطَعَتِ دَابِرَ الْمُتَكَبِّرِينَ، وَاجْتَثَّتْ أُصُولَ الظَّالِمِينَ، وَنَحْنُ نَقُولُ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^(١)

ومن ينظر للعدل ليس له ميول قومية أو عنصرية، فمشروع الإمام المهدي عليه السلام وميزانه في المواجهة والحروب ليس قائماً على الملة والنحلة، بل هو قائم على السلم والعدوان «سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم»^(٢).

(١) مقطع من دعاء الندبة.

(٢) مقطع من: أحد زيارات الأئمة عليهم السلام.

قيادة النظام العالمي

من المهم التنبه إلى أن بنود دعاء الندبة والزيارات المروية في صاحب العصر والزمان عليه السلام تُمثل قواعد في الفقه السياسي، وفي بناء استراتيجية العمل في الغيبة الكبرى إلى زمان الظهور.

وليست هذه البنود مجرد ترانيم روحية أو خواطر فكرية، بل هي قواعد منهجية، وهي ليست على صعيد البُعد الفردي فقط، بل هي على صعيد المسار الاجتماعي والسياسي، وهذه القواعد بالتالي تُمثل مشروع الإمام المهدي عليه السلام.

الطابع العام لهذا المنهج أنه يرفض السُّنن الخاطئة للبشرية ويرفض الأعراف الفاسدة: «..أَيْنَ قَاصِمُ شَوْكَةِ الْمُعْتَدِينَ، أَيْنَ هَادِمُ أُنْبِيَةِ الشَّرِكِ وَالنَّفَاقِ، أَيْنَ مُبِيدُ أَهْلِ الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ وَالطُّغْيَانِ، أَيْنَ حَاصِدُ فُرُوعِ الْغِيِّ وَالشَّقَاقِ، أَيْنَ طَامِسُ آثَارِ الزَّيْغِ وَالْأَهْوَاءِ، أَيْنَ قَاطِعُ حَبَائِلِ الْكُذْبِ وَالْإفْتِرَاءِ، أَيْنَ مُبِيدُ الْعُتَاةِ وَالْمَرْدَةِ، أَيْنَ مُسْتَأْصِلُ أَهْلِ الْعِنَادِ وَالتَّضْلِيلِ وَالْإِلْحَادِ»^(١)

كل كلمة من هذه العناوين هي معادلة تتعرض إلى كيان من الكيانات

(١) مقطع من دعاء الندبة.

توجب افساد البشر، والطابع المهم ليس محاربة عنصر معين أو قومية بل إنَّ هذه العناوين هي لمن يكون معادياً للفطرة الإنسانية.

يحاول أهل الشرق والغرب الآن أن يجذِّروا مفهوماً معيناً وهو أن هذا الذي تواتق وتوافق عليه البشر هو الفطرة الإنسانية، فإذا تصادم بند من بنود القرآن الكريم مع هذه التوافقات البشرية وضعوا عليه علامة استفهام!.

مثلاً ما هي رؤية القرآن الكريم في القتال، وفي النظام السياسي، وفي غيرها من المفاهيم؟

مدرسة السقيفة إلى الآن تفرز صورة غير حقيقية للمنظومة الإسلامية، فمن يرى تعامل «داعش» مع ما يسمونه «السبايا» يعتقد أن هذه التصرفات الوحشية تمثل نظام الرقية في الإسلام.

الأصول التي يتبناها «داعش» ليس فيها مخالفة لنهج أبطال السقيفة، فمن تلك المدرسة أتى فكر داعش ونهجهم السلفي.

القرآن الكريم له رؤية أخرى حول المفاهيم التي أتى بها تختلف جذرياً عما يمارسه هؤلاء وينشرونه، وهذه الرؤية لها من يطبقها ويُشرف على تطبيقها.

في مدرسة أهل البيت عليهم السلام في بحث الجهاد الابتدائي رئاسة النظام العالمي البشري ليس من صلاحية المراجع والفقهاء، وليس من صلاحية حتى الولي الفقيه.

الجهاد الابتدائي يعني فيما يعنيه في اللغة العصرية رئاسة النظام العالمي البشري، وقد أجمع علماء الإمامية - إلا من شذ - وهو خلاف

متواتر الروايات أن الجهاد الابتدائي ليس من صلاحية حتى مالك الاشر
أو سلمان الفارسي.

بل هو ليس من صلاحية النبي إبراهيم الخليل عليه السلام، ولا موسى ولا
عيسى عليهما السلام، وهذا فيه أدلة قرآنية وروائية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنه
لم يُشرع حتى عند النبي إبراهيم عليه السلام، مع ان الجهاد الدفاعي سُرع عند
الأنبياء عليهم السلام، أما الجهاد الابتدائي فهو خاص عند سيد الأنبياء عليه السلام،
والأئمة عليهم السلام فقط.

إدارة العلاقة بين الشعوب والمجتمعات على مستوى المعمورة
نظام ينوء ثقله على الأنبياء والأوصياء والأولياء والعلماء، فقط قطب رحي
الإمكان يُقرّ ويوازن العدل بين البشر، فهل السقيفة قادرة على فعل ذلك؟!
وهذا نظام داعش وطالبان والقاعدة ومنهجهم الواضح هو إدانة للصحابة
في السقيفة.

الذي يمتلك رؤية كاملة عن كيفية الاستقرار البشري وتحقيق العدالة
هو الإمام المعصوم عليه السلام تنظيراً وتطبيقاً^(١).

فإذا لم نحقق النظر وندرس البنود المهدوية بدقة وعناية تامة، حتى
الحوزات الإيمانية سوف يفوت عن قدرتها تنظيرات إجمالية لكيفية رسم
نظام تعايشي بين البشر، لا نستطيع أن نتلمسه إلا من خلال بنود منهج
صاحب العصر والزمان عليه السلام.

هذا النظام الموجود في المشروع المهدوي نظام راشد إلى الآن لا

(١) يقول الإمام الصادق عليه السلام «بلية الناس عظيمة: إن دعوانهم لم يجيبونا، وإن تركناهم لم
يهتدوا بغيرنا» (أمالي الصدوق، ص ٣٦٣).

يستطيع أحد أن ينظّم مثله لأنه معجزة، فهو يرسم لنا نظاماً أرقى مما هو موجود لدى المواثيق الدولية، لأن تلك المواثيق فيها تكريس للقومية والاحتراب العنصري.

المواثيق الدولية لا تدين بعض الأطراف، ولا تدين التمايز الطبقي الموجود الآن، ولكن الوضع يختلف مع النظام الموجود عند صاحب العصر والزمان عليه السلام، وكما ذكر في الأدعية الخاصة به «واجعله اللهم مفزعاً لمظلوم عبادك، وناصراً لمن لا يجد له ناصرًا غيرك»^(١).

إذن رئاسة البشرية وإيجاد التوازن بين الأمم والشعوب ليس بمقدور الإنسان العادي بل لا بد أن يكون إنساناً يوحى إليه، ولديه مدد، وإن لم يكن نبياً، وإلا لا يمكن أن يحدث هذا التوازن ستنشر مرة أخرى التفرقة والتمييز بين بني البشر.

وملحمة القرآن الكريم عجيبة فهو لا يرى الأنبياء ولا كتبهم مهيمنة على البشرية، بل الهيمنة فقط لدولة سيد الأنبياء عليه السلام^(٢).

(١) مقطع من دعاء العهد.

(٢) ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١].

مشروع النجاة والمسؤوليات

تقرير لأبحاث

المرجع الديني الشيخ محمد السند دَامَ ظَلَمُهُ

الجزء الثاني

تأليف

الشيخ ناجي الخاقاني

الإهداء

إلى سفينة النجاة
 ومنقذ الأمة من الانحطاط تحت نير الأعداء
 إلى من قدم القرابين على مذبح الإباء . . .
 خيرة أهل بيت . . وخيرة أصحاب
 لينقذ إمة جده ﷺ ويصلح أمرها
 إليك . . أيها المصلح والمنقذ العظيم
 يا سيدي يا أبا عبد الله الحسين أهدي هذا الكتاب
 فتقبله مني بكرمك

تمهيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين المبعوث
رحمة للعالمين أبي القاسم محمد بن عبد الله وعلى آله الطيبين الطاهرين
باب حطة وسفن النجاة وعلى من والاهم بإحسان إلى قيام يوم الدين.

الخلاص من الظلم والتحرر من نير العبودية هو مطلب إنساني قبل
ان يكون مطلباً دينياً، وقد سعت البشرية إلى ذلك الأمر منذ أن وجد هذا
الصراع بين الإنسان وأخيه الإنسان على وجه الأرض، فبين من يريد التجبر
واستعباد الآخر، وبين من يرغب في التحرر والانعقاد، بُعثت الأنبياء إلى
الأمم حوّلت هذا الأمر إلى باب من أبواب الجهاد حاول من خلاله الرسل
على مرّ العصور جرّ الناس إلى العبودية الخالصة لله سبحانه وتعالى من
خلال تحريرهم من كل أشكال العبودية لغير الله وحده، وبدلوا في ذلك
السبيل كلّ غال ونفيس فكان الأنبياء هم الرعاة والمنفذون للمشروع
الإلهي في نجاة البشرية من خلال هداية الناس إلى دورهم ومسؤوليتهم
في هذا المشروع.

تحوّل مشروع الخلاص إلى مفهوم ديني على يد الأنبياء أعطى
شعوراً لدى الناس بقيمة هذا العنوان وحوله إلى إيمان بمستقبل الإنسانية
وأن هذا الإيمان ليس عزاءً وتسليّةً فحسب بل هو مصدر للعطاء والقوة

وعدم اليأس، وهو بصيص نور لعالم مليء بالظلم والجور يجعل الأمل مشتعلًا في الصدور مهما ادلهمت الخطوب.

والقرآن الكريم في حديثه عن السنن الإلهية في المجتمعات البشرية عرض شروط المشروع الإلهي للنجاة والعوامل التي تتكفل بإيصال المجتمعات إلى النعمة الإلهية في نيل الفرج والنجاة من الظلم من خلال ذكر ما جرى على بني إسرائيل على يد فرعون وخلصهم من ظلمه بجهد النبي موسى ﷺ مُنْجِي بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ خَلَالِ صِنَاعَتِهِ لِأُمَّتِهِ وَتَوْجِيهِ لَهُمْ نَحْوَ مَسْئُولِيَّتِهِمْ فِي الْمَشْرُوعِ الْإِلَهِيِّ لِيَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِالنَّجَاةِ وَالْخَلَاصِ مِنَ الذُّلِّ وَالْعُبُودِيَّةِ.

في قصة بني إسرائيل وصراعهم ضد فرعون إشارات واضحة لكل المجتمعات البشرية بضرورة تهيئة المقدمات اللازمة لفعل التغيير نحو الأفضل، وتأكيد على أنه في حال عدم تحقيق الشروط للنجاة فلن يتحقق لهم أبداً الفرج الإلهي لأن الله سبحانه وتعالى جعل الخطوة الأولى نحو التغيير من نفس المجتمع: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١)، صحيح أن النصر من عند الله سبحانه ولكن حقانية المسير لا تعني أن يأتي النصر على نحو الهبة وبدون أي مبادرة.

وعلى هذا الأساس سعى الأنبياء ﷺ إلى توعية الأمة نحو مسؤولياتهم والتأكيد على ضرورة القيام بها لنصرة المشروع الإلهي في التغيير.

ولأن هذه الأمة المؤمنة تحذو حذو من سبقها من الأمم فهي معنية أيضاً بالقيام بمسؤولياتها حتى يمن الله عليها بفرج صاحب الزمان عجل

(١) سورة الرعد: الآية ١١.

الله فرجه الشريف، فيجب علينا لكي نقوم بمسؤولياتنا أن نستنتق الآيات القرآنية التي تحدثت عن قصص الأمم السابقة في هذا السبيل واستلهام العبر مما جرى في الغابرين.

وهذا الكتاب هو مجموعة من المحاضرات ألقاها سماحة آية الله العظمى الشيخ محمد السنند دام ظلله الشريف في مسجد عمران بن شاهين في النجف الأشرف، وهي محاولة لاستنتاج آية قرآنية تحدثت عن المشروع المنجي لمعرفة المسؤوليات المفروضة على المؤمنين للمشاركة في إقامة هذا المشروع والتعجيل بتحقيقه، ولأهمية هذا الموضوع قمنا بتقرير تلك المحاضرات وتقديمها في هذا الكتاب لتعم الفائدة للمؤمنين التواقين لمعرفة دورهم وحدود مسؤولياتهم في المشروع الإلهي المنجي وسطوع شمس أمل البشرية عجل الله فرجه الشريف ليمن الله علينا بالظهور المبارك وتحقيق النجاة لهذه الأمة المظلومة.

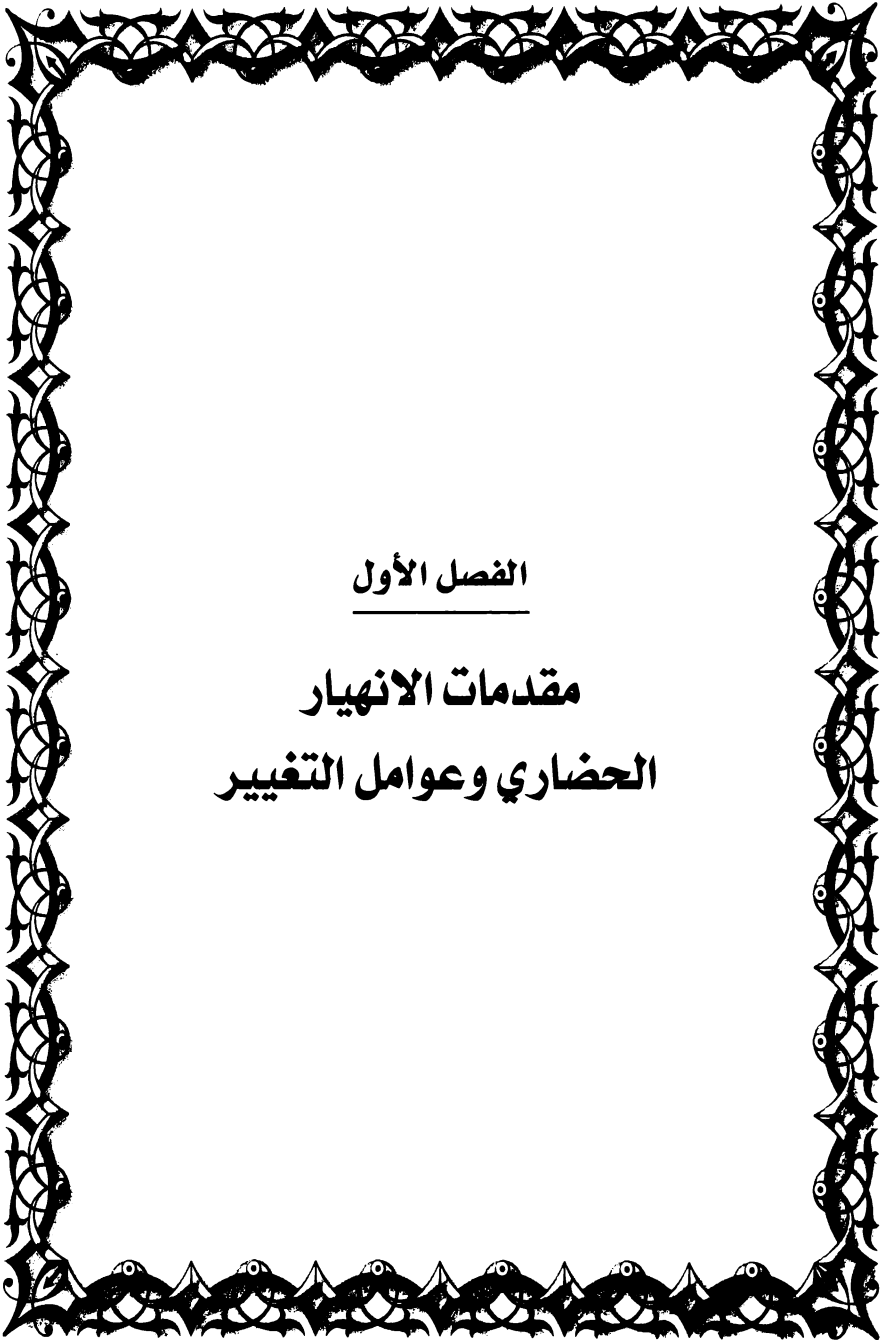
نسأل الله سبحانه أن نكون قد وفقنا في هذا العمل، وأن يتقبل منا بمنه، ويعفو عنا وعن والدينا بكرمه.

ربنا إليك أنبنا فتقبل منا إنك أنت السميع العليم. والحمد لله رب العالمين.

الشيخ

ناجي الخاقاني

النجف الأشرف - ١٤٣٩ هـ



الفصل الأول

مقدمات الانهيار
الحضاري وعوامل التغيير

مراحل الانحدار والتغيير في المجتمعات

وردت الإشارة في القرآن الكريم أن بني إسرائيل وصلوا إلى مرحلة الاضطهاد وسوم العذاب على يد فرعون بصورة تدريجية، فهم دخلوا مصر معززين مكرمين مع النبي يعقوب بتوسط نبي الله يوسف عليه السلام، وكانت لهم مكانة خاصة لأنهم سكنوا أفضل المناطق في وادي النيل ولكنهم فيما بعد تمردوا على وصايا نبي الله يوسف عليه السلام كما تشير بعض الروايات، فانتقلوا من تمرد إلى آخر حتى وصل بهم الانحدار بسبب أفعالهم أن تسلط عليهم آل فرعون.

لذا كان عليهم أن يرتفعوا مرة أخرى وبصورة تدريجية حتى ينعموا بالفرج الإلهي وظهور النبي موسى عليه السلام لينقذهم من ظلم آل فرعون، ولن يفرج الله سبحانه وتعالى عنهم حتى يأخذوا بأسباب المبادرة بالتغيير نحو الأفضل، ولذلك كلما أبطأوا في التغيير أبطأ الله عليهم بالفرج، وكلما سارعوا سارع الله سبحانه وتعالى لهم لأن الفرج كما الانحدار يكون على مراحل.

وقبيل بعثة النبي موسى عليه السلام حدثت بعض إرهابات التباطؤ فكان أن غيَّب الله عنهم النبي موسى عليه السلام في مدين ثمان حجج وذلك: ﴿إِنَّ

اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوهُ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴿١﴾ وهذا من أسس عملية التغيير الاجتماعي، وعليه يجب على المؤمنين ان لا يقنعوا بمرحلة معينة بل عليهم الاستمرار والمواصلة.

والفرج الإلهي تحقق لبني إسرائيل بعد انتظار طويل لمنقذهم نبي الله موسى ﷺ كما نحن الآن ننتظر الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، لذا دراسة هذه الآية المباركة بسبب التقارب بين المشروعين لاعتبارات السنن الإلهية في البشرية حتماً ستعطي لنا الكثير من الإشارات فيما يخص الظهور المهدي، خصوصاً إذا تابعنا كل الآيات القرآنية المتصلة بهذا البحث منظومياً وليس موضوعياً فقط.

أعوان الظلمة سبب الطغيان

في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾^(١)

هذه الإشارات القرآنية ركز عليها آل البيت عليهم السلام كثيراً وشددوا على أن الظالم لولا أنه يجد من يعينه على ظلمه ما استطاع أن يظلم أحداً، فلولاً أعوان الظلمة ما سلب حق آل البيت عليهم السلام في أداء دورهم في نجاة البشرية.

والتشديد أيضاً في القرآن الكريم في خطابه ضد الظالمين هو لخطورة ذلك الظلم وتأثيره السيء على المجتمعات البشرية فتجد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾^(٤).

(١) سورة البقرة، الآية ٤٩.

(٢) سورة إبراهيم، الآية ٤٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية ٢١.

(٤) سورة الأنعام، الآية ١٣٥.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾^(٢).

ويحذر أيضاً من الركون إلى الظلمة، لأن التعاون معهم والميل إليهم والرضا بهم يؤدي إلى تقوية شأنهم، وبالتالي زيادة مساحة الظلم والجور في المجتمع وتغيب العدل والعدالة لذلك توعّد الله عز وجل من أعان ظالماً على ظلمه بالنار: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾^(٣).

وأكد على ذلك رسول الله ﷺ: «من أعان ظالماً على ظلمه جاء يوم القيامة وعلى جبهته مكتوب: آيس من رحمة الله»^(٤)، وقوله ﷺ: «من مشى مع ظالم فقد أجرم»^(٥) يقول تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾^(٦).

ولو أن الظلمة لم يجدوا من يعينهم ويساعدهم على ظلمهم ما استطاعوا ان يظلموا احداً، لكنهم يجدون الكثير من الأعوان والأنصار ممن يساعدهم على ممارسة الظلم ونشره في كل مكان لذلك هم يعدّون من أعوان الظلمة وستصيبهم النار كما تصيب الظلمة أنفسهم.

(١) سورة القصص، ٣٧

(٢) سورة النساء، ١٦٨ - ١٦٩

(٣) سورة هود، ١١٣

(٤) الريشهري، ميزان الحكمة، ج ٤، ص ١٧٧٩، ح ١١٤٧٠

(٥) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٧٧، ح ٣١

(٦) سورة السجدة، ٢٢

هذه المحاسبة هي تشخيص للداء والعلاج في هذا المشروع الإلهي المنجي للبشرية، وهذا النظام الموجود في التشخيص هو نفس المسؤولية الفردية والاجتماعية في هذا المشروع، وإشارة إلى عدم إمكانية التهاون مع هذه المفردة لخطورتها العظيمة في إهلاك الحرث والنسل: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾^(٢).

(١) سورة البقرة، ٢٠٥

(٢) سورة محمد، ٢٢

واقع التصادم بين نهجين مختلفين

في سياق هذه الآية المباركة بيان للصراع بين مجتمعين ومسايرين مختلفين، بين المجتمع المؤمن الموحد في قبال غير الموحد.

والقرآن الكريم عنون هذه التصادم بالحرب الدينية ولكنها في الحقيقة لا تعود إلى تعصب أفراد كما قد يصورها الطرح الغربي في توصيفه للحروب الدينية وأنها ناشئة من العصبية والشعارات كما يحكم عليها ضمير الإنسانية وعقله!.

الحقيقة أن الغرب منطوق المواجهة عندهم ديني أيضاً وإن كان بشعارات مختلفة، وقد عرف عنهم الكيل بمكيالين فمن جانبهم هي في سياق حرية التعبير وإن أسأوا إلى مقدسات الآخرين، أما إذا وجهت لهم سهام النقد من قبل الشعوب المضطهدة عبروا عنها بالحرب الدينية، أو الحرب ضد الشرعية وما إلى ذلك من هذه الشعارات.

فهم يرفعون شعارات ليدنوا بها الآخرين وفي حقيقة الأمر لا يلتزمون بها إذا عادت الأمور ضدّهم، ويمارسون ضد الآخر في حربهم الإعلامية كل ما يشير إلى واقع الحرب الدينية، وقد أصبح معروفاً عنهم وبصورة واضحة حرب الرسوم المسيئة ضد النبي الأعظم ﷺ.

عموماً القرآن الكريم قد لا يشير إلى أن هذه المواجهة دينية ولكنه أشار إلى العنصرية فيها: ﴿وَإِذْ بَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾^(١).

يعني أن هناك نظام سياسي واجتماعي قائم على أساس الظلم بموازن تجعل من البشر طبقات يظلم بعضها بعضاً، لذا يصح أن كل نظام سياسي لا يقوم على أساس منظومة العدل الإلهي نظام فرعوني بحسب المنطق القرآني، فهو وإن كان يتحدث عن فرعون مصر بالخصوص لكنه يقصد عموم مفهوم النظم الفرعونية القائمة على أساس الظلم والاضطهاد.

والأمر بعينه يجري على اليهود فالقرآن الكريم لا يتحدث عنهم بما هم يهود وإنما بما يمثلون من النهج الحق في ذلك الزمان الراض للظلم والباحث عن الخلاص والنجاة من بطش فرعون.

فهو حديث عن نهجين احدهما يمثل إرادة السماء وباحث عن إقامة العدل الإلهي، وآخر يمارس الظلم والبطش بميزان عنصري قبيح.

المعصوم محور نظام العدل الإلهي

في هذا الصراع بيان واضح أنه لا يمكن أن يكون محوراً لنظام العدل الإلهي إلا المعصوم فالمجتمع لا يترك هكذا بدون تسديد، والحديث الشريف الوارد عن رسول الله ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتجهزوا للعرض الأكبر»^(١) هذه المحاسبة والموازنة هي قطعاً بميزان المعصوم، فالنهج الذي يمثله يختلف عن منهج الطاغوت وهو معصوم في تمثيله وتطبيقه، فإذا أصبح المحور هو المعصوم أمكن الجمع بين مختلف زوايا المشروع لأنه هو القادر على تشخيص التوازنات ورعاية المصلحة.

أمير المؤمنين عليه السلام أشار إلى ذلك في إحدى خطبه حول ميزان الحق: «... وَالْحَقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ، لَا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْهِ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَى لَهُ، وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلَا يَجْرِيَ عَلَيْهِ لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصاً لِلَّهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةً

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٧٣.

الثَّوَابِ تَفْضُلاً مِنْهُ وَتَوْسَعاً بِمَا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ..»^(١)، فإن الكثير من الناس يدعي أنه لو حكم لعدل وعند التطبيق لا تجد أثراً لقوله.

وعليه يجب أن يكون من بيده القضاء والأداة معصوماً ليكون ميزاناً بالحق، ولا يكفي أن يكون موجوداً وهو مبعد عن إدارة الأمور كما جرى في طول تاريخ المسلمين مع أهل البيت عليهم السلام.

فالجهد على سبيل المثال في مدرسة أهل البيت عليهم السلام ليس أكثر من أسلمة العقيدة، وأن حاول الغرب كعادته أن يوحى للآخرين أن الجهاد عند المسلمين هو الإكراه على العقيدة، مستغلين الممارسات الخاطئة للبعض ممن يدعي الإسلام من التكفيرين.

وهذا يؤكد بلا ادنى شك على أهمية وضرورة محورية المعصوم في نظام العدل الإلهي فهو المعسد حقيقة لقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^(٢)، ولأن الجهاد في حقيقته ليس أكثر من أسلمة العقيدة: ﴿وَمَا لَكُمْ لَأَنْتُمْ تُلُونَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾^(٣)، فهو إظهار للعدل بين بني البشر والخروج من دائرة الظلم وهو يختلف كلياً عن الإكراه في العقيدة.

فهذه الآية التي تتحدث عن المشروع الإلهي المنجي لم يعنون الظلم كشعار وإنما كنظام اجتماعي جائر يملك منهجاً قائماً على الاضطهاد

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ٨٩.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

(٣) سورة النساء، الآية ٧٥.

والتمييز العنصري، وإلا فإن اليهود لو دانوا بدين فرعون لصاروا ينتمون لمشروع الظالمين ولن يتعرضوا بعدها لظلم آل فرعون، ولصدق قول من يدّعي أن الحرب ليست دينية لأنه - الدين - مشروع فردي، وهذا ليس بصحيح لأنه ليس من المعقول أن يكون هدف الإسلام في باب الجهاد وأبواب أخرى البعد الفردي للإنسان وإن كانت المصلحة الفردية تتحقق بالتبع.

حضور المعصوم نظم لأطياف البشر

في سياق البحث عن المسؤوليات في المشروع الإلهي المُنجي من خلال النظر إلى هذه الآية المباركة أن مجموع أطياف المؤمنين يشكّلون كلاً حسب مساره وقدراته جزءاً من المشروع، ولا يمكن الاقتصار على لون واحد من هذه الأطياف المؤمنة والمختلفة.

فلا يمكن اعتبار أي طيف من أطياف الأمة خطراً على المشروع الإلهي أو انه دخيل عليه وإن لم يكن له مدبر، لأن أي دور لا يمكن الاستهانة به ما دام له نسبة معتبرة في الموازين، وهذا لا يعني نفي السلبات والأخطاء عنه لأن كل فئة هي منطوية على بعض الإخفاقات والسلبات بغض النظر عن مقدار السلب والإيجاب فيها، ولكن تبقى أي نسبة في أي طيف هي جزء من المشروع ولها جزء من الإنجاز لا يمكن التفریط به، وهذا ليس فقط على صعيد المؤمنين بل هو على عموم المسلمين.

إدارة هذه القواعد يحتاج إلى ناظم يللمم هذه الحلقات ويمنع التفریط بأي مقدار كان من هذه الجهود، وهذا الناظم أشارت له الزهراء سلام الله عليها في خطبتها بعد رحيل رسول الله ﷺ: «وَطَاعَتَنَا نِظَاماً لِلْمِلَّةِ، وَإِمَامَتَنَا أَمَاناً مِنَ الْفُرْقَةِ».

إذن هناك بعدان مهمان في هذه المسألة:

الأول: عدم التفريط بجهد أي فئة من فئات هذا المجتمع.

والثاني: ضرورة وجود الرابط الذي يوصل جميع هذه الحلقات مع بعضها البعض ولديه أهمية مركزية في هذا المشروع الإلهي المُنجي. والمعصوم الحي الحاضر هو الرابط وهو مركز التدبير وهو المُنجي في هذا المشروع الإلهي.

وقد روي عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن أمير المؤمنين عليه السلام - على منبر الكوفة - قال: إن من ورائكم فتنة مظلمة عمياء منكسفة لا ينجو منها إلا النومة، قيل يا أمير المؤمنين وما النومة؟ قال: الذي يعرف الناس ولا يعرفونه. واعلموا أن الأرض لا تخلو من حجة الله عز وجل ولكن الله سيعمي خلقه عنها بظلمهم وجورهم وإسرافهم على أنفسهم، ولو خلت الأرض ساعة واحدة من حجة الله لساخت بأهلها، ولكن الحجة يعرف الناس ولا يعرفونه، كما كان يوسف يعرف الناس وهم له منكرون، ثم تلا: ﴿يَحْسُرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(١)»^(٢).

فالإمام المعصوم الحُجَّة هو الرابط الأساس في هذا المشروع، وهو الذي يحفظ الله سبحانه وتعالى به الأرض أمّا بقية حلقات المشروع من طبقات المجتمع فهي متمية لهذا المشروع، وعدم التفريط بحلقة من الحلقات يعني ان كل ما موجود عند المؤمنين والمسلمين ليس هو النهاية، فهم لا يملكون كل تفاصيل المشروع بل لديهم بعض الأجزاء.

(١) سورة يس، الآية ٣٠.

(٢) النعماني، الغيبة، ص ١٤١، ب ١، ح ٢.

حفظ التوازن في المشاريع الإلهية

هذه الآية الكريمة تُبيِّن خارطة المسؤوليات لمشروع المُنجي من آل البيت صلوات الله عليهم كسُنَّة إلهية دائمة.

وهي بمثابة المفاد المحكم الذي يعطف عليه سائر أبواب الأدلة التي يمكن أن يتراءى منها التضارب فيما بينها، فيتحمم بناء خارطة كاملة لا يمكن أن تكون لها نهاية مقدّرة لأن المجتمع غير المعصوم في حالة اكتشاف مستمر لهذا المشروع.

ويمكن أيضاً من خلال هذه الآية المحكمة معرفة أن التوازن المجموعي عند المؤمنين مهم للغاية، وأن الأداء الوظيفي من قبلهم يمكن أن يتم سدّ الحاجة به وإقامة المشروع، وقد جرب هذا الأمر في أكثر من بيئة وعلى أكثر من صعيد.

إضافة إلى أن التوازن المجموعي يقود إلى عدم التفريط بأي فرد من أفراد المجتمع باعتبار أن كلاً له دور وموقع في المشروع المهدوي.

لكن هكذا مشاريع كبيرة تفتح في مساحتها على الدائرة الأوسع تحتاج إلى عملية توازن صعبة جداً، مثلاً في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ

هَلَمَّتْ صَوَامِعُ وَيَبِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا
وَلَيْتَضَرَّبَكَ اللَّهُ مِنْ بَصُرَتُهُ إِنَّكَ اللَّهُ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١﴾، عملية التوازن هي
من تحفظ الكثير من المشاريع الدينية والمصالح الاجتماعية المختلفة،
ففي سبيل المشروع المنجبي وتقريب اجل الظهور يجب عدم التفريط بأي
مجموعة ولو كان على مستوى التوازنات، وهذه العملية صعبة بين صفوف
المؤمنين انفسهم فالعجز واضح فينا في رسم هذه السياسة، ولكن نستطيع
أن نتمثل البعض منها في موارد عديدة مثل السور المكية وحتى في بعض
السور المدنية، ففي السور المكية الله سبحانه وتعالى يأمر النبي ﷺ أن
يمهل الكافرين: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْمُكُمْ رَوِّدًا﴾ (٢).

وهذه المهلة ليس لأن الكافر له حرمة عند الله بل القضاء والتقدير
الإلهي أن يستثمر في صالح المشروع الإلهي، لأن المنظومة البشرية ليست
على وتيرة واحدة، والقواعد الفقهية الراسمة لهذا التوازن قطعاً لا تؤخذ
من آية أو آيتين في القرآن الكريم لأنه مع آية إمهال للكافرين تجد آية
أخرى تصرح بأمر آخر: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ
عَلَيْهِمْ وَمَا وَهُمْ جَاهَنَّمُ وَبئسَ الْمَصِيرُ﴾ (٣).

وهذا الأمر أيضاً موجود على مستوى سيرة الأئمة عليهم السلام فأمر
المؤمنين عليهم السلام قاتل الخوارج ثم أوصى بعدم قتالهم من بعده: «لا تقتلوا
الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه» (٤).

(١) سورة الحج، الآية ٤٠.

(٢) سورة الطارق، الآية ١٧.

(٣) سورة التحريم، الآية ٩.

(٤) الصدوق، علل الشرايع، ص ٢١٨.

فإذا تبدل الموضوع اختلفت زاوية الرؤية في المبحث الواحد، والتوازن من الأمثلة المعقدة والصعبة جداً، لأن غير المسلمين ليسوا بمقياس واحد ومحاور الاستقطاب تختلف بالإضافة إلى اختلاف التوازنات، والمشروع الإلهي ذو مراحل ودرجات وجهات متعددة مع ملاحظة اختلاف الظروف واستمرارية المشروع في البناء والتمهيد.

الفصل الثاني

عملية التغيير الاجتماعي ..
الآليات والنتائج

حقيقة النجاة في المشروع الإلهي

الآية الكريمة في ذكرها لِسُنَّةَ اللَّهِ تَعَالَى في بني إسرائيل بتحقيق المشروع المنجي: ﴿وَإِذْ بَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾^(١)، هناك آية أخرى تتحدث أيضاً عن نجاتهم: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَبْجَيْنَاكُمُ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾^(٢)، فهل هذا تكرار في الحديث عن نجاتهم؟ أم انه إشارة إلى حديثين مختلفين؟

هو حديث عن وضعين مختلفين لأن أصل المشروع المنجي لم يتمّ عندما تمّ عبور البحر، فالنجاة من فرعون بعبور البحر هي نجاة لأنفسهم من القتل.

أما النجاة الحقيقية والتي هي هدف وأصل المشروع المنجي فهي تتمّ عندما يرتبط بنو إسرائيل عقائدياً وولائياً بالمنجي وينقادون له، هذا الارتباط الولائي هو نجاة من الذوبان في الأنظمة الفرعونية الجائرة.

المؤمن عندما يرتبط بالمنجي في كل توجهاته وتطلعاته وكذلك في

(١) سورة البقرة، الآية ٤٩.

(٢) سورة البقرة، الآية ٥٠.

برنامج العمل يكون قد نجى من السقوط في حلقات النظام الفرعوني، والفرقة الناجية هي من ترتبط منهجياً وسلوكياً بالمنجي وتنتظر الفرج فتصبح في أعظم وأعلى درجات العبادة.

فلسفة انتظار الفرج هي في برمجة المؤمن لولائه وانتمائه وجعل المنجي هو المحور في مواقفه، عندها ستتكرر كل معاول الظلم عند صبر الانتظار لنعم بحقيقة النجاة.

أما النصر السياسي والعسكري ومتى يعلن فهذا يأتي بمرتبة بعد النجاة: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ (١).

نفس الانتماء والارتباط بالمنجي يحول المؤمن من طاقة مستهلكة مجتدة في مشروع الشر إلى طاقة إيجابية وحلقة من حلقات المشروع المنجي.

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام ما يشير إلى أهمية الانتظار بعد الارتباط العقائدي بالمنجي، فقد روى السندي عن جده، أنه قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: مَا تَقُولُ فِيمَنْ مَاتَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، مُتَنظِرًا لَهُ؟ قَالَ: «هُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ كَانَ مَعَ الْقَائِمِ فِي فُسْطَاطِهِ»، ثُمَّ سَكَتَ هُنَيْهَةً، ثُمَّ قَالَ: «هُوَ كَمَنْ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» (٢).

وَعَنْ عَلَاءِ بْنِ سَيَّابَةَ، قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ مُتَنظِرًا لَهُ كَانَ كَمَنْ كَانَ فِي فُسْطَاطِ الْقَائِمِ عليه السلام» (٣).

(١) سورة البقرة، الآية ٥٠.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ١٢٥.

(٣) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ١٢٥.

من الواضح أن الانتظار هو مدرسة تصنع الأبطال المتميزين، والمنتظر يتروّض في تلك المدرسة ويتربى فيها تربية كاملة تجعله يتحمل أعلى مراتب المسؤولية، وهذه التربية تمكّنه من أن يتحلّى بكل صفات المؤمن الصادق الذي لا تأخذه في الله لومة لائم .

والارتباط هو الالتزام بالضوابط وفق نهج المنجي الإلهي في كل صغيرة وكبيرة.

وقد ورد عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام في حديث طويل أنه قال: «تَمَتَّدُ الْغَيْبَةُ بِوَلِيِّ اللَّهِ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ أَوْصِيَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْأَيِّمَةُ بَعْدَهُ . يَا أَبَا خَالِدٍ، إِنَّ أَهْلَ زَمَانٍ غَيْبَتِهِ الْقَائِلُونَ بِإِمَامَتِهِ الْمُتَنَتِّظُونَ لِظُهُورِهِ أَفْضَلُ أَهْلِ كُلِّ زَمَانٍ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ أَعْطَاهُمْ مِنَ الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ وَالْمَعْرِفَةِ مَا صَارَتْ بِهِ الْغَيْبَةُ عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْمَشَاهِدَةِ، وَجَعَلَهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِينَ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالسَّيْفِ، أَوْلَيْكَ الْمُخْلِصُونَ حَقًّا، وَشَيْعَتُنَا صِدْقًا، وَالدُّعَاةُ إِلَى دِينِ اللَّهِ سِرًّا وَجَهْرًا»^(١).

هذا هو الارتباط الذي يعتبره القرآن الكريم نجاة وخروج من دائرة الظلم والجور، وانتماء إلى نهج العدل الإلهي من خلال الارتباط بخليفة الله المصطفى من عنده جلّت قدرته.

والإمام الصادق عليه السلام يُبين عظمة هذا الارتباط والانتظار بوصف عجيب يظهر فيه قيمة هذه العبادة العظيمة، فقد روى عمّار السَّاباطِيُّ أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: الْعِبَادَةُ مَعَ الْإِمَامِ مِنْكُمْ الْمُسْتَرِّ فِي السَّرِّ فِي

دَوْلَةَ الْبَاطِلِ أَفْضَلُ أَمِ الْعِبَادَةِ فِي ظُهُورِ الْحَقِّ وَدَوْلَتِهِ مَعَ الْإِمَامِ الظَّاهِرِ مِنْكُمْ؟

فَقَالَ: «يَا عَمَّارُ، الصَّدَقَةُ فِي السِّرِّ وَاللَّهُ أَفْضَلُ مِنَ الصَّدَقَةِ فِي الْعَلَانِيَةِ، وَكَذَلِكَ عِبَادَتُكُمْ فِي السِّرِّ مَعَ إِمَامِكُمُ الْمُسْتَتِرِ فِي دَوْلَةِ الْبَاطِلِ أَفْضَلُ - لِحَوْفِكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ فِي دَوْلَةِ الْبَاطِلِ وَحَالِ الْهُدْنَةِ - مِمَّنْ يَعْبُدُ اللَّهَ فِي ظُهُورِ الْحَقِّ مَعَ الْإِمَامِ الظَّاهِرِ فِي دَوْلَةِ الْحَقِّ، وَلَيْسَ الْعِبَادَةُ مَعَ الْخَوْفِ فِي دَوْلَةِ الْبَاطِلِ مِثْلَ الْعِبَادَةِ مَعَ الْأَمْنِ فِي دَوْلَةِ الْحَقِّ .

اعْلَمُوا أَنَّ مَنْ صَلَّى مِنْكُمْ صَلَاةً فَرِيضَةً وَحَدَانًا مُسْتَتِرًا بِهَا مِنْ عَدُوِّهِ فِي وَقْتِهَا فَاتَمَّتْهَا كَتَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِهَا خَمْسًا وَعِشْرِينَ صَلَاةً فَرِيضَةً وَحَدَانِيَّةً، وَمَنْ صَلَّى مِنْكُمْ صَلَاةً نَافِلَةً فِي وَقْتِهَا فَاتَمَّتْهَا كَتَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِهَا عَشْرَ صَلَوَاتٍ نَوَافِلَ، وَمَنْ عَمَلَ مِنْكُمْ حَسَنَةً كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا عِشْرِينَ حَسَنَةً، وَيُضَاعَفُ اللَّهُ تَعَالَى حَسَنَاتِ الْمُؤْمِنِ مِنْكُمْ إِذَا أَحْسَنَ أَعْمَالَهُ، وَدَانَ اللَّهُ بِالتَّقِيَّةِ عَلَى دِينِهِ وَعَلَى إِمَامِهِ وَعَلَى نَفْسِهِ، وَأَمْسَكَ مِنْ لِسَانِهِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً كَثِيرَةً، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَرِيمٌ».

قَالَ: فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ قَدْ رَغَبْتَنِي فِي الْعَمَلِ، وَحَثَّيْتَنِي عَلَيْهِ، وَلَكِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَعْلَمَ كَيْفَ صِرْنَا نَحْنُ الْيَوْمَ أَفْضَلُ أَعْمَالًا مِنْ أَصْحَابِ الْإِمَامِ مِنْكُمْ الظَّاهِرِ فِي دَوْلَةِ الْحَقِّ، وَنَحْنُ وَهُمْ عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ دِينُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟!، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَبَقْتُمُوهُمْ إِلَى الدُّخُولِ فِي دِينِ اللَّهِ وَإِلَى الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَإِلَى كُلِّ فِقْهِ وَخَيْرٍ، وَإِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ سِرًّا مِنْ عَدُوِّكُمْ مَعَ الْإِمَامِ الْمُسْتَتِرِ، مُطِيعُونَ لَهُ، صَابِرُونَ مَعَهُ، مُتَنظِّرُونَ لِدَوْلَةِ الْحَقِّ، خَائِفُونَ عَلَى إِمَامِكُمْ وَعَلَى أَنْفُسِكُمْ مِنَ الْمُلُوكِ، تَنْظُرُونَ إِلَى حَقِّ

إِمَامِكُمْ وَحَقِّكُمْ فِي أَيْدِي الظَّلَمَةِ قَدْ مَنَعُوكُمْ ذَلِكَ، وَاضْطَرُّوكُمْ إِلَى جَذَبِ الدُّنْيَا وَطَلَبِ المَعَاشِ مَعَ الصَّبْرِ عَلَى دِينِكُمْ وَعِبَادَتِكُمْ وَطَاعَةِ رَبِّكُمْ وَالْخَوْفِ مِنْ عَدُوِّكُمْ، فَبِذَلِكَ ضَاعَفَ اللهُ أَعْمَالَكُمْ، فَهَيِّئُوا لَكُمْ هَيِّئًا».

قَالَ: فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، فَمَا نَتَمَنَّى إِذَا أَنْ نَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ القَائِمِ عليه السلام فِي ظُهُورِ الحَقِّ وَنَحْنُ اليَوْمِ فِي إِمَامَتِكَ وَطَاعَتِكَ أَفْضَلُ أَعْمَالًا مِنْ أَعْمَالِ أَصْحَابِ دَوْلَةِ الحَقِّ؟!!

فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ أَمَا تُحِبُّونَ أَنْ يُظْهِرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الحَقَّ وَالعَدْلَ فِي البِلَادِ، وَيُحَسِّنَ حَالَ عَامَّةِ النَّاسِ، وَيَجْمَعَ اللهُ الكَلِمَةَ، وَيُؤَلِّفَ بَيْنَ القُلُوبِ المُخْتَلِفَةِ، وَلَا يُعَصِيَ اللهُ فِي أَرْضِهِ، وَيُقَامَ حُدُودُ اللهِ فِي خَلْقِهِ، وَيُرَدَّ الحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ، فَيُظْهِرُوهُ حَتَّى لَا يَسْتَخْفِيَ بِشَيْءٍ مِنَ الحَقِّ مَخَافَةً أَحَدٍ مِنَ الخَلْقِ؟!!

أَمَا وَاللهِ يَا عَمَّارُ، لَا يَمُوتُ مِنْكُمْ مَيِّتٌ عَلَى الحَالِ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا إِلَّا كَانَ أَفْضَلَ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ كَثِيرٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَأُحُدًا فَأَبْشُرُوا»^(١).

وهذا يدل على أن المسؤولية الحقيقية هي قبل الظهور، وان الارتباط بالمُنْجِي قبل الظهور وانتظاره هي النجاة، وان البناء في السر لدولة القسط والعدل هو الدور الأعظم من البناء في عصر الظهور.

وما بينه القرآن الكريم من خلال تلك الآيتين هو أن النجاة الحقيقية حصلت بارتباطهم بالمُنْجِي وهو النبي موسى عليه السلام وهذا الأمر حدث قبل أن يعبر بنو إسرائيل البحر، وعندما ارتبطوا بالمُنْجِي تحصلوا ثمار هذا الارتباط.

شروط النجاة في المشروع الإلهي

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾^(١) إشارة إلى أن السنة الإلهية في التغيير الاجتماعي والسياسي وإصلاح المجتمع هي فعل الله سبحانه وتعالى.

والبشرية اليوم تعيش كل هذه الابتلاءات وتشير الأرقام إلى هول الجرائم المنظمة ضد الإنسانية من سفك للدماء وهتك للأعراض وغيرها من الجرائم، هذه الأرقام تخرج من منظمات تابعة للأمم المتحدة مع أنه يشرف على تلك المنظمات نفس أولئك الذئاب والمافيات ولكن مع ذلك تظهر الكثير من إحصائيات الجرائم ضد البشرية.

هذه النجاة للبشرية - نجيناكم - كفعل من أفعال الله وضع لها البارئ جلّت قدرته قوانين ومعادلات في كتابه الكريم منذ أكثر من ١٤٠٠ عام ولكن البشرية لم تقم بشروط هذه القوانين ولو فعلت لحقق الله الوعد: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

وعليه يكون التأخير في حصول الفرج هو بسبب أفعال الناس

(١) سورة البقرة، الآية ٤٩.

(٢) سورة الروم، الآية ٦.

أنفسهم، فقد ورد عن الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف في رسالته الثانية إلى الشيخ المفيد (رض) ما نصه: «ولو أن أشياعنا - وفقهم الله لطاعته - على اجتماع من القلوب في الوفاء بالعهد عليهم، لما تأخر عنهم اليمن بلقائنا، ولتعجلت لهم السعادة بمشاهدتنا على حق المعرفة وصدقها منهم بنا . فما يحبسنا عنهم إلا ما يتصل بنا مما نكرهه ولا نؤثره منهم . والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل..»^(١). فتقصير المؤمنين وإخفاقهم في أداء مسؤولياتهم سبب رئيس في تأخير الفرج.

والقرآن الكريم ذكر قصة هارون في قوم موسى ﷺ: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٢)

فأغلب هذه الإخفاقات أسبابها الرئيسية أما أن الأمة كان ينقصها الحس والعقلية الأمنية، أو أنهم لم ينصروا إمامهم، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام من كلام طويل لسائل سأله: «..أما لو كملت العدة الموصوفة ثلاثمائة وبضعة عشر كان الذي تريدون، ولكن شيعتنا من لا يعدو صوته سمعه، ولا شحناؤه بدنه..»^(٣)

وعليه فإن النجاة والتي هي فعل الله على يد اوليائه لن تتم إلا بالتزام الناس بشروطها التي وضعها سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ١٧٧

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٠.

(٣) النعماني، الغيبة، ص ٢٠٣، باب ما يلحق الشيعة من التمحيص والفرق والتشتت عند

الغيبة حتى لا يبقى على حقيقة الأمر إلا الأقل الذي وصفه الأئمة عليهم السلام.

حَتَّىٰ يُعَرِّوْا مَا بِنَفْسِهِمْ ﴿١﴾، يعني لا بد لهم أن يستعدوا لتكون لهم القابلية
وإلا بطلت حكمة الامتحان الإلهي في تكامل البشر وتطورهم.

وهذا يعني أن أسباب النجاة وظهور المُنجي للبشرية يعود على
البشرية نفسها، وهذا منطوق أصيل في القرآن الكريم في الآية السالفة وفي
آيات أخرى: ﴿وَالْوَأَلُوْا اسْتَقَمُّوْا عَلَى الطَّرِيْقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ (٢).

على ضوء هذه الأصالة القرآنية لهذا المفهوم يجب دراسة استراتيجية
المشروع الإلهي المهدوي من السقيفة حتى اليوم، والمنظومة الإلهية من
الإمام صلوات الله عليه ومن المؤمنين تقع على عاتقهم مسؤولية معالجة
هذا الإخفاق، يعني ان يتم التدرج في تربية الأمة لكي تصل إلى مرحلة
الاستعداد والقابلية لتنفيذ وعد الله سبحانه، فالمشروع لم يقف أصلاً بل
انه قد خطط له لكي ينجز، فنجاة البشرية هي غاية وهدف كل ما في الامر
أن يراعي المؤمن المقدمات والمراحل التدريجية والطبيعية.

إذن استراتيجية المشروع الإلهي هي السير خطوة بعد خطوة، ولو
كانت هناك أنظمة قوية ذات منعة قادرة على توفير الحماية الأمنية للإمام
عجل الله فرجه الشريف وتمنع عنه فانه بلا شك سيبدأ مسيرته في العلن،
لكن إلى الآن لم تتوفر هذه الأرضية المناسبة .

هذا الطفل البشري يجب عليه أن يبلغ ويكون قادراً لأنه هو من
سيمارس عملية التغيير لكي تكون هناك قوة ومنعة، فلا يظن أحد أنه لا
مشروع في البين!، بل الخطى حثيثة والسعي نحو المسؤولية بحركة دؤوبة،

(١) سورة الرعد، الآية ١١ .

(٢) سورة الجن، الآية ١٦ .

لكنها بحاجة إلى عملية إصلاح ذاتي من قبل الفرد والجماعة لينعكس بالتالي أثره على معسكر الإيمان برمته.

وأعداء المشروع الإلهي يستهدفون أيضاً في حربهم ضد المشروع المهدوي الجوانب غير المرئية عند المؤمنين ومحاولة سلبهم الاستقامة على المستوى الشخصي، فيتحولون من الإخلاص والطاعة للمشروع الإلهي إلى عصاة يندمجون في مشاريع الإلحاد والفساد المالي والإداري وكل العناوين الأخرى الفاسدة حتى يخرج من دائرة المسؤولية الإيمانية. إضافة إلى زرع الفتن بين المؤمنين وإشغالهم بصراعات جانبية لإنهاك الأمة وإبعادها عن أداء دورها في المشروع الإلهي.

تذكير بالنعمة في سبيل المشروع

الآيات القرآنية في تذكير بني إسرائيل بأنواع النعمة الإلهية عليهم وحثهم على وجوب شكرها بالضرورة سيتم التعرف على هذه النعمة روحياً وقلبياً وبالتالي تعظيم الباري سبحانه وتعالى والتسليم له.

والله سبحانه وتعالى في خطابه لبني إسرائيل توصيات لتترك أثرأ روحياً ومعرفياً عليهم لأنه يخاطب قلوبهم وعقولهم من خلال تذكيرهم بتلك النعمة قال تعالى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١)، ونفس هذه الآية ذكرت مرة أخرى في سورة البقرة الآية ١٢٢.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا الَّتِي بَنَرْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ﴾^(٣).

(١) سورة البقرة، الآية ٤٧.

(٢) سورة الأعراف، ١٣٧.

(٣) سورة طه، الآية ٨٠.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾^(١)، وغيرها الكثير من الآيات التي تتحدث عن النعم الإلهية ومعرفة تلك النعم تستوجب الشكر الذي يستتبع الخضوع والطاعة.

وقد علم الله سبحانه وتعالى موسى قبل ذلك كيف يكون شكر النعم الإلهية في بعدها الاجتماعي والأخلاقي السياسي: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾^(٢)، وعليه فهذه النعم الإلهية على بني إسرائيل يجب أن يكون ورائها التزام وطاعة، وهذه الطاعة تعني تحمّل المسؤولية والالتزام بدور ما في المشروع الإلهي المنجي.

(١) سورة الدخان، الآية ٣٠ .

(٢) سورة القصص، الآية ١٧ .

التذكر ودوره في المعرفة والتغيير

تذكير الله سبحانه وتعالى لبني إسرائيل بنعمه عليهم مع بيان أهمية شكر المنعم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^(١) يعني حتى نعمة الله سبحانه وتعالى في نجاة بني إسرائيل إن شُكرت فهي قابلة للزيادة من قبل المولى ولكن هذا الشكر يحتاج إلى معرفة.

أعظم أنواع الشُّكر هو نفس معرفة النعمة في قبال أعظم أنواع الكفر هو كفر النعمة، فالمعرفة تسليم وإقرار والكفر جحود وإنكار.

ولأنه ليس هناك جبر فالإنسان يمكن له أن يستحب العمى على الهدى، ويمكن له أن يحبذ الكفر والفسوق والعصيان! مع أن الله سبحانه وتعالى ذكر في مُحكم كتابه الكريم: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَانَ وَرِزْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾^(٢) ولأنه ليس هناك إلزام في الحبِّ والبُغض يسلك بعض الناس لعدم رشدهم طريق الغي والكفر وجحد النعم: ﴿قَالَ

(١) سورة إبراهيم، الآية ٧.

(٢) سورة الحجرات، الآية ٧.

يَقْوِمُ أَرْءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَانِنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنزَلْنَاكُمْ مَكْمُومًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿١﴾

قد يعتقد البعض أن المحبة والكره ليست اختيارية بل هي في جِبَلَة الإنسان وهذا من مصائد الشيطان، نعم هذا الأمر له آليات وأسباب يمكن للإنسان أن يستهين بها فلا تتوَلَّد عنده محبة الخير والإيمان، على سبيل المثال كثرة تذكُّر النِّعم وتكرارها في ذهن الإنسان إلى أن يأنس بها ويبدأ التفاعل القلبي والروحي معها فتفتتح له الأبواب.

لذا ورد في الأثر استحباب زيارة المراقد المقدسة للأئمة الطاهرين عليهم الصلاة والسلام بكثرة، وتكرار هذه الزيارات مع التفكُّر، وتذكُّر دورهم في الهداية وفضلهم على البشرية، وتجديد العهد بهم لتوطيد العلاقة معهم والحفاظ على محبتهم بزيادة التواصل الروحي والمحبة القلبية.

فالذكر وتكراره باستمرار هو مدرسة ومنهج عظيم في الرياضة الروحية، وتربية الروح على التذكر القلبي بالخصوص توجب الالتفات إلى النِّعم الإلهية العظيمة.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الناس أعداء ما جهلوا»^(٢) إشارة إلى هذا المعنى أن الجهل بالشيء يوجب الجفاء والابتعاد عنه وكرهه فيما بعد.

فالله سبحانه وتعالى أكد كثيراً على التذكر في محكم كتابه الكريم

(١) سورة هود، الآية ٢٨.

(٢) الشيخ المفيد، الاختصاص، ص ٢٤٥

لدوره الكبير في المعرفة وبالتالي الشكر والقرب ليستحق فيما بعد نصر الله الذي يعني الاقتراب كثيراً من إتمام المشروع الإلهي المنجي.

فقلب الإنسان الذي هو موطن التذكر لديه طاقة مستمرة من العمل لأنه لا يكل ولا يمل في ممارسة عملية التذكر في الخير والشر على حد سواء، ولذا مهمة الإنسان هو استثماره في جانب الخير، وهذا هو الهدف الإلهي في تذكير بني إسرائيل بأنواع النعم الإلهية، وحتى عملية التغيير تحتاج كمقدمة أن يقر المؤمن بالحق ويدعن له وهذا الإقرار يتطلب بالدرجة الأولى معرفة الحق لكي يقر به ويستسلم له.

البداء وأثره في المشروع الإلهي المنجي

وعد المناجاة مع موسى ﷺ ملحمة عظيمة وهي درس عملي لبني إسرائيل لكي لا يدب اليأس والقنوط إلى قلوبهم: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَدْرُونَ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١)، فاللقاء كان مقررًا له أن يكون ثلاثين ليلة، الله سبحانه وتعالى أتمها بعشرٍ آخر فأصبحت أربعين ليلة وهذا يعني أن باب البداء الإلهي يبقى مفتوحاً.

هذا المفهوم يرتبط مصيرياً بالمشروع المنجي الإلهي، يعني أيها العبد المؤمن حتى لو قدرت المقادير بشيء ما تبقى أنت صاحب المسؤولية ما دمت ملحاحاً في الدعاء والتضرع.

المشكلة في بني إسرائيل هنا بالذات أنهم لا يعتقدون بالبداء: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾^(٢)، أي إن الله سبحانه وتعالى قد فرغ من خلقه فلا تأثير لشيء بعدها!.

هذه المفاهيم الخاطئة التي اجتاحت بني إسرائيل كانت سبباً مباشراً

(١) سورة الأعراف، الآية ١٤٢.

(٢) سورة المائدة، الآية ٦٤.

في بلائهم ومحتتهم، فقد تركوا أعظم الأسلحة التي تمكنهم من منازلة فرعون وكل طواغيت الأرض وهو الدعاء، وقد دعاهم الله سبحانه وتعالى إلى التوبة لكنهم أصروا: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ وَسَزِّدْ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١).

أثر الدعاء مهم في عودة العبد إلى ربه أولاً، ثم يكون بعدها في جنة من ظلم الطغاة، لكن بني إسرائيل بإصرارهم وتكبرهم أصبحوا منالاً سهلاً لفرعون وأعدائه، مع أن الدعاء هو قوة للعبد في عبوديته وخضوعه لله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٢).

وحذّرهم سبحانه وتعالى من الهوان، كما في قوله تعالى: ﴿قَلْ مَا يَعْبُونَكَ يَا كُرَيْبُ لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ (٣).

ووبّخهم على فوت الفرص: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ (٤).

وأرشدهم قبل فوات الآوان: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرُّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (٥).

هذه هي المشكلة الكبيرة في بني إسرائيل التكبر عن العبادة والخضوع

(١) سورة البقرة، الآيتان ٥٨ - ٥٩.

(٢) سورة غافر، الآية ٦٠.

(٣) سورة الفرقان، الآية ٧٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية ٥٥.

(٥) سورة الأنعام، الآية ٤٣.

لله سبحانه وتعالى بالدعاء، وقد وردت الآيات الكثيرة الدالة على أهميته في حياتهم وفي نجاح المشروع الإلهي المنجي.

لذلك أخذ الدعاء في مدرسة أهل البيت عليهم السلام بعداً واسعاً باعتبار أن الدعاء منّ العبادة، بل إن العبادة هي الدعاء لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (١)، وأهمية الدعاء عند أهل البيت عليهم السلام أنهم جعلوه من القدر وبرتبة أعلى من غيره من التقديرات، فإن الأمر المقدر وقد أبرم إبراماً لا يرده إلا الدعاء!.

فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لأصحابه: «ألا أدلكم على سلاح ينجيكم من أعدائكم ويدرّ أرزاقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال صلى الله عليه وآله: تدعون ربكم بالليل والنهار فإنّ سلاح المؤمن الدعاء» (٢)

وورد عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال لزرارة: «ألا أدلك على شيء لم يستثن فيه رسول صلى الله عليه وآله؟ قلت: بلى، قال: الدعاء يردّ القضاء وقد أبرم إبراماً - وضم أصابعه -» (٣).

وعن الإمام أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام قال: «عليكم بالدعاء فإنّ الدعاء والطلب إلى الله عزّ وجلّ يردّ البلاء، وقد قدر وقضى، فلم يبق إلا إمضاؤه فإذا دُعي الله وسئل، صرفّ البلاء صرفاً» (٤).

(١) سورة غافر، الآية ٦٠.

(٢) الكليني، الكافي، ج ٢، ص ٤٦٨.

(٣) الكليني، الكافي، ج ٢، ص ٤٧٠.

(٤) المصدر نفسه.

وصف الله سبحانه وتعالى للذين لا يتوجهون إليه من خلال الدعاء بالاستكبار وهذا يعني أن الدعاء هو لسان الفقر، فمتى ما أدرك الإنسان فقره لله سبحانه وتعالى فقد نفى (الأنا) والتي لا تنتفي عند الإنسان إلا بأدراك الفقر لله سبحانه وتعالى، لأن كل إنسان توجد فيه الروح الفرعونية ومتى ما وجد الأجواء المناسبة قال (أنا ربكم الأعلى)، فالتضرع والدعاء هو إعلان الإنسان لفقره أمام الله جلّت قدرته.

هذا المفهوم بأكمله هو في صميم المشروع الإلهي المنجي، وهو مكمل للأليات المهيئة لتقريب تحقيق الهدف في هذا المشروع الإلهي.

إذن بتمديد الوعد الإلهي من ثلاثين يوماً إلى تمام الأربعين فهذا يعني أن القدر الإلهي قابل للبداء. بل إن البداء في السنن الإلهية له دور مهم وحيوي في مشاريع الإصلاح، لأنه يعطي للإنسان الحيوية والنشاط المستمر ومنع الخمول أو التوقف، فيبقيه دائماً بين الخوف والرجاء فلا الأمل هنا يجعله يتقاعس ولا الخوف يصيبه باليأس والإحباط.

وهذه الفلسفة العظيمة للبداء تصبّ في صالح المشروع الإلهي المنجي من خلال حركة المؤمنين المستمرة والدائبة للوصول إلى تحقيق هذا المشروع على أرض الواقع.

صبر المؤمن في سبيل أهدافه نجاة له

في هذه الآية المباركة تأكيد على أن نجاة الإنسان بيده، وإن كان الفعل فعل الله سبحانه وتعالى ولكن سُنَّةَ الله في خلقه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾^(١)، يعني يجب أن تكون الخطوة الأولى من المؤمن في المساهمة بمشروع المنجي الإلهي، فإن الله سبحانه وتعالى جعل هذه النجاة هي الأصل والغلبة السياسية والأمنية فرع لهذه الأولى وتالية لها.

العمدة والأساس الآن في المسؤولية هو أن تتسع رقعة المشروع الإلهي جغرافياً مع استمرار التعايش مع الآخر، ولكن يجب بقاء الإصرار على هذا النهج رغم الألم والمعاناة، فأهات بني إسرائيل لم تنتهي لكن حيرتهم انتهت بالنجاة الحقيقية من خلال الارتباط بالمشروع الإلهي المنجي وتمسكهم بنهج النبي موسى ﷺ.

لذلك أراد فرعون قتل موسى ﷺ لأنه رأى الصبر الذي أظهره وقاد إليه بني إسرائيل قد بدأت آثاره تظهر من خلال اتساع رقعة الموالين المؤمنين فأراد فرعون حينها التخلص منه، وهذا الأمر أيضاً جرى مع

النبي الأعظم ﷺ فبعد ثلاث عشر سنة من الدعوة إلى الله في مكة وصبر النبي بدأت آثاره بالظهور على الساحة باتساع دائرة المؤمنين قررت قريش التخلص من النبي ﷺ بالتصفية الجسدية واضطر حينها إلى الهجرة من مكة.

وما يجري اليوم على أتباع آل البيت ﷺ هو النهج الظالم نفسه، حرب معلنة ضدهم لأن صبرهم بدأت تظهر نتائجه برعاية المولى عجل الله فرجه الشريف.

ومن أشدّ صنوف هذه الحرب المعلنة ضد الإسلام ومشروعه الإلهي المُنجي ومنع تمدده هو خلق النماذج المشوّهة في الساحة الإسلامية من أجل ضرب المشروع إعلامياً ونفسياً!

لذلك فإن المطلوب من المرتبطين بهذا المشروع الإلهي من المؤمنين تقديم الصورة الحقيقية للمشروع الإلهي من خلال التعايش السلمي، وإظهار الوجه الجميل والجذاب لخلق كل الأصوات النشاز من أصحاب الشعارات الجوفاء، لتتنفس رئة البشرية روح هذا المُنجي العظيم وتخليصها من آلام وآهات هذا البلاء الذي تعيشه، ولن يصل هذا الصوت إلى مسامع المتعطشين للخلاص من الظلم إلا بالصبر والهدوء والسكينة، وعدم الانجرار إلى ما يريده العدو بالتصادم والحروب.

الفصل الثالث

مقومات المشروع الإلهي
في عملية التغيير

المشروع الإلهي وحفظ المسؤولية

تعدّد الجبهات في المواجهة بين الكفر والإيمان يستدعي تعدّد المسؤوليات عند المؤمنين، أهمها أن نجعل نصب أعيننا همّ المشروع الإلهي المُنجي فيكون خارطة لكل فرد منّا أو جماعة، نستبدل همّ الأناية والأسرة والعشيرة والحزب لنعيش همّاً أقدس وهو هم المشروع الإلهي المُنجي.

ورد عن أبي عبد الله عليه السلام أنه دخل عليه بعض أصحابه، فقال له جعلت فداك إني والله أحبك وأحب من يحبك، يا سيدي ما أكثر شيعتكم، فقال له اذكرهم، فقال كثير، فقال تحصيهم؟!، فقال هم أكثر من ذلك، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «أما لو كملت العدة الموصوفة ثلاثمائة وبضعة عشر كان الذي تريدون، ولكن شيعتنا من لا يعدو صوته سمعه، ولا شحناؤه بدنه، ولا يمدح بنا معلناً، ولا يخاصم بنا قالياً، ولا يجالس لنا عائباً، ولا يحدث لنا ثالِباً، ولا يحب لنا مبغضاً، ولا يبغض لنا محبباً، فقلت فكيف أصنع بهذه الشيعة المختلفة الذين يقولون إنهم يتشيعون؟ فقال: فيهم التمييز وفيهم التمحيص وفيهم التبديل يأتي عليهم سنون تفنيهم، وسيف يقتلهم، واختلاف يبدهم، إنما شيعتنا من لا يهرّ هرير الكلب ولا يطمع طمع الغراب ولا يسأل

الناس بكفه وإن مات جوعاً، قلت جعلت فداك فأين أطلب هؤلاء الموصوفين بهذه الصفة؟....»^(١)

أيضاً من الأمور المهمة والخطيرة في استراتيجية المشروع المنجي هو حفظ الأماكن المقدسة تمهيداً لإكمال الوعد الإلهي، والقرآن الكريم ذكر لنا قصة قوم موسى لما رفضوا الدخول إلى الأرض المقدسة خوفاً من العمالقة فعاقبهم الله سبحانه وتعالى لتعاسهم وتخاذلهم: ﴿يَقَوْمِ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَىٰ آذَانِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾^(٢).

عدم حفظ الأماكن المقدسة من قبل الأمة يعني أن هذه الأمة ضعيفة وغير قادرة على حفظ مسؤوليتها ودورها في حفظ المشروع الإلهي، لذلك كان العقاب لبني إسرائيل أن ضربهم الله سبحانه وتعالى بالتيه لأربعين عاماً فقدوا خلالها نبي الله موسى وخليفته هارون عليهما السلام: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^(٣).

عدم قيام الأمة بمسؤولياتها في حفظ المقدسات سيجلب عليها

(١) النعماني، الغيبة، ص ٢٠٣، باب ما يلحق الشيعة من التمحيص والفرق والتشتت عند

الغيبة حتى لا يبقى على حقيقة الأمر إلا الأقل الذي وصفه الأئمة عليهم السلام.

(٢) سورة المائدة، الآيات ٢١ - ٢٢.

(٣) سورة المائدة، الآيات ٢٤ - ٢٦.

الدمار، وستدفع لسنوات طويلة ثمناً باهظاً، وهذا بالفعل ما حل ببني إسرائيل بعد عصيانهم نبي الله موسى ﷺ، والأمر ينطبق على أمم أخرى لم تدافع عن مقدساتها فابتليت بالذل والهوان ومصادرة لقرارها ووجودها طيلة عقود من الزمن، كما حدث في هدم قبور أئمة البقيع عليهم السلام ولم تتحرك الأمة حينها فكان أن أعيدت عليهم الكرة مرة أخرى وسلب من أيديهم بيت المقدس وبقية المقدسات.

الفاعلية الصادقة مع المشروع المنجي

المطلوب من الأمة أن تكون عالية الهمة في تفاعلها مع المشروع المنجي، والقرآن الكريم أيضاً يذكر لنا قصة أخرى لبني إسرائيل وهي قصة طالوت ووصول بني إسرائيل إلى مرحلة الندم على خذلانهم لنبيهم ومن ثم إبتلائهم بذل التيه وهوانه:

﴿الَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾.

هذه الرغبة الجامحة لبني إسرائيل في القتال بعد أن فقدوا كل شيء تقريباً بسبب ضعفهم وخوائهم، ولأن أكثرهم لا يملك الهمة الكافية

للدفاع عن المشروع الإلهي المُنجي فلم يقيم أغلبهم بدوره المطلوب في المسؤولية لأنهم لم ينتصروا على أنفسهم، ولم يصلحوا ذاتهم ليكونوا أنصاراً للمشروع الإلهي.

وقد اختبرهم طالوت قبل الحرب وكعادتهم فشل أكثرهم في هذا الاختبار أيضاً وهم الذين طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله! ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَهُ كَثِيرَةٌ يَأِذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١).

من الذي صبر في تلك المهمة؟ الفئة القليلة التي انتصرت على نفسها مسبقاً فكانت عوناً فيما بعد في المشروع الإلهي المُنجي، داود عليه السلام لم يكن نبياً في ذلك الوقت، وهو حتى لا يملك سلاحاً ولا جواداً يمتطيه وكان مزهوداً فيه لا يعرفه الكثير! لكن همته تزيل الجبال وهنا تكمن فاعلية المؤمن في نصرته للمشروع الإلهي، صمد هو والثلة القليلة من المؤمنين ورمى جالوت بحجر في تلك المعركة فقتله، وكتب الله الفتح على يديه بعد عشرات السنين من الخوف والذل والهوان الذي عاشه بنو إسرائيل: ﴿فَهَزَمُوهُمْ يَأِذِنُ اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢).

(١) سورة البقرة، الآية ٢٤٩.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٥١.

بهذه الهمة الكبيرة والتوكل المطلق على الله سبحانه وتعالى استطاع النبي داود عليه السلام أن يقدم دعواً معنوياً كبيراً لأمته، صحيح أن النصر من عند الله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^(١) ولكن الله سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين إرادة صادقة مدبرة وناصحة لكي يمنّ على المؤمنين بنصره «أشهد أنك بالغت في النصيحة، وأعطيت غاية المجهود..» يعني أن يصدق في نصيحته للمشروع الإلهي لا أن يتحین الأعدار.

(١) سورة آل عمران، الآية ١٢٦.

الاطمئنان والثقة في أداء المسؤولية

هناك نموذج عظيم في التاريخ لرجل بقي وحيداً بعد حرب نفسية مخادعة سحبت قاعدته من تحت يده، فكان بسبب بصيرته أن أصبح نموذجاً يحتذى وعبرة ماثلة للأجيال.

صحيح أنه بقي يحارب وحيداً لكنه كان يملك نفساً مطمئنة واثقة بصيرة وكأن قاعدته لم تخذله، بقي يقاتل بنشاط وحيوية وما تغلبوا عليه إلا بخديعة أخرى في ساحة المعركة.

مسلم بن عقيل هذه النفس المسؤولة والتي لم يدب فيها الهوان ولم يصل إليها الخضوع والاستسلام، وتمسك بمسؤوليته في أداء الدور في المشروع الإلهي المنجي.

مع انه قد ورد أن أمير المؤمنين عليه السلام بشره بالشهادة وبسرعة قدومه عليهم، ولكنه مع ذلك لم يستسلم ولم يتنازل عن دوره مع علمه بالقضاء المبرم، وهذا يعني أن هناك معنىً وتفسيراً للشهادة عند مسلم بن عقيل يختلف عما هو مألوف عند غيره، وهو الذي ورث تلك المفاهيم السامية من عمه أمير المؤمنين عليه السلام مع علمه بشهادته لم يتنازل عن دوره ولم يفرط بطاقته.

حفاظ مسلم بن عقيل على نفسه من الاضطراب، أو ان يصيب

الضعف أعماق روحه هو صورة من صور العزيمة الباطنية الصلبة والتي يجب توفرها عند أصحاب المشاريع الكبيرة، أو الذين يرغبون في أن يكون لهم دور في التمهيد للمشروع الإلهي المنجي.

هذه المسؤولية قوامها الأول الثبات النفسي في المحن والشدائد، أراد القرآن الكريم أن يركزها ويجذرهما في نفوس المؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ * إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِثْلُهُ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾.

مما لا ريب فيه أن الوهن والحزن أمراض نفسية تؤدي إلى الفشل في أداء المسؤولية، ولذلك يسعى الباري سبحانه وتعالى إلى صناعة رجال المشروع الإلهي المنجي نفسياً وروحياً ليكونوا مؤمنين.

بل أكثر من هذا تشير الآية الأخرى أن من ينجح في هذا المضمار سيكون شاهداً وشهيداً عند الله ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ ﴿٢﴾.

(١) سورة آل عمران، الآيات ١٣٩ - ١٤٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٤٠.

ضرورة التنامي المستمر في تحمل المسؤولية

المؤمن عليه أن يعي مسؤوليته وأن يؤمن بأنه لم يبلغ الغاية بعد وإن كان مؤمناً تقياً، وهذا الوعي ليس منهج أخلاقي فردي فقط بل هو رؤية واسعة لا يتم التفريط فيها بأي جهد على مستوى الدائرة الإنسانية الواسعة، أو الدائرة الإسلامية الوسيطة، ولا يأخذه الغرور والعجب بنفسه لأن هذه كلها أمراض تعيق الإنسان عن التكامل في أداء المسؤولية وتطوير الأداء. بعض الناس مع استمرار الحركة عنده في أداء المسؤولية لكن عجلة التطور متوقفة لديه، فهو لا يتنامى في حركته مع أن المطلوب في المشروع الإلهي هو دوام التطور في المسير، وليس المسير فقط.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «من استوى يومه فهو مغبون، ومن كان آخر يوميه شرهما فهو ملعون، ومن لم يعرف الزيادة في نفسه كان إلى النقصان أقرب، ومن كان إلى النقصان أقرب فالموت خير له من الحياة»^(١).

غرور الإنسان وعجبه بنفسه واعتقاده بأنه قد أدى وظيفته يوقف بلا شك معدل التنامي في تحمله للمسؤولية ووعيه لها، وبالتالي لن يكون مساهماً فعالاً في هذا المشروع الإلهي المُنجي.

بعض أصحاب الأئمة في وعيهم ونفوذ بصيرتهم أصبحوا في مصاف العظماء عبر التاريخ في أداء مسؤولياتهم، فكانوا على درجة عالية من الرقي في الإسهام بأدوار خطيرة كلاً حسب قدراته التي وجدت فيه.

صحيح أنهم كانوا خير عون ولكن الأعظم أنهم قدموا ما يميز بعضهم عن بعض، وكل هذه الأمور تدل على أن الأدوار حسب المميزات الخاصة والإمكانات الشخصية هي التي تلعب دوراً حاسماً في مجال الإبداع في القيام بالمسؤولية وتحمل الدور في المشروع الإلهي المُنجي. فيجب على المؤمن في طريق تكامله وتهذيبه لنفسه من وضع المثال الصحيح أمامه في كل مفصل من مفاصل الحياة ويبقى المثال الأكمل والأتم هو المعصوم عليه السلام.

باب التكامل مفتوح وفيه من السعة والتعدد ما يغني المؤمن في حركته ووعيه وبصيرته، وهذا ليس بالضرورة لأجل بناء الفرد فقط بل لأجل المساهمة في بناء المشروع الإلهي.

أما الحقيقة فتبقى درجات كلما وصل الإنسان إلى مرتبة منها بقي في مطاويها درجات لم يصل إليها بعد، ولذا فما يمليه العقل أن لا يغتر الإنسان بما وصل إليه، والمنهج المعرفي في رسم خريطة المسؤولية في المشروع المُنجي يدعم فكرة عدم إنكار المراتب أو الحقائق التي لم يصل إليها الإنسان بعد، لأن المفاهيم مراتب ودرجات: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعَلَمِهِ ۖ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

فإذا أراد الإنسان أن يفهم الحقيقة، ويعي خريطة المسؤولية فليس عليه الاكتفاء بفهمه السابق، بل عليه أن يستمر في نموه المعرفي وينطلق منه في تحصيل أعلى درجات الوعي والبصيرة في المشروع الإلهي المنجي.

ضرورة اتساع القاعدة الناصرة

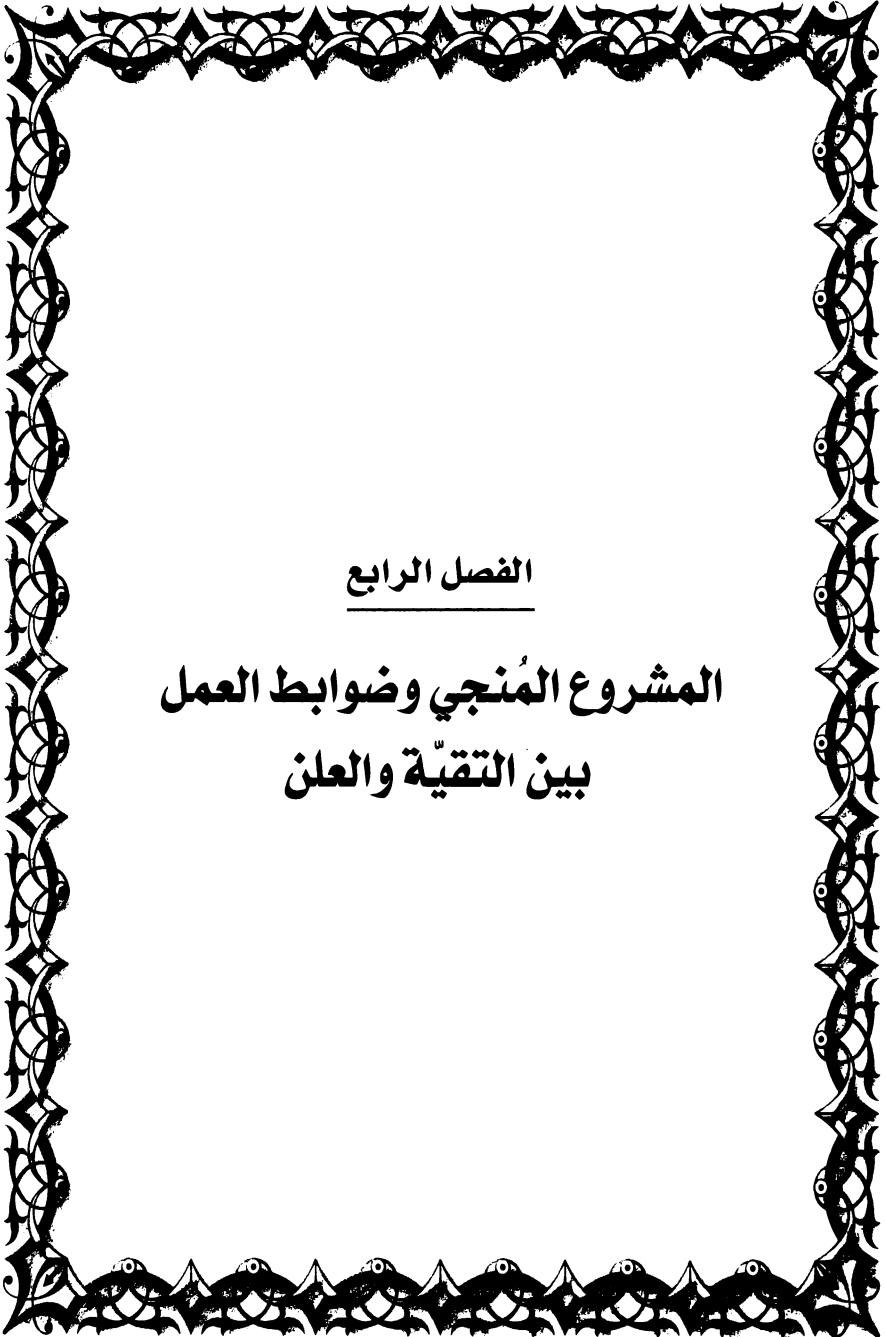
المُنجى الإلهي كما هو في بني إسرائيل هو أيضاً في هذه الأمة، وشرائط ظهور المُنجى والمسؤولية وتحمل القيام بها ترسم خارطة طريق للظهور، لذا في هذه الآية وغيرها تأكيد على المسؤولية الفردية والجماعية وأن الحساب يشمل أي فرد في المجتمع مهما كان دوره ووضعه الاجتماعي والقرآن الكريم يشير إلى هذا الأمر بوضوح: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾^(١) حيث جعل النجاة من آل فرعون وليس من فرعون، لأن فرعون وحده لا يصنع شيئاً فالوضع هو حرب مع نظام وليس مع فرد.

وهنا يتضح أنه باتساع دائرة القاعدة الناصرة للمنجي، والمهيئة لاستقباله والدفاع عن مشروعه، تبدأ عملية الانهزام في القاعدة الفرعونية متى ما تحملت الأمة المسؤولية، فالتعبير بـ (يسومونكم سوء العذاب..)) كأن ظلم آل فرعون لبني إسرائيل أصبح علامة لازمة لهم، وهذا كله بسبب عدم قيامهم بالمسؤولية والتي هي سُنَّة الله في البشرية للنجاة من الظلم والاضطهاد.

(١) سورة البقرة، الآية ٤٩.

ما جرى في بني إسرائيل نفسه يجري الآن في هذه الأمة بسبب عدم النهوض بالمسؤولية لتمتد مساحة المظلومية من السقيفة إلى الغيبة، والنصوص توضح لنا سُنَّةَ الله سبحانه وتعالى في خلقه عند تقاعس الأمة عن قيامها بمسؤولياتها سيأتي من يسومها سوء العذاب، ويقدر ما تتسع دائرة القائمين بالمسؤولية والجادين في السعي لأنجاح المشروع الإلهي المُتَنَجِّي يقترب موعد الظهور، وهذا مما لا بد منه لأن سُنَّةَ الله في خلقه هي: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١).

إذن القراءة الصحيحة للمشروع من خلال هذه الآية والآيات الأخرى أن الظلم والاضطهاد هو وضع وهيئة لا يريدتها الله سبحانه وتعالى للمؤمنين، ولكن في نفس الوقت على المؤمنين أن يقوموا بواجباتهم ويتحملوا أعباء ما تخاذلت عنه الأمة، وهذا الرعيل الرائد يجب أن تتوفر فيه الكفاءة بدرجة معينة لينهضوا بالمسؤولية ويكتب الخلاص للأمة على أيديهم.



الفصل الرابع

المشروع المُنْجِي وضوابط العمل
بين التَّقِيَّةِ والعلَن

ضوابط العمل في نصرّة المشروع الإلهي

قد يشكّل البعض على الحراك السياسي في زمن الغيبة ببعض الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام بلزوم عدم التحرك أو القيام بنشاط سياسي أو عسكري.

فقد ورد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «ما خرج ولا يخرج منّا أهل البيت إلى قيام قائمنا أحد ليدفع ظلماً أو ينعش حقاً إلاّ اصطلمته البلية وكان قيامه زيادة في مكروهنّا وشيعتنا»^(١)، وهناك بعض الروايات الأخرى الدالة على المعنى نفسه، وهو النهي عن النشاط العلني على الأقل في بعده السياسي والعسكري.

منها ما ورد في رواية سدير عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «إلزم بيتك، وكن حلساً من أحلاسه، واسكن ما سكن الليل والنهار، فإذا بلغك أنّ السفيناني قد خرج فارحل إلينا ولو على رجلك»^(٢).

وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كل راية ترفع قبل قيام القائم فصاحبها طاغوت يعبد من دون الله عز وجل»^(٣).

(١) السيد محمد باقر الداماد، شرح الصحيفة السجادية، ص ٦٩.

(٢) العاملي، وسائل الشيعة، ج ٣٦، ب ٣ من أبواب جهاد العدو، ح ٣.

(٣) الكليني، الكافي، ج ٨، ص ٢٩٥.

وعن جابر الجعفي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «الزم الأرض ولا تحرك يداً ولا رجلاً حتى ترى علامات أذكركها لك وما أراك تدرك ..» الحديث (١).

وأيضاً يمكن الوقوف على بعض الروايات الأخرى كوجوب التقيّة وما شابهه، فكيف تنسجم هذه الأحاديث مع الأصل القرآني في المشروع الإلهي المُنجي، وكيف يتمّ التوفيق بينهما؟.

المراد الجدي والأصلي من هذه الروايات هي عدة معاني وزوايا، وحقيقة مراد هذه الروايات هي تأييد ما مر بنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (٢)، وهذه الأحاديث الواردة لا تعارض ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ، عَدُوا لِلَّهِ وَعَدَوْكُمْ﴾ (٣) لأن الآية المباركة ليست مُقيّدة بزمان ولا بمكان، وبالنظر لسُنّة الله في خلقه في عملية التغيير الحضاري تشمل الأمة آية النجاة لأن هذا الفعل الإلهي يأتي ضمن سُنن.

ولأنه كما تكونوا يولّى عليكم، وكذلك للحديث الوارد عنهم صلوات الله وسلامه عليهم: «لتأمرنّ بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم» (٤)، وكذلك تصريح الأئمة بأنهم لم ينهضوا بالأمر لعدم وجود الناصر! هذا يعني أن الوضع هو وضع تقيّة بسبب تقصير البيئة المحيطة بهم سلام الله عليهم في

(١) الطوسي، الغيبة، ص ٤٤١ - ٤٤٢

(٢) سورة الرعد، الآية ١١.

(٣) سورة الانفال، الآية ٦٠.

(٤) الكليني، الكافي، ج ٥، ص ٥٦، ح ٣.

القيام بمسؤولياتهم لا أن هذا هو الوضع الذي يريده الأئمة سلام الله عليهم.

وأمر المؤمنين عليهم السلام ذكر في أحد خطبه: «أَمَّا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْلَا حُضُورُ الْحَاضِرِ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ إِلَّا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ، وَلَا سَغَبِ مَظْلُومٍ، لِأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوْلِئِهَا، وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَرْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنَز!» وهذا يدل على أن الأمر هو السعي نحو تحقيق المشروع الإلهي المنجي، ولو تتبعنا الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في الطرف المقابل لهذا المفهوم الذي توحى به بعض الأحاديث الواردة عنهم لوجدنا الكثير مما يحث على العمل والسعي نحو إصلاح الذات والمجتمع وصناعته من أجل تقريبه للخلاص والنجاة.

دفع التضارب في فهم الروايات

هذا الخلاف منشأه اختلاف الفهم لمضمون كلا المجموعتين من الروايات، ولحلّ هذا التدافع ينبغي الإشارة إلى عدّة أمور:

الأمر الأول: الإعلان يضعف المشروع

إن البرنامج السياسي والعسكري المُعلن هو أضعف البرامج - والبرنامج السياسي يختلف عن المشروع السياسي - فمتى ما رفعت السريّة عن مشروعك فقد أفشلته وحطّمته، لأن طبيعة المشاريع الأمنية والعسكرية وحتى السياسية لا يظهر منها إلّا بمقدار ما يوجب الإشارة وفي بعض الأحيان تحتاج إلى خفاء تام.

وهنا مكن الإشارة في الحديث الوارد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «ما خرج ولا يخرج منا أهل البيت إلى قيام قائمنا أحد ليدفع ظلماً أو ينعش حقاً إلّا اصطلمته البلية وكان قيامه زيادة في مكروهنّا وشيعتنا»^(١)، لأنك عندما تعلن برنامج معارض لحاكم جبار عسوف يتحين الفرص، فهذا الإعلان من أكثر الأسباب شيوعاً لفشل الثورات عبر التاريخ.

بهذا المعنى تُفهم الأحاديث الواردة في هذا السياق وليس بمعنى

(١) السيد محمد باقر الداماد، شرح الصحيفة السجادية، ص ٦٩.

منع العمل الاجتماعي والسياسي، بل إن وثائق التاريخ أظهرت لنا كيف أن الأئمة عليهم السلام كانوا يمارسون تدبيراً خفياً لنشر الإسلام الصحيح بطرق هادئة جداً، وكانوا يرشدون بقية أبنائهم إلى طرق ذكية في هذه الممارسة خصوصاً في أفريقيا والمغرب العربي في ذلك الوقت حتى ظهرت آثارهم جلية واضحة بعد سنين طويلة، وحتى في شرق آسيا مارسوا هذا الدور ودخل الإسلام إلى كثير من تلك الدول بهذه الطريقة الهادئة.

والخلاصة من مجموع الطائفتين من الروايات هو التنبيه لضرورة عدم الاستعجال من قبل المصلحين، بل الأمر يحتاج إلى تنظيم دقيق وبرمجة للطاقات، وإن كان السير بطيئاً ولكنه هو الأفضل والأصح في هكذا مشاريع، لأن كشف المشروع قبل استحكام الأمر يعني توجه أنظار الظالمين إليه وبالتالي إنهائه بضربة موجعة تعيده إلى الخلف لسنوات.

الأمر الثاني: المحور هو الله وليس الأنا

الأناية والذاتية وجعل النفس هي المحور سبب الفشل للكثير من العاملين في تلك المشاريع وإن كانوا متدينين، في حين أن محور المعصوم الذي يدور حوله هو الله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾^(١)، وهذا ليس فقط جانب أخلاقي للعاملين في المشروع الإلهي المُنجي، بل هو تخطيط استراتيجي وهو من الأسباب المباشرة لقوة المؤمن وبالتالي قوة الجماعة الفاعلة والمؤمنة.

كثير من المصلحين العاملين في سبيل الله وخدمة مجتمعهم يتناسون

فيما بعد محورية المشروع، وينسون أنه ينسب إلى أهل البيت عليهم السلام وأن المنجي ينتظر سعيهم، ولكن حبّ النفس والأنا لدى هذا العامل تصبح فيما بعد هي المحور ويتحوّل إلى طاغوت متكبر.

انقلاب وتبدل المشاريع الدينية إلى مشاريع شخصية مشكلة كبيرة وهو خلاف التخطيط الاستراتيجي الناجح والسليم، وهذا ما يشير ويرمز إليه الأئمة سلام الله عليهم في تلك الأحاديث الأنفة الذكر، وليس هو تجميد للمشروع الإلهي أو نهْي عنه، وإنما هو نهْي عن الإخفاق والفشل في المشروع بنسيان محورية الله سبحانه وتعالى فيه وجعل الأنا هي المحور.

الأمر الثالث: معنى التقيّة في فلسفة التشريع

الجمع بين مجموع الآيات والروايات في الجانبين يتضح من خلال تبيان برنامج التقيّة ومعرفة تعدد المعاني فيها، فالتقيّة مرة تأتي بمعنى المداراة وهذا وضع حكم أولي: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعَهَا أَذًى وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ﴾^(٢)، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «مداراة الناس نصف الإيمان والرفق بهم نصف العيش»^(٣)، وعنه عليه السلام: «مداراة الناس صدقة»^(٤)، وأيضاً ورد عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس في غير ترك حق»^(٥).

(١) سورة فصلت، الآية ٣٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٦٣.

(٣) المجلسي، روضة المتقين، ص ١١٢.

(٤) الفتال النيسابوري، روضة الواعظين، ص ٣٨٠.

(٥) ابن شعبة الحراني، تحف العقول عن آل الرسول، ص ٤٢.

وعن الإمام العسكري عليه السلام في تفسيره، في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(١) قال الصادق عليه السلام: «قولوا للناس كلهم حسناً مؤمنهم ومخالفهم أما المؤمنون فييسط لهم وجهه، وأما المخالفون فيكلمهم بالمداراة لاجتذابهم إلى الإيمان»^(٢).

أيضاً من معاني التقيّة هو الخفاء والسرية وهو أيضاً حكم أولي.

كذلك من معاني التقيّة المشهورة هو الإتيان بالعمل ناقصاً أو مقلوباً سواء كان هذا العمل عبادي أو سياسي، مثل الوضوء بشكل غير صحيح وإن كان هذا العمل ناقصاً لكنه يجزي من باب الاضطرار، فالعمل السياسي في ظل أنظمة الجور عمل ناقص بالاضطرار لكنه مجزي.

والمشكلة في فهم التقيّة بالمعنى المشهور والمعروف، وكلامنا ليس في التقيّة بمعنى الحكم الأولي فهذا المعنى يُراد له الاستمرار دائماً، إنما الكلام هو في الحكم الثانوي وهي التقيّة الناقصة بأن تأتي بالعمل ناقصاً أو ممسوخاً للاضطرار.

الشارع في بعض الأحكام لا يتعرّض إلى وجود الموضوع أو نفيه فإن وُجد الموضوع وُجد الحكم، وإن لم يوجد فلا وجود للحكم.

وبعضها يوجد الحكم لكنه يسعى لنفي موضوعه ولا يريد له أن يوجد، مثل الحدود وفلسفة تشريعها للزاني والزانية والتهديد بالجلد والرجم من أجل منع الزنا مسبقاً.

وبعضها هو يسعى لإيجاد موضوعها وإبقائه أيضاً، مثل استحباب

(١) سورة البقرة، الآية ٨٣.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣٠٩.

الصدقة وكثير من المندوبات الشارع هو الذي يحثّ الناس على إيجاد موضوعها وإن أوجده استحَبّ فيه دفع الصدقة مثلاً، إذن الأحكام الفقهية مختلفة باختلاف موضوعها وهذا مقرّر في علم الفقه.

وفي علم الأصول التقيّة أن تأتي بالحكم ناقصاً أو ممسوخاً فهو حكم ثانوي، يعني لا لأجل إبقاء موضوعها بل الصحيح هو محاولة إزالة الموضوع والغائه، لكن الخطأ الكبير الذي وقع فيه البعض وشاع بين المؤمنين لقرون عديدة هو الاجتزاء بالعمل الناقص غير التام الاضطراري، مع أن الشارع ليس مع إيجاد موضوعها فضلاً عن أن يكون لأجل بقاءه لأنه من باب الاضطرار، بل الحقيقة أن أدلّة التقيّة في هذا الباب لأجل نفي موضوعها وإن وجد فاسعى أيها المؤمن لأن يرتفع ذلك الموضوع.

والكلام لم يكن على صعيد الوظيفة الفردية، أو على صعيد الوظيفة الاجتماعية الكفائية لأن التقيّة عبارة عن الإتيان بالملاك ناقصاً سواء على صعيد العبادة والوظيفة الفردية، أو على صعيد الوظائف السياسية، والإسلام بلا شك له وظائف كلها في الأصل على يد المعصوم، لكن حيلولة البشر عن قيام المعصوم بهذه الوظائف هي حالة استثنائية أو هي حالة ثانوية - مرضية - وليست أوليّة.

إذن أصبح واضحاً ضرورة السعي نحو تبديل هذا الوضع الفاسد لا إبقائه.

في زيارة الغدير الصحيحة السند والمرويّة عن الإمام الهادي عليه السلام يصف جده أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الزيارة أنه لم يمارس التقيّة للاضطرار: «وَأَشْهَدُ أَنَّكَ مَا اتَّقَيْتَ ضَارِعاً، وَلَا أَمْسَكَتَ عَنْ حَقِّكَ جَارِعاً،

وَلَا أَحْجَمْتَ عَن مُجَاهَدَةِ غَاصِبِكَ نَاكِلاً، وَلَا أَظْهَرْتَ الرِّضَا بِخِلَافِ مَا يُرْضِي اللَّهَ مُدَاهِناً، وَلَا وَهَنْتَ لِمَا أَصَابَكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا ضَعُفْتَ وَلَا اسْتَكْنَتَ عَن طَلَبِ حَقِّكَ مُرَاقِباً، مَعَاذَ اللَّهِ أَن تَكُونَ كَذَلِكَ بَلْ إِذْ ظَلِمْتَ احْتَسَبْتَ رَبَّكَ، وَفَوَّضْتَ إِلَيْهِ أَمْرَكَ، وَذَكَرْتَهُمْ فَمَا اذْكُرُوا وَوَعظْتَهُمْ فَمَا اتَّعَظُوا، وَخَوَّفْتَهُمُ اللَّهَ فَمَا تَخَوَّفُوا»^(١).

فالإمام الهادي عليه السلام ينزّه جده أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام عن ممارسة التقيّة كبقية المكلفين مضطراً، لأن الاضطرار هو عدم قدرة المكلف بسبب العجز، ولكن هذه ليست حالة أولية فيجب ان تبدل، وأمير المؤمنين عليه السلام لم يمارسها لعجز فيه بل هو لعجز في الأمة: «معاذ الله أن تكون كذلك بل إذ ظلمت احتسبت ربك، وفوضت إليه أمرك، وذكرتهم فما اذكروا ووعظتهم فما اتعظوا، وخوفتهم الله فما تخوفوا» هذا المقطع يبين أن ضوابط تشريع التقيّة ليست لتكريس وترسيخ الضعف والوهن، ولا هي دعم لقوة العدو أو تجذيرها.

فالتقيّة ليست استكانة أو مداهنة لأن هذا الأمر لا يرضى عنه الأئمة عليهم السلام لأنفسهم أو لشيعتهم، ومن الخطأ هنا أن نقول أن أمير المؤمنين عليه السلام كان جليس البيت بعد أحداث السقيفة لربع قرن بل كان مستمراً في نشاطه وحيويته.

إذن ليس من المعقول أن تشرّع التقيّة لتنتقلنا من ضعف إلى ضعف! والحكم الثانوي لم يشرّع من أجل أن يبقى، بل الحكم الأولي هو الذي شرّع للبقاء.

الأمر الرابع: اختلاف التوجيه باختلاف القابلية

لابد من إشارة معينة كمثال قبل بيان هذا الوجه وهي ان هناك روايات تنهى المؤمنين عن الجدل في علم الكلام، وروايات أخرى تحثهم على الخوض فيه وانه نصره للحق. فأى الطرفين هو الأحق ان يتبع؟

ما ورد في النهي عن الخوض في الكلام رواية أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سمعته يقول: «لا يخاصم إلا رجل ليس له ورع أو رجلٌ شاكٌّ»^(١)، وأيضاً قوله عليه السلام: «يهلك أصحاب الكلام، وينجو المسلمون، إنَّ المسلمین هم النجباء»^(٢).

ويبدو ان النهي كان موجهاً لطائفة خاصة حرصاً عليهم، وخشية انحرافهم، وهذا لا يعني حرمة علم الكلام.

فقد روي عن الصادق عليه السلام «أنه نهى رجلاً عن الكلام وأمر آخر به، فقال له بعض أصحابه: جعلت فداك، نهيت فلاناً عن الكلام وأمرت هذا به؟ فقال: هذا أبصر بالحجج، وأرفق منه»^(٣).

وأيضاً عن يونس بن يعقوب قال، قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «جعلت فداك؛ إنني سمعتك تنهى عن الكلام وتقول: ويل لأصحاب الكلام يقولون هذا ينقاد وهذا لا ينقاد، وهذا ينساق وهذا لا ينساق، وهذا نعقله وهذا لا نعقله، فقال أبو عبد الله عليه السلام: إنما قلت: فويل لهم إن تركوا ما أقول وذهبوا إلى ما يريدون»^(٤).

(١) الصدوق، التوحيد، ص ٤٥٨، ح ٢٣

(٢) المصدر نفسه، ح ٢٢

(٣) المفيد، تصحيح اعتقادات الإمامية، ص ٧١.

(٤) الكليني، الكافي، ج ١، ص ١٧١.

وفي روايةٍ أخرى «...ثمّ دعا حمران بن أعين ومحمّد بن الطيّار، وهشام بن سالم، وقيس الماصر، فتكلّموا بحضرته، وتكلّم هشام بعدهم. فأثنى عليه ومدحه وقال له: مثلك من يكلم الناس»^(١).

وهذه الروايات لا تعني ان غير القادر يبقى على وضعه، بل عليه أن يبني نفسه وينمي قدراته لكي يقوم بما يمليه عليه الواجب من نصرة الحق والدفاع عن نهجه القويم.

ومن مجموع الطائفتين من الروايات في علم الكلام يستفاد منه الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، وليس إغلاق باب الخوض في علم الكلام.

وفي القرآن الكريم أيضاً ورد هذا الأمر ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدْعَاؤُهُمْ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢)، بينما تجد في آيةٍ أخرى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَلْهَدُوا مِنَ بَعْدِ مَا بُيِّنَتْهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾^(٣)، فمن جهة لزوم البيان ومن جهة أخرى حرمة إذاعة الأسرار، وهنا أيضاً لا يوجد أي تضارب وهناك عدّة وجوه للجمع بينهما وكلها ليست على نحو البديل.

الأمر نفسه في مفهوم التقيّة إذ إن طائفة الروايات الواردة في التقيّة

(١) المفيد، تصحيح اعتقادات الإمامية، ص ٧٠.

(٢) سورة النساء، الآية ٨٣.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٥٩.

هي بسبب تقصير المؤمنين وعدم قيامهم بالمسؤولية المطلوبة تجاه المشروع الإلهي المنجي، وبقاء أدلة هذه الروايات هو بسبب التقصير لا أن وضع تلك الروايات هو الأمر الطبيعي لهذه المسألة.

والجمع بين الروايات هو بقاء الطائفة الثانية على وضعها الطبيعي في أهمية القيام بالمسؤولية ونصرة المنهج الحق، وفي الوقت نفسه محاولة تغيير موضوع الطائفة الأولى من الروايات.

ولو قرأنا التاريخ لرأينا في مسيرة أهل البيت عليهم السلام طوال هذه القرون بلا استثناء قيامهم بمسؤولياتهم في تحقيق المشروع المنجي، والدليل هو الانتشار الحاصل لكثير من تلك المفاهيم السياسية من عصر السقيفة إلى يومنا هذا، من خلال انتشار شعاع الإسلام المحمدي الأصيل على مساحة واسعة بعد أن كان على مستوى أشخاص بعد رحيل النبي المصطفى صلى الله عليه وآله.

ضوابط التقية

التخاذل تحت عنوان التقية لا يعطي مبرراً لأحد لأن التقية لها ضوابط معينة، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في حديث: «... فأما السبّ فسبوني، فإنه لي زكاة، ولكم نجاة، وأما البراءة فلا تبرؤا (تبرّوا) مني، فإنني ولدت على الفطرة، وسبقت إلى الإيمان والهجرة»^(١).

فالتقية لن تصل بالمؤمن إلى درجة المسخ في الهوية كما حدث في كثير من البلدان ممن أخفى حقيقة الإيمان عن أولاده وأحفاده وهو لا زال حياً، فهذا ليس له تبرير إلا الحرص الشديد على الدنيا، والتقية لا تسوغ كل هذه المساحة في التنكر فهي للتغطية على العنوان الخارجي وليس إزالة للحقيقة من الأعماق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَا لَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٢).

المسؤولية التي تلقى على الإنسان سواء في تشخيص الداء، أو

(١) نهج البلاغة، خطبة ٥٧/ العاملي، وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤٧٨/ المجلسي، بحار

الأنوار، ج ٧٥، ص ٤٢١.

(٢) سورة النساء، الآية ٩٧.

العلاج ضمن المشروع الإلهي المنجّي لا يوجد فرق في البين في إدانة الخضوع ومسخ الهوية ولو أن كل المجتمع ارتكب هذا الخطأ، فإنه لن يكون هناك أي مبرر أو مسوغ للإنسان لارتكاب نفس الخطأ، فإرادة الإنسان بيده ولم يجعلها سبحانه وتعالى بيد غيره، ولا يحق للإنسان أن يستصغر دوره بل هو خطأ أكبر بالإضافة إلى خطيئة الضعف والخضوع والاستكانة.

سُنَّه اللهُ تَعَالَى فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَإِذْ يَجْتَنِبُكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (١).

في هذه الآية وآيات أخرى والتي تشير إلى الموضوع نفسه حول الظهور وبيان وظيفة المؤمنين في هذا المشروع حري بنا جميعاً دراسة هذا المحور المحكم والتأمل فيه جيداً.

والأحاديث الواردة في باب التقيّة عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام لا يفهم منها أنها للخضوع والاستكانة أو التسويغ لهما، ويظهر الأمر واضحاً جلياً في زيارة الإمام الهادي لجده أمير المؤمنين عليه السلام في الغدير: «وَأَشْهَدُ أَنَّكَ مَا اتَّقَيْتَ ضَارِعاً، وَلَا أَمَسَكْتَ عَنْ حَقِّكَ جَازِعاً، وَلَا أَحْجَمْتَ عَنْ مُجَاهَدَةِ غَاصِيكَ نَاكِلاً...»، ممارسة التقيّة على مستوى الفرد أو الجماعة اجتماعياً وسياسياً لا لتكريس الضعف والخضوع والتنصل عن المسؤوليات التي أرادها الله منا، وهو مما لم يأمر به الأئمة سلام الله عليهم.

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «المؤمن علوي...
والمؤمن مجاهد لأنه يجاهد أعداء الله تعالى في دولة الباطل بالتقيّة وفي
دولة الحق بالسيف»^(١)

(١) العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٢٠٩.

الفصل الخامس

عملية التغيير الاجتماعي
بين الجبر والتفويض

سُنَّةُ اللَّهِ فِي التَّغْيِيرِ

تذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم ليشكروه ومن ثم الخضوع والطاعة للمنعم، مع التحذير من مغبة عدم الأتعاض بهذه الذكرى لضرورة أن الطاعة المستتبعة لشكر المنعم هي إنجاح المشروع الإلهي المُنْجِي وتحقيقه على أرض الواقع.

قال تعالى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ سَيِّئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةً وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (١).

وهذا المحور محطة مهمة للمؤمن وله تداعيات كبيرة في الجانب العملي لوضع الأمة وعليه من المهم جداً رؤية هذه المعارف القرآنية بعين البصيرة لقياس حجم الخسائر المستتبعة لوجود النعم وعدم شكر المنعم.

هذا البلاء العظيم الذي مر على بني إسرائيل على كل المستويات السياسية والاجتماعية من قبل آل فرعون وهم مع كفرهم وكونهم على باطل بقي زمام الأمور بأيديهم، وبني إسرائيل على دين إبراهيم عليه السلام قبل بعثة موسى عليه السلام تبعاً ليعقوب النبي عليه السلام: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ

يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ
 ءِآبَائِكَ إِنزِيلَهُمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١﴾ مع ذلك
 استمر البلاء عليهم وقد يكون مفاد ظاهر الآية أنه إمتحان لصبر بن إسرائيل.

ولكن مفاد الآية الواضح والصريح أن الله سبحانه وتعالى ينسب
 التغيير الاجتماعي والسياسي إليه جلت قدرته وانه تبع لأرادته: ﴿وَإِذْ
 بَخَيْنَاكُمْ مِنْ ءَالٍ فَزَعُونَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَذِّبُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
 نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٢) مع أن النجاة لبني إسرائيل هو
 في إتباعهم لموسى ﷺ ولكن الله سبحانه وتعالى لم يسند هذه النجاة
 لغيره، وهذا ليس من الجبر في شيء ولكنه بيان لصيغة تكوينية في القضاء
 والقدر في سبيل التغيير الاجتماعي والسياسي.

فالجبر والاختيار ليس في بعده الفردي فقط بل هو يشمل الفعل
 الاجتماعي والسياسي للأمة، وليس هناك تفويض لأن الله سبحانه وتعالى
 لا شريك له في التغيير لأن السنن واضحة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ
 يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (٣).

هذا التغيير الذي هو من فعل الله وإرادته له شرائط والتفويض فيه
 ليس عرضاً لأن فعل الله مشروط بفعل العبد المكلف بالمسؤولية في
 الطرف الآخر، فالإنسان بمقدار ما لديه من إرادة واختيار يهيء الأرضية
 المناسبة لتشمله فيما بعد نعمة التغيير الإلهي.

(١) سورة البقرة، الآية ١٣٣.

(٢) سورة البقرة، الآية ٤٩.

(٣) سورة الرعد، الآية ١١.

هذه السنة الإلهية في التغيير هي في ضرورة ارتقاء الإنسان في تكامله المعرفي والأخلاقي ولا يبقى حبيس الكسل والفشل، وهي من أعظم السنن الإلهية التي تحفز الإنسان على التكامل واستخراج قدراته الذاتية في الاستعداد وترك التواكل.

وعليه يجب ان تكون النظرة القرآنية هي السائدة عند المؤمنين في قراءة علامات الظهور لأتمام المشروع الإلهي المُنْجِي، والمؤمن له دور بهذه الحركية والفاعلية في أداء المسؤولية والوظيفة الشرعية لأن علامات الظهور هي بيان لهذا المعنى للمسؤولية وموقع المؤمن فيها ودوره المهم والفاعل في التغيير وكيفية الاستعداد لهذا المشروع الإلهي.

إذن القراءة اما تكون بنظرة جبرية وهي مرفوضة من أساس في تراث أهل البيت عليهم السلام، أو أنها تفويض للبشر وهذه أيضاً مرفوضة، ويبقى الصحيح في مسار أهل البيت عليهم السلام هي المسؤولية التي لا شائبة فيها للجبر أو التفويض.

الإصلاح والتغيير يبدأ من الفرد

الصحيح ان الله سبحانه وتعالى هو الفاعل الحقيقي في نجاة بني إسرائيل، وهو جلت قدرته يسند الفعل إليه وحده لا شريك له، إلا أن هذا الفعل الإلهي مشروط بأمر وهو: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾^(١) هذا البيان في شرط التغيير ورد أيضاً عن أهل البيت عليهم السلام في هذا الباب.

روي عن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم أنه قال: «كما تكونوا يولى عليكم»^(٢)، يعني كل إنسان يُكون نفسه ويغير ما به تلقائياً يؤثر على الوضع العام للمجتمع، وهنا يتضح أثر: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»^(٣).

أحد أبواب التغيير الإصلاحي في المجتمع أن يبدأ الإنسان من نفسه فيصلحها لاتحاد المسؤولية العامة مع المسؤولية الفردية الخاصة لتأثيرها الواضح فيها، وهذه معادلة مهمة في علم الاجتماع يبرزها القرآن الكريم والمأثور عن أهل البيت عليهم السلام.

(١) سورة الرعد، الآية ١١.

(٢) المتقي الهندي، كنز العمال، ج٦، ص٣٦، ح١٤٩٦٨.

(٣) مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج٣، ص١٤٥٩.

وفي حديث آخر ورد أيضاً عن رسول الله ﷺ، قال: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليستعملنّ عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم»^(١).

إذن أحد الأمور المهمة في التغيير الاجتماعي هو ساحة الشخص المكلف لأنه لا يمكن التفكيك بين المسؤولية الفردية والمسؤولية الاجتماعية، لذلك ترى حالة الربط القرآني والنبوي بين الفرد والمجتمع، وهذه النصوص المقدسة هي لبيان الآلية في حفاظ المؤمن على مسؤوليته الفردية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيكَمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٢) فإصلاح الأسرة - الخلية الأم والأساس للمجتمع - هو إصلاح المجتمع بصلاح الأفراد.

الآية التي تتحدث عن المشروع الإلهي في نجاة بني إسرائيل فيها إشارات إلى نفس المشروع المهدوي بتفاصيله المختلفة، فيكون نفس الفعل الإلهي الخالص في نجاة هذه الأمة على يد صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه الشريف هو أيضاً مشروط بقيام المؤمنين بمسؤولياتهم لأن هذا الأصل القرآني لا يمكن أن يتخلف أبداً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾^(٣) فلا يمكن لقاعدة من القواعد الفقهية تصطدم بأصل عقائدي يستخرج منها حكم معين، بل يجب أن يكون هناك ضوابط لمنظومة فيها موازين حاكمة وإلا ستكون أشبه بالمسيحية المنحرفة.

(١) محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج ٥، ص ١٩٤٥، ح ١٢٧٢٨

(٢) سورة التحريم، الآية ٦.

(٣) سورة الرعد، الآية ١١.

هذا التوازن يخلق بالطبقات العليا في القواعد الفقهية التي وإن كانت مقررة ولكن ضوابط أصول الاعتقاد يحفظ لها توازن التطبيق.

وقد ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام لما أتاه بعض شيعته من قم فحبسهم أياماً عنه، ولما أذن لهم بعد اللتيا والتي أخبرهم عن سبب حبسهم عنه قائلاً لهم: «..تتقون حيث لا ينبغي التقية ولا تتقون حيث ينبغي التقية..»^(١).

فالتقية في المشروع الإلهي تارة على صعيد فردي وأخرى على صعيد اجتماعي، فإذا لم تطبق في موردها الصحيح فمعنى ذلك أنه لا يتوفر النشاط الديني لأن هناك توازن في الطبقات الفوقية الأم يجب الالتفات إليها ومراعاتها.

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ١٥٨، ح ١٨.

سُنَّةُ اللَّهِ فِي التَّغْيِيرِ بَيْنَ الْجَبْرِ وَالتَّفْوِيضِ

الآيات القرآنية التي تحدثت عن السنن الإلهية في التغيير الحضاري والاجتماعي والسياسي هي خطاب لعموم البشر: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدَلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(١)، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدَلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(٢).

فالعتاب أو التذكير بالنعمة ليس فقط لبني إسرائيل وإن كان فيهم، ولا يدعي احد انه غير مشمول بهذا التذكير أو التوبيخ بل إن الجميع مشمول بمورد هذا الخطاب الإلهي لأن الحديث عن سنن إلهية لا تتخلف أبداً.

فالتغيير من السيء إلى الحسن بظهور الفرج هو بيد الله سبحانه وتعالى ولكنه ليس بمعنى الجبر، وهي أيضاً تبين أنه ليس هناك نقص في فاعلية الله عز وجل لتكون فاعلية المخلوق في عرض فعل الله وإرادته.

فنفي الجبر هنا هو نفي للتفويض أيضاً لأنه بالدقة كل جبيري مبتلى بالتفويض والعكس صحيح فمن أراد النجاة عليه أن ينجو من كليهما.

والجبر أو التفويض على مراتب فيه الجلي الواضح وفيه المراتب

(١) سورة الأحزاب، الآية ٦٢.

(٢) سورة الفتح، الآية ٢٣.

الخفية التي تستعصي حتى على المؤمنين إلا على الكُمَّل والمقربين، فالؤمن قوي في بعض المراتب مستضعف في غيرها بلحاظ هذا المسألة.

اذن هذه الآية فيها سنة عظيمة من سنن الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ بَخَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾^(١) وهي ملحمة عظيمة لكل الشعوب والأمم في التغيير السياسي والاجتماعي وشمولها بالفرج الإلهي، وان هذا الفرج هو فعل الله ولكن ليس فيه جبر لأن هذا التغيير متوقف على مبادرة بني البشر في تغيير ما بأنفسهم.

فإذا كانت هذه السنة - عملية التغيير - أصيلة عقائدياً في القرآن الكريم، فأى تفسير فقهي أو أخلاقي يصطدم بهذا الأساس فهو لا محالة فيه شائبة من الجبر أو التفويض وإن لم تكن جلية.

كذلك في ظهور صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه الشريف إذا حملنا دورنا في المسؤولية، أو علامات الظهور بعض الجبر أو التفويض فهذا تفسير خاطئ للمسؤولية الخاصة بنا بادعاء أن التغيير ليس بأيدينا ولا سبيل إلى ذلك!، في حين أن القرآن الكريم قد أكد أن حقيقة التغيير صحيح هو من فعل الله وحده ولكن شرطه البدء بتغيير ما بأنفسنا، وعليه فالواجب ان لا تنكسر إرادة المؤمنين لأنه من يعتقد أن النصر والفرج بيد الله سبحانه فهذا يعني أن اليأس لن يجد طريقاً إلى قلبه، ولذا ورد عن أهل البيت عليهم السلام أن أعظم العبادة هو انتظار الفرج^(٢).

(١) سورة البقرة، الآية ٤٩.

(٢) قال النبي صلى الله عليه وآله: «انتظار الفرج بالصبر عبادة»، وقال عليه السلام: «أفضل أعمال أمتي انتظار

وهذا الأمر يسلب المبررات من أيدي المنهزمين والمرعوبين من عدوهم وإن كان عدوهم دولة عظمى!! لأن إرادة الله جلت قدرته أعظم وأكبر.

قد يبرر البعض لنفسه بأنه واقعي ويتعامل مع المعطيات المطروحة، أي انه لا يتغير ولا يغير ولا يسعى لتغيير هذا الواقع، وهذا بسبب فقدان الأمل واليأس الذي دب فيه، وعدم اليقين بقدره الله سبحانه وتعالى!، ومن يعتقد ان الله غير قادر فهو يقول بما قالت به اليهود: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾^(١).

في حين ترى في تراث أهل البيت عليهم السلام أمر آخر مختلف عن هذه المفاهيم المنحرفة والمهزومة وهو الإيمان بالبداء، فعن صادق آل محمد عليه السلام أنه قال: «ما عَظَّمَ اللهُ عز وجل بمثل البداء»^(٢) فإحدى حقائق معنى البداء هي نفي الجبر والتفويض معاً، والبداء أيضاً درجات ومراتب والإيمان به إيمان بقدره الله سبحانه وتعالى.

لذا فالانتظار للمصلح الإلهي المنجي والمعد ليوم الفرج أمل عظيم رغم تكالب قوى الشر، فالمؤمن القوي لا ييأس ولا يصيب الآخرين باليأس.

الفرج... (المجلسي، بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ١٤٥، ح ٦٥؛ ابن شهر آشوب، المناقب، ج ٤، ص ٤٢٥).

(١) سورة المائدة، الآية ٦٤.

(٢) الصدوق، التوحيد، ص ٣٣٣.

الموازنة بين الاجبر والالتفويض في عملية التغيير الاجتماعي

التغيير الاجتماعي في الأمم فعل الله وهو سُنَّة دائمة: ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(١) وهذه السُنَّة الدائمة لا يجب قراءتها بنحو خاطئ في جانبي الجبر أو التفويض، بمعنى عدم الاعتقاد أن التغيير كفعل فَوْض فيه الإنسان بنحو مستقل لأن هذا الفهم خاطئ ومجانِب للصواب، بل الصحيح أنه مرتبط بأمر بين أمرين، وهذا من الأصول الأصيلة في المنهج القرآني.

وقد يتخيل البعض أنها عناية خاصة لبني إسرائيل وهذا ليس بصحيح بل إنها تشمل حتى البوذي والهندوسي ففي كل مكان فيه تغيير نحو الأصلح فهو فعل الله ولكن ليس بنحو الجبر.

لذا لا يمكن قبول تفسير واقعة الطف مثلاً بنحو جبري أو حتى تفويضي عند المتحمسين الذين يرغبون بالإصلاح فيحيون هذا الجانب ظناً منهم أن هذا باعث للشعور بالمسؤولية لأن هذا وهم كبير فالمسؤولية تبعث من خلال الاختيار وهو موجود في الأمر بين أمرين، بل إن الشعور والإحساس بالمسؤولية يخمد في جانبي الجبر والتفويض.

(١) سورة الأحزاب، الآية ٦٢، وسورة الفتح، الآية ٢٣.

ثم إن الإنسان قد ينفي التفويض في درجاته العالية لكن في درجاته الخفية يعتقد به دون الشعور بذلك، وهذا في الجبر أيضاً موجود فهو ينفي الجبر في درجات وينسى أو يغفل عن درجات أخرى وهذا يحدث حتى عند كبار المحققين الذين يقعون في فخاخ الجبر أو التفويض.

إذن تصور عملية الموازنة في اللاجبر واللاتفويض في التغيير الاجتماعي والحضاري والسياسي كفعل من الأفعال الإلهية فقهيّاً أو عقائديّاً في درجاته العميقة أمر ليس بالسهل.

مثلاً قد يفسر البعض واقعة الطف بتفسير جبري خفي دون أن يشعر بذلك، أو قد يكون تفسيره للواقعة بتفويض خفي أيضاً، لذا ترى الشيخ الدربندي رحمه الله في كتابه أسرار الشهادة يعتمد على الجانب الغيبي كثيراً حتى اعتبره البعض أنه يفسر لجبرية واقعة الطف!.

لكن إذا نظرنا إلى النصوص القرآنية فيما يتعلق بواقعة بدر أو أحد أو الخندق وغيرها من الوقائع فهي لا تركز فقط على الحسّ المادي في المعركة، بل تستحضر الصور الغيبية الإلهية وتتحدث عن نزول الملائكة وعن نوايا المسلمين وكيف تأثرت تحت الضغط، وعن دور الشيطان في تثبيط البعض، وهذه كلها جوانب غيبية لا يمكن معها أن يتهم القرآن الكريم برواية أساطير بل هو لإخبار الناس أن هناك جوانب غيبية مشروطة وليست هي في باب الجبر أو التفويض.

فبعض الدرجات من نفي الجبر أو التفويض لا يدركها الكثير من الناس وعليه فلا يمكن تفسير الوقائع الخطيرة في بعدها المادي فقط، لأن هناك أسباب غير مرئية بل هناك أسباب مادية أخرى غير معلومة لدى

البعض، وهذا ليس في واقعة الطف فقط بل في صفين والنهروان والجمل وغيرها من الوقائع والأحداث، ففي كل حدث لا جبر ولا تفويض بل هو أمر بين أمرين.

حتى استخلاف أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن جبرياً بدليل حديث يوم الدار يوم نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١) حيث جمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشيرته ثم أنذرهم فقال: يا بني عبد المطلب إني أنا النذير إليكم من الله عز وجل، والبشير بما لم يجرى به أحدكم، جئتمكم بالدنيا والآخرة فأسلموا وأطيعوا تهتدوا، ومن يؤاخيني ويؤازرني ويكون وليي ووصيي بعدي وخليفتي ويقضي ديني . فسكت القوم، فأعاد ذلك ثلاثاً، كل ذلك يسكت القوم ويقول علي عليه السلام أنا فقال: أنت . فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب عليه السلام: أطع ابنك فقد أمر عليك.^(٢)

فكل علاقة بين الباري والمخلوقات تحكمها هذه القاعدة، حتى الاصطفاء وهو وإن لم يكن كالصفات والمقامات الاكتسابية ولكن مع هذا هو أمر بين أمرين.

وعليه فظهور صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه الشريف لا يمكن تفسيره بمنهج الجبر أو التفويض لأنه باطل بكلا الطرفين ولا يمكن تعقله على ضوء منهج السنن الإلهية في البشرية لأنه لا يستقيم إلا بأمر بين أمرين.

(١) سورة الشعراء، الآية ٢١٤.

(٢) السيد ابن طاووس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ص ٢٠.

فالمشكلة ليس في الجبر أو التفويض الواضحين الجليين، بل في التفكير في بيان المنظومة الفقهية والعقائدية للمسؤولية تجاه مشروع صاحب الزمان عجل الله فرجه الشريف وأن لا تتضمن الجبر أو التفويض في أي مرتبة من مراتبه، وهذه مهمة صعبة تحتاج إلى تظافر الجهود بالإضافة إلى خفي ألطافه عجل الله فرجه الشريف في التأييد والتوفيق لهذه المهمة الكبيرة.

وهي ليست سهلة المنال لأن الإنسان في سلوكياته اليومية يُنظّم نفسه على أساس قناعات جبرية أو تفويضية في سلوكه الأخلاقي والعملي من حيث لا يشعر، على سبيل المثال في استسلامه والتبرير بعدم قدرته على تغيير الواقع وانه مجبور على السير في هذا الطريق أو ذاك، في حين ترى في تراث أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام أن الإنسان له دخل حتى في تحديد طريقة ووقت موته!

الجبر أو التفويض والمشروع المهدوي في التغيير

وردت الكثير من الروايات في كتب الفريقين عن رسول الله ﷺ وعن أهل بيته الكرام عليهم الصلاة والسلام بضرورة الاعتبار ببني إسرائيل والتأكيد على أن هذه الأمة ستسلك مسلك من سبقها حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل^(١).

سنة التغيير من خلال النص القرآني أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين أن هناك دوراً لبني إسرائيل فيه وأنه سبحانه وتعالى استجاب لموسى ﷺ ولو بعد اللتيا والتي، فدور المجتمع هنا محفوظ وهو ما ينفي بشكل قاطع الجبر أو التفويض في هذه النجاة التي شملت بني إسرائيل.

وهذا البيان القرآني من الواضح أنه سيجري في المشروع المهدوي وأن هناك سنن إلهية للظهور، وعليه من الاشتباه في الاعتقاد أو في طريقة التعاطي مع المشروع المهدوي المُنجي بطابع الجبر أو التفويض وإن كان هذا الأمر يصدر حتى من بعض المتخصصين.

(١) قال النبي ﷺ: «يكون في هذه الأمة كل ما كان في بني إسرائيل حذو النعل بالنعل و[حذو] القذة بالقذة»، وعن سلمان الفارسي قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لتركبن أمتي سنّة بني إسرائيل حذو القذة بالقذة وحذو النعل بالنعل شبراً بشبر وذراعاً بذراع وباعاً بباع». المجلسي، بحار الأنوار، ج ٣٦، ص ٢٨٤.

فالجبر أو التفويض له درجات ومراتب، والأصل الاعتقادي تلقائياً له إنعكاسات وضلال للقوالب الفقهية التي من الممكن أن ترسم حالة جبرية خفية في التغيير الاجتماعي، كمن يفسر التقيّة بنمط ينسجم مع الجبر وليس مع الاختيار والمسؤولية.

من الضوابط القرآنية المهمة في هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ أَرْسُولٌ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١)، وكذلك ما ورد عن النبي ﷺ قوله: (ما خالف كتاب الله فاضربوا به عرض الجدار أو فدعوه..)^(٢) يعني ما وافق أصول الكتاب يبين لنا القراءة الصحيحة للوظيفة الفقهية السياسية الاجتماعية والحضارية.

فالمشروع المهدوي هو مشروع عقائدي وحضاري واجتماعي، وهو منفتح على كل الأصدقاء، ومشروع بهذا الحجم إن كنا صادقين في دعوانا فيجب أن يكون الإعداد واضحاً، مع أننا لا نرى إلا الضعف والهوان والاستكانة، فأين هو الإعداد؟

هذا لأننا ننفي الجبر من جهة فنقع في التفويض من الجهة الأخرى، أو العكس، فعندما نردد في زيارة الإمام عجل الله فرجه الشريف «ونصرتي لكم معدة» وفي نفس الوقت نقرأ علامات الظهور بطريقة أشبه بمنهج الجبرية فهذا أقرب إلى الانتظار السلبي، ونتنظر تحقق العلامات دون أن يكون لنا دوراً في تحقيقها أو نساهم في تقريب الظهور وتحقيق المشروع الإلهي المنجي.

(١) سورة الحشر، الآية ٧.

(٢) الكليني، أصول الكافي، ج ١، ص ٥٥، كتاب فضل العلم - باب الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب.

والقراءة الصحيحة أن علامات الظهور هي قواعد بيانات متوفرة لاتخاذ الإجراءات العملية الكفيلة بتحقيق هذا المشروع، من خلال بذل الجهد والقيام بالمسؤوليات حتى الوصول إلى درجة استحقاق الفعل الإلهي الخالص في التغيير السياسي والاجتماعي والحضاري.

هذه القراءة ليس معناها أننا مجبرين، ولذلك في روايات أهل البيت عليهم السلام تأكيد بأن السفيناني من المحتوم ولكن البدء فيه ممكن، وهذا يعني أنه ليس هناك جبر.

هكذا تكون قواعد البيانات الواردة عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، استعدّ بالقدر الذي يحقق لك النصر على عدوك، أليس الشعار والعقيدة هو «ونصرتي لكم معدّة!» إذن يجب قراءة المشروع الإلهي بنمط بعيد عن الجبر أو التفويض.

فالتقيّة لا تعني أن نكون متفرجين لا نحرك ساكناً سراً أو علناً حتى يأتي من يسومنا سوء العذاب، كونوا حلساً من أحلاس بيوتكم ليس هذا البيت المبني من الطين أو الآجر، بل هو بيت الإيمان والفكر والعقيدة: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾^(١) يعني الابتعاد عن السذاجة الفكرية وعدم الاستسلام للتيارات والمناهج المنحرفة والتمسك فقط بمنهج أهل البيت عليهم السلام.

(١) سورة النور، الآية ٣٦.

التغيير الاجتماعي ينضبط بقاعدة لا جبر ولا تفويض

ضابطة الترابط بين المسائل الفقهية والأصول العقائدية هي القاعدة العقائدية لا جبر ولا تفويض وإنما امر بين أمرين، لأنه يجب ان تنضبط الأمور في هذه القاعدة الفقهية بهذه القواعد الاعتقادية الأساس: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^(٤).

والإمام الحسين عليه السلام عند نهضته المباركة في وصيته لأخيه محمد بن الحنفية: «إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي عليه السلام أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ومن رد علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين»^(٥).

(١) سورة الانسان، الآية ٣.

(٢) سورة البلد، الآية ١٠.

(٣) سورة النمل، الآية ٤٠.

(٤) سورة لقمان، الآية ١٢.

(٥) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣٢٩، ح ٢.

هذا الإصلاح الذي ينشده سيد الشهداء عليه السلام هو تغيير اجتماعي ونفس هذا التغيير ينضبط بقاعدة لا جبر ولا تفويض، لأن التعايش مع الفساد هو طبيعة غير أوليَّة ولهذا تجد حديث الإمام الصادق عليه السلام يقول: «التقية ديني ودين آبائي»^(١) فتكون التقية أيضاً وضعاً غير أولي ومع ذلك يعبر عنها الإمام عليه السلام بأنها دينه ودين آباءه وما ذلك إلا أن أصلها هو القرآن الكريم. فالأحكام الأولية هي الأصل من أهداف الشارع في تشريعاته، وإنما تُشرع الأحكام الثانوية نتيجة الضرورات المؤقتة وليست الدائمة ولذا من الخطأ الالتزام أو جعل الحكم الثانوي كأنه حكم أولي، لأن الحكم الثانوي هو حالة طارئة يتم التعاطي معها لأجل دفع أسبابها الموجبة ومن ثم إزالتها عن الساحة وغير هذا التعامل هو فهم خاطئ للتقية.

إذن مبحث التقية كنظام فقهي لا يمكن قراءته بعمق واتزان إلا تحت مظلة الأصول الاعتقادية ومنها قاعدة لا جبر ولا تفويض إنما أمرين أمرين. فهناك فرق مهم بين الحكم الأولي والثانوي في روابط الفقه، ففي الحكم الأولي لا يكلف الإنسان بإزالة الموضوع هو تلقائياً له أمد عندما تنتقل إلى حكم أولي آخر فيتبدل الحكم بتبدل الموضوع.

أما في الحكم الثانوي فالأمر مختلف لأنك مطالب بتبديل الموضوع، فالشارع سوغ الحكم الثانوي لفترة محددة حتى يقوم المكلف نفسه بإزالة وتبديل الموضوع لا أنه رخص بإبقائه.

هذا المبحث المهم وقع فيه الكثير من الخلط لأن التقية لها معان عديدة أحدها الحكم الثانوي في التقية وهو العمل بغير الصورة الصحيحة.

(١) الكليني، الكافي، ج ٢، ص ١٧٤، حديث ١٢ باب التقية.

إحدى آليات التقيّة أن «العارف بزمانه لا تهجم عليه اللوابس»^(١)، فالسذاجة خطر كبير على الإنسان وخصوصاً في زمان الغيبة ضرورة أن يكون هناك حسّ أمني عند المؤمن، فهذه المسؤوليات بيّنها أهل البيت عليهم السلام حتى لا تُقرأ علامات الظهور بطريقة سلبية لأنها في هذه الحالة تكون أقرب إلى الجبر وليس إلى أمر بين أمرين.

ومنه نلاحظ أن الشارع لا يرغب بالإبقاء على الحكم الثانوي لأنه شرّعه فقط لإعطاء المجتمع فسحة من الوقت لإزالة موضوعه دون تضيق. فلو تولّى مؤمن المسؤولية في نظام جائر على سبيل المثال فهذا لا يعني السعي لإبقاء هذا النظام الجائر بل إن المسألة هي لأجل دفع الضرر عن المؤمنين، فالوضع الطبيعي هو استبدال هذا النظام الجائر بنظام عادي وهو ما أعطى المؤمن إذن الدخول في الأنظمة الجائرة.

مشروع التغيير عند أهل البيت عليهم السلام بملاحظة الواقع بعد استشهاد رسول الله صلى الله عليه وآله إلى يومنا هذا والانتكاسة التي ابتليت بها هذه الأمة هو حالة طارئة - ثانوية - وهذه الأزمة يجب أن تعالج بالتدرّج، لذا عندما يرد الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «التقيّة ديني ودين آبائي»^(٢) فهذا يعني ممارسة العمل بالعنوان الثانوي حتى يتمّ التغيير التدريجي، لأن أحد معانيها أن يكون المؤمن صاحب عقلية أمنيّة هادئة والعمل بحكمة وصبر طويل، وهذا يختلف تماماً عن تفسيرها بمعنى الجمود وعدم الحركة.

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٦٩.

(٢) الكليني، الكافي، ج ٢، ص ١٧٤، حديث ١٢ باب التقيّة.

المصادر

١. القرآن الكريم.
٢. نهج البلاغة - الشريف الرضي
٣. الاحتجاج - . احمد بن علي الطبرسي
٤. الاختصاص - الشيخ المفيد.
٥. أصول الكافي - الشيخ الكليني.
٦. أمالي الصدوق - محمد بن بابويه القمي - الصدوق -
٧. بحار الأنوار - الشيخ محمد باقر المجلسي
٨. تأويل الآيات - السيد شرف الدين الاسترآبادي
٩. تحف العقول عن آل الرسول - الحسن بن علي بن شعبة الحراني
١٠. تصحيح اعتقادات الإمامية - الشيخ المفيد.
١١. تفسير ابن أبي حاتم - عبد الرحمن بن محمد الرازي.
١٢. تنبيه الخواطر ونزهة النواظر - ورام المالكي
١٣. التوحيد - الشيخ الصدوق.
١٤. الخصال - محمد بن بابويه القمي (الصدوق).
١٥. دلائل الإمامة - أبي جعفر محمد بن جرير الطبري.

١٦. روضة المتقين - الشيخ المجلسي.
١٧. روضة الواعظين - الفتال النيسابوري.
١٨. سنن ابن ماجه - محمد بن يزيد بن ماجه.
١٩. سنن الترمذي - محمد بن عيسى الترمذي.
٢٠. السنن الكبرى - أحمد بن الحسين البيهقي.
٢١. شرح الصحيفة السجادية - السيد الداماد.
٢٢. شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد المعتزلي.
٢٣. صحيح البخاري - محمد بن إسماعيل البخاري.
٢٤. صحيح مسلم - مسلم النيسابوري.
٢٥. علل الشرائع - الشيخ الصدوق.
٢٦. الغيبة - محمد بن إبراهيم بن جعفر النعماني.
٢٧. الغيبة - أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي.
٢٨. فروع الكافي - الشيخ محمد بن يعقوب الكليني.
٢٩. الكافي - الشيخ محمد بن يعقوب الكليني.
٣٠. كمال الدين وتمام النعمة - محمد بن بابويه القمي - الصدوق -.
٣١. كنز العمال - المتقي الهندي.
٣٢. المجالس - الشيخ المفيد.
٣٣. المستدرک على الصحيحين - الحاكم النيسابوري.
٣٤. المعجم الوسيط - الطبراني.
٣٥. مفاتيح الجنان - الشيخ عباس القمي.
٣٦. المناقب - ابن شهر آشوب.

٣٧. ميزان الحكمة - الشيخ محمد الريشهري.
٣٨. نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة - الشيخ محمد باقر المحمودي.
٣٩. هداية الأمة إلى أحكام الأئمة - الحر العاملي.
٤٠. وسائل الشيعة - الحر العاملي.

فهرس

المشروع السياسي للإمام المهدي (عج)

٧	الإهداء.....
٩	دعاء الندبة.....
١٩	تمهيد.....
١٩	مشروع المهديّة.....
٢٢	هذا الكتاب.....
٢٣	الفصل الأول: سند الدعاء وحقيقته.....
٢٥	سند دعاء الندبة.....
٢٦	الوجه الأول.....
٢٦	الوجه الثاني.....
٣٠	الوجه الثالث.....
٣٢	الوجه الرابع.....
٣٤	تنبيهات.....
٣٨	معنى الندبة.....
٣٩	الأركان الرئيسة في الدعاء.....
٣٩	الركن الأول.....
٤٠	الركن الثاني.....

٤٠	الركن الثالث
٤٢	خلاصة التراث
٤٥	الفصل الثاني: المدرسة الأخلاقية الوحيانية
٤٧	النظم الأخلاقية وتعدد المدارس
٤٨	المدرسة الأخلاقية الوحيانية
٥٠	أدب التعامل مع الله
٥٢	الفوارق بين المدارس الأخلاقية
٥٢	الأول: الأخلاق النفسانية لها جذر عقائدي
٥٣	الثاني: الأخلاق طبقات ومراتب
٥٤	الثالث: الابهام في المفاهيم الأخلاقية عند التطبيق
٥٧	الفصل الثالث: خطوط الدعاء العامة وأثرها المعرفي
٥٩	الاصطفاء وموقعية الأنبياء
٦١	إكمال الحجة وسدّ الذرائع
٦٤	الإعجاز في الخاتمة
٦٥	الندبة من سُنن المعصومين
٦٩	الفصل الرابع: الدعاء ومنهج التعامل مع الإمام المهدي <small>عليه السلام</small>
٧١	دوام الاستشعار بالمهدي <small>عليه السلام</small>
٧٣	المسؤولية مطلقة
٧٥	سيد الشهداء حافظ للمشروع المهدي
٧٦	مَنْ يَنْصُرُ مَنْ؟
٧٧	الأمل وأثره في الصبر والثبات
٧٩	وجود الإمام الدائم في الساحة

٨١ الفصل الخامس: الدعاء وضرورة الارتباط بالمهدي (عج)

٨٣ ميزان التواصل مع الإمام المهدي عليه السلام

٨٦ نوع الارتباط بالإمام المهدي عليه السلام

٨٨ رؤية الإمام عليه السلام دليل على وجوده

٨٩ حجية التشرف برؤية الإمام (عجل الله فرجه)

٩١ الحجية الأكمل والأتم

٩٣ الفصل السادس: أثر البكاء في تقريب المسافات

٩٥ البكاء إحساس بالمسؤولية

٩٨ أثر البكاء في الشحن الروحي

١٠٠ دعاء الندبة مدرسة تربوية

١٠٢ الممارسة اليومية للحب والمودة

١٠٣ التقرب الروحي والفكري

١٠٦ دوام الذكر يوجد المحبة

١٠٨ الدفعة آية المحبة

١٠٩ الفصل السابع: محورية المودة في لزوم الطاعة

١١١ لغة الشوق والحنين

١١٣ أثر الحب والتعلق بأهل البيت

١١٥ القصد بالقلوب أبلغ

١١٧ الحب والحنين خروج من الظلم

١١٩ من طرَقَ باباً أو شك أن يُفتح

١٢٣ الفصل الثامن: الدعاء والقراءة الصحيحة للمشروع المهدي

١٢٥ كيف نقرأ علامات الظهور؟

- ١٢٦ منهج الإفراط
- ١٢٧ منهج التفریط
- ١٢٨ أين تكمن الخطورة؟
- ١٢٩ القراءة الصحيحة
- ١٣٢ الأهم هو العشق
- ١٣٣ من أراد استعداداً!
- ١٣٤ أنت سيد الموقف
- ١٣٥ العلامة الكبرى للظهور الشريف
- ١٣٧ ضريبة العجز والتقصير
- ١٣٩ الفصل التاسع: مسؤوليات ومهام المؤمن قبل الظهور
- ١٤١ مسألة قديمة بلغة عصرية
- ١٤٥ دور المؤمنين في التمهيد للظهور المقدّس
- ١٤٧ كلمة «يملأها قسطاً وعدلاً» تحمّلنا المسؤولية
- ١٤٩ تحمل المسؤولية والتدرّج في التمهيد
- ١٥٢ التمهيد الروحي أجل وأعظم
- ١٥٥ مسؤوليتنا في إقامة الحكومة قبل الظهور
- ١٥٧ الفصل العاشر: النظام الأمني في المشروع المهدوي
- ١٥٩ نظام أمني صارم وسريّة تامة
- ١٦٢ التقيّة دين ونظام
- ١٦٥ السريّة سبب من أسباب القوة
- ١٦٧ الغيبة إحتفاظ بعنصر المبادرة
- ١٧٢ المسؤولية بين الكتمان.... والنشر
- ١٧٧ الفصل الحادي عشر: المفاهيم وضرورة حفظها

- ١٧٩خطورة النكث بعد الأيمان
- ١٨٣إقامة للعدل أو التزام العرف؟
- ١٩٠ضرورة عدم الخلط بين الموازين
- ١٩٣الاعتزال الإيجابي سنة من سنن الأنبياء
- ١٩٥**الفصل الثاني عشر: الوعي والبصيرة في مشروع التمهيد**
- ١٩٧التعرف على بنود المشروع
- ٢٠٠الوعي بالمشروع المهدي
- ٢٠١ضرورة المعرفة والترويج للمشروع المهدي
- ٢٠٤الوعي والبصيرة في مواجهة الحرب الإعلامية
- ٢٠٩حرب المعلومات المضللة
- ٢١١الدولة المهيمنة بالعلم والبصيرة
- ٢١٥**الفصل الثالث عشر: العدالة مطلب عالمي**
- ٢١٧قراءة جديدة لمنظومة العدل
- ٢١٩أين تكمن سعادة البشر
- ٢٢٢القادر على بسط العدل
- ٢٢٥الأصلح لقيادة العالم
- ٢٢٨معنى «يملأها قسطاً وعدلاً»
- ٢٣١**الفصل الرابع عشر: بناء الأعراف الصالحة**
- ٢٣٣لا إقرار للأنظمة السياسية والأعراف المنحرفة
- ٢٣٥السعي نحو الأعراف الصالحة
- ٢٣٩بين القاعدة العقلية والعرفية
- ٢٤١دور الأعراف المهدوية في تمييز الكمال الحقيقي

٢٤٣ نشر الأعراف المهدوية الصالحة
٢٤٥ الفصل الخامس عشر: قيادة النظام العالمي
٢٤٧ الشعارات المهدوية مشروع ومسؤولية
٢٤٨ نقل الغيب وتعريفه لأهل الشهادة
٢٥٢ المهمة الصعبة
٢٥٣ العامل الأول
٢٥٤ العامل الثاني
٢٥٦ ميزان المواطنة في الدولة المهدوية
٢٥٨ قيادة النظام العالمي

فهرس مشروع النجاة والمسؤوليات

٢٦٥	الإهداء.....
٢٦٧	تمهيد.....
٢٧١	الفصل الأول: مقدمات الانهيار الحضاري وعوامل التغيير.....
٢٧٣	مراحل الانحدار والتغيير في المجتمعات.....
٢٧٥	أعوان الظلمة سبب الطغيان.....
٢٧٨	واقع التصادم بين نهجين مختلفين.....
٢٨٠	المعصوم محور نظام العدل الإلهي.....
٢٨٣	حضور المعصوم نظم لأطراف البشر.....
٢٨٥	حفظ التوازن في المشاريع الإلهية.....
٢٨٩	الفصل الثاني: عملية التغيير الاجتماعي .. الآليات والنتائج.....
٢٩١	حقيقة النجاة في المشروع الإلهي.....
٢٩٦	شروط النجاة في المشروع الإلهي.....
٣٠٠	تذكير بالنعمة في سبيل المشروع.....
٣٠٢	التذكر ودوره في المعرفة والتغيير.....
٣٠٥	البداء وأثره في المشروع الإلهي المُنجي.....
٣٠٩	صبر المؤمن في سبيل أهدافه نجاة له.....

- ٣١١ الفصل الثالث: مقومات المشروع الإلهي في عملية التغيير
- ٣١٣ المشروع الإلهي وحفظ المسؤولية
- ٣١٦ الفاعلية الصادقة مع المشروع المُنجي
- ٣١٩ الاطمئنان والثقة في أداء المسؤولية
- ٣٢١ ضرورة التنامي المستمر في تحمل المسؤولية
- ٣٢٤ ضرورة اتساع القاعدة الناصرة
- ٣٢٧ الفصل الرابع: المشروع المُنجي وضوابط العمل بين التقيّة والعلن
- ٣٢٩ ضوابط العمل في نصرة المشروع الإلهي
- ٣٣٢ دفع التضارب في فهم الروايات
- ٣٣٢ الأمر الأول: الإعلان يضعف المشروع
- ٣٣٣ الأمر الثاني: المحور هو الله وليس الأنا
- ٣٣٤ الأمر الثالث: معنى التقيّة في فلسفة التشريع
- ٣٣٨ الأمر الرابع: اختلاف التوجيه باختلاف القابلية
- ٣٤١ ضوابط التقيّة
- ٣٤٥ الفصل الخامس: عملية التغيير الاجتماعي بين الجبر والتفويض
- ٣٤٧ سُنّة الله في التغيير
- ٣٥٠ الإصلاح والتغيير يبدأ من الفرد
- ٣٥٣ سُنّة الله في التغيير بين الجبر والتفويض
- ٣٥٦ الموازنة بين اللاجبر واللاتفويض في عملية التغيير الاجتماعي
- ٣٦٠ الجبر أو التفويض والمشروع المهدي في التغيير
- ٣٦٣ التغيير الاجتماعي ينضبط بقاعدة لا جبر ولا تفويض
- ٣٦٦ المصادر